الفضائل والقيم

لدي الشعوب القديمة ذوات الأديان الإنسانية

الدكتور

جلال شمس الدين

الاسكندرية

الناشر

مؤسسة الثقافة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة

تليفاكس ٤٨٧٥٢٢٤ الاسكندرية

مقدمة الطبعة الثانية

طُبِع هذا الكتاب أول مرة عام ٢٠٠٥ ، وبعد أن خرج من المطبعة وقرأه بعض القريبين منى ، تبين لى أن هناك بعض المواضع التى أُسِئ تأويلُها. ونظرا لأن عدد النسخ كان قليلا ، فقد قمت على الفور بتعديلها ، غير أن بعض النسخ لم يشملها التعديل لسبب أو لآخر ، وقد اشتملت هذه الطبعة على التعديلات السابقة بطبيعة الحال مع بعض إضافات قليلة تزيد الأمر وضوحا .

أما أهم الآراء التى قيلت تعليقا على هذا الكتاب ، فقد ارتأى بعض القراء الذين أشرت إليهم أن الأقوام الذين لم يحظوا بدين إلهى ، لا يمكنهم أن يصنعوا فضائلَهم وقيمَهم بأنفسهم ، ولابد أن تكون هذه الفضائل والقيم قد جاءت من السماء عن طريق أنبياء أُوحى لهم وإن لم يصرَّح بأسمائهم فى الكتب الإلهية ، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى فى القرآن الكريم : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلِك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصصْ عليك)(غافر ٧٨)[*] . غير أنه لم يتناه إلينا من المراجع التى أتيحت لنا ، أن حكيما من حكماء الديانات التى قدمناها فى هذا الكتاب قال مثلا: إن الله قد أرسلنى لأقول لكم كذا... ، أو إن الله قد أوحى إلى بكذا... ، أو إن الله قد أرسل إلىَّ وحيه لكى أقول لكم كذا...، مع أنه مكلف بهذا الإبلاغ حتى يحيى من حَيِىَ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة . هكذا قال فقهاء الإسلام من المعتزلة[1]، ولذلك فقد اعتبرنا أن كافة الأديان التى قدمناها فى هذا الكتاب أديانا إنسانية – أى صنعها الإنسان بنفسه – وأن الفضائل والقيم التى دعت إليها هذه الأديان هى أيضا من صنع البشر .

اعترض بعض القراء[2]على قولى " إن الفضائل والقيم تكون تطورية أحيانا ، وإن كنا لا نستطيع أن نعمم ذلك على كل تطور يحدث فى الأخلاق" (ص ٢١١)،

(*) فى حديث خاص مع بعض القريبين منى، منهم الأستاذان كمال شمس الدين و جمال شمس الدين والأستاذتان لمانى شمس الدين و منى شمس الدين الموجهتان بالتربية و التعليم و الآنسة نجلاء شمس الدين.

(١) التفتزانى ١٥٤

(٢) المهندس صلاح منجى فى خطاب مطول أرسله لى،و ما عرضته أهم ما فى هذا الخطاب.

لأن هذا التطور يهدم الثوابت من جهة ، وقد يسير على غير ما نشتهى من جهـــة أخرى ٠

أما بالنسبة لافتراض الثبات فى الفضائل والقيم ، فهذا مالا نراه، والذى نراه هو أنها نسبية متغيرة تتغير من زمن إلى زمن ومن شعب إلى شعب آخر ، وربما تَمكّنا من إثبات ذلك من خلال هذا الكتاب ٠أما بالنسبة للخوف من أن هذا التطور قد يسير على غير إرادتنا فيصل بنا إلى نوع من الإنحلال ٠ فهذا ما يحدث فعـــلا فى الفترات التى تسود فيها الحروب والثورات والمجاعات وغير ذلك من المحـــن التى تصيب البشر من حين إلى حين ، إذ تتدهور الأخلاق فتختفى فضـــائلُ مثـــل التراحم والإحسان والأمانة والصدق ٠٠٠ إلخ ، وتحل محلهـــا فضـــائل أخـــرى مهجورة تمجد القسوة والاغتصاب والكذب والغدر ، وغير ذلك من الرذائل التـــى سبق أن هجرها نفس هؤلاء الناس ، ويظل الأمر كـــذلك إلـــى أن تنتهـــىَ هـــذه الظروف القاسية، فتهدأ النفوس، ويحتل كبح الجِماح مكانه فى المجتمع مرة ثانية ، وتعود الأمور إلى سيرتها الأولى ٠وعلى أى حال أنا لم أقـــل "بتطوريـــة بعـــض الفضائل والقيم أحيانا "من باب" ما ينبغى أن يكون ولكن من باب مـــا هـــو كـــائن بالفعل ومدعما بالأدلة التاريخية كما سوف يرى القارئ ص٢١١ ٠

وقد ارتأى نفس القارئ أن الفضائل والقيم غريزية أو فطـــرية ، وبالطبع لن يكون للإنسان فضل فى إبداع فضائله وقيمه ، وهذه النظرية نجـــد جذورها عند ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠)٠وهى نظرية جذابة لولا أنها تواجه بعض الصعوبات؛ فإذا كانت الفضائل والقيم غريزية ، فكما أن الغرائز واحدة عند كل الناس فى كافة العصور وكافة البلدان ، فيجب أن تكون الفضائل والقيم واحدة هى أيضا عند كـــل الناس فى كافة العصور وكافة البلدان ٠ ولكن هذا لم يحدث قط؛ فكل قـــوم لهـــم فضائلهم وقيمهم الخاصة بهم كما سوف يرى القارئ٠

ومن الصعوبات أيضا أن الغرائز لا تُعَلَّم ، فنحن لا نُعلِّم الطفل كيف يتلقى ثدىَ أمه ، ولا أحدَ يُعلم الكتكوت كيف يكسر البيضة فى تاريخ معين ليخرج منها . فطالما كان الأمر كذلك فكان ينبغى أن لا نعلم أبناءنا الفضائل والقيم ، ولكن ذلك لا يحدث أيضا، فما زلنا نقف لهم بالمرصاد لكى نقوّم سلوكَهم وانحرافاتهم ، فإذا ما رأيناهم يكذبون مثلا أو يدسون شيئا فى جيوبهم ، خوّفناهم من عاقبة الكذب أو من أخذهم أشياءَ لا تخصهم ، فالأطفال الآخرون مثلا لن يلعبوا معهم وغير ذلك ، وحثثناهم على قول الصدق وعلى أن يُرجِعوا بأنفسهم الأشياء التى أخذوها إلى أماكنها. بل إننا إن لم نفعل ذلك كانت العواقب وخيمة بالتأكيد. فالفضائل والقيم تربوية ومكتسبة من المجتمع ، وتخضع لنظريات التعلم ، وأهمها الإشراط الكلاسيكى والإشراط الإجرائى وغير ذلك من النظريات . ولقد تعرضت نظرية الغرائز الفطرية كمحرك للسلوك الاجتماعى للنقد من بعض علماء الاجتماع :" فنحن نتصرف بشريا ليس بسبب غرائزنا ، أو نزعاتنا ، ولكن بسبب ثقافة المجتمع التى تلقيناها "(٣). بل إن بعض العلماء يرى أن الغريزة نفسها التى يعتقد البعض أنها استقرت مع الإنسان منذ خلقه ، قد وُجِدت لما تهيأت الظروف لوجودها عن طريق الإشراط الكلاسيكى ، فقد جاء فى موسوعة كوليار(٤) ، مادة "ثقافة" culture : " إن استجابة معظم الكائنات للمثيرات أو لموقف ما،يعرف إلى حد كبير بالغريزة " .أى أن الغريزة التى كنا نظنها أصيلة فى الإنسان ، هى أيضا متعلمة ومكتسبة عن طريق الإشراط .

وأخيرا ، لو نجح أصحاب هذه النظرية فى أن يثبتوا أن الفضائل والقيم غريزية حقا وفطرية فى الإنسان ، فإن ذلك سوف يجعل الإلزام الخلقى – وهو العامود الفقرى للأخلاق – كائنا فى الغريزة الخلقية ، مما يلغى المسئولية

---

(٣) د محد شحاتة ربيع ، تاريخ علم النفس ومدارسه ،ص٣٧٩،دار الصحوة ، القاهرة ١٩٨٦ .

(4) Collier's Encyclopedia

الخلقية للإنسان ويصبح بمنجى عن المساءلة طالما أن الغرائز ليست من إنشـائه ، وعلى صاحب النظرية أن يبين لنا على من تقع المسئولية الخلقية فىهذه الحالة ؟

وقدم نفس القارئ نظرية أخرى شبيهة بالنظرية السابقة ، وإن كانت أكثر جاذبية لأنها لاهوتية وذات منطق يبدو محكما. إذ تقرر هذه النظرية أنه طالمـا أن الإنسان خليفة الله فى الأرض بحكم قوله تعالى فى القرآن الكريم : (وإذ قـال ربُّك للملائكةِ إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً) (البقـرة ٣٠) ، " فلابـد أن يكـون الإنسانُ عظيما مستحقا لدور الخلافة ، له من قوة الخَلْق والإبداع ما يتناسب مـع هذا الدور ، فلابد أن يكون به قبس ممن منحه الخلافة ..." ، وطبعا سوف يعمل هذا القبس على إيداع الفضائل والقيم ولا يكون للإنسان فضلٌ فى إنشائها.

غير أن هناك أيضا بعض الصعوبات أمام هذه النظرية ؛ إذ رغم صدق هذه المقدمات التى لا نشك فيها ،فقد يرى الله تعالى أن لا يَمنحَ الإنسـان مثـل هـذا القبس، ربما لأنه ظلوم جهولٌ (الأحزاب ٧٢) أو لأنه عصى أمر ربه (طـه١٢١) أو لغير ذلك من الأسباب. فمن يضمن لنا وجوده فى الواقع ؟ وحتى لو تأكـدنا من وجوده،فهل هو موجود بالتساوى لدى جميع الناس ؟ وهل له نفس الطبيعة كمًا وكيفًا عند المعوقين ذهنيا والمعتوهين والبُله ؟ أم هم محرومون من القبس الإلهـى لظروف تخصهم رغم أنهم أحوج له من الأسوياء ؟ وحتى لو افترضنا أنه موجود بالتساوى لدى جميع الأصحاء من الناس ، فلماذا وُجِد أناسٌ أشرارٌ مع أن لـديهم نفسَ القدر من القبس الموجود لدى الأخيار ؟ ولماذا تعطل القبس لديهم عن العمل ولم يجبرْهم على فعل الخير وينهاهم عن فعل الشر بما أنه إلهى؟ أم أنه ليس لديـه القدرة على الإلزام الخلقى مع خطورة هذا الإلزام بالنسبة للأخلاق ؟ ثم أين كـان هذا القبس الإلهى حينما كان الإنسان يعيش مع غيره من الناس عيشـة الهمجيـة والاغتصاب وسفك الدماء منذ ملايين السنين أو حتى منذ عشـرات الآلاف مـن السنين ؟ أم أن هذا القبس لم يوجد إلا حديثا ؟

وأما الصعوبة الأخيرة التى تواجه نظرية القبس الإلهى الأخلاقية ، فهى صعوبة عقائدية لا تخص الفلسفة الأخلاقية وإنما نريد فقط أن نشير إليها ، وهو أن بعض ذوى الرأى من أصحاب الأديان الإلهية قد يرفضون هذه النظرية لأنها أدخلت فى الدين عقيدة لم تكن فيه ؛ إذ القول بوجود "قبس إلهى" فى الإنسان قد يلغى دور النبوة وبالتالى يلغى الأديان الإلهية ، فالإنسان - عن طريق هذا القبس - سوف يصبح قادرا على أن يصنع لنفسه تصورا صحيحا للألوهية وللكون ، ويستطيع عن طريقه أيضا أن يصل إلى الشريعة الصحيحة والفضائل والقيم بطبيعة الحال ... إلى آخر الوظائف التى تقوم بها الأديان الإلهية ، ومن ثم يصبح فى غير حاجة إلى الرسل. قد يقال إن هذا القبس ماهو إلا هَدْي إلهى يرشد الإنسان إلى الصواب والخطأ . والرد على ذلك : وما الذى جعل هذا القبس الإلهى يَتوارَثُ جيلا بعد جيل ولا يضيعُ أو يتشتت إلا أن يكون أُقنوما إلهيا خالدا مع الزمن ؟

وبصرف النظر عن هذه الاعتراضات العقائدية فقد يستطيع صاحب النظرية أن يفندها عقائديا أيضا، غير أنه فى جميع الأحوال عليه أن يثبت صدق النظرية باتساقها مع الواقع الإنسانى وليس باستخدام المنطق ،فهو غير مجدٍ هنا؛ إذ بتغيير المقدمات يمكن للمنطق أن يعطينا نتائج متضادة ؛ فبالمنطق أعطينا الإنسان قبسا إلهيا وبالمنطق حرمناه منه. وعليه أن يدلنا على من تقع المسئولية الخلقية ، أعلى القبسِ الإلهى ؟ أم على الإنسان رغم أنه لا سلطانَ له على هذا القبس ؟

وأيا كان الأمر ، فسوف يجد القارئ فى التمهيد عرضا موجزا لأهم المدارس الأخلاقية ومناقشةً لها ، وله أن يختار منها ما يشاء ، أو يتحمل المشاق وينشئ لنفسه نظرية أخلاقية جديدة.

جلال شمس الدين



الفهرس

مقدمة الطبعة الأولى

يعتقد بعض ذوى الديانات الإلهيـــة أن مصدر الفضائل والقيم هو الدين الإلهـــى ، وأنه لولا هذا الدين الذى أنزل من السماء لكى يرشد الناس للفضائل والقيم لكنا ما زلنا نعيش فى ظلام أخلاقى دامس ، وما عرفا إلى الفضائل والقيم ســـبيلاً، وأن الشعوب القديمة التي حُرمت من الأديان كانوا جميعاً محرومين من الحـــياة الخلقـــية، وأن أديـــانهم الوثنية لم تكن لتميز بين الخير والشر، والجميع يعيشـــون فـــي حياة بهيمية، ولا يحيون إلا من أجل اللذات، أو من أجل الإغارة على غيرهم من الشعوب لسبيهم وسبي نسائهم واستحلال ممتلكاتهم، وأنهم كانوا في- أحسن أحوالهم- عاكفين على عبادة الأوثان.

فأصـــحاب الأديـــان الإنســـانية يفتقرون إذن للفضائل والقيم، ومن ثم استحقوا أن ينظرَ إليهم بعض ذوي الأديان الإلهيـــة نظرة دونية.

ولقد عارض مؤرخ الأخلاق جيمس هنري برستيد الادعاء بأن الأخلاق انحـــدرت إلينا عن طريق الدين الإلهـــى فقط وأنه كان الطريق الوحيد لوصول الأخـــلاق إلينا، ففي كتابة " فجر الضمير" أثبت أن بداية نشأة "الضمير"، ومن ثم الأخـــلاق بمـــا تحتوي عليه من فضائل وقيم كان على يد المصريين القدماء هم وفـــراعنتهم، وبالتحديد منذ حوالي ٤٠٠٠ عام قبل ميلاد السيد المسيح، وألفي عام قبل نزول التوراة وهو أول الكتب الإلهيـــة التي جاءت بالفضائل والقيم ولقد أثبت برستيد ذلك بأدلة تاريخية، وبالرجوع إلى وثائق مسجلة.

غير أن برستيد ادعى إدعاءاً آخر، وإن لم يثبته تاريخياً الإثبات الكافي- وهو أن اكتشاف الأخلاق لا يمكن أن يكون نتيجة لتجارب أمة من البشر بعينها، بـــل نتيجة لتجارب وإلهامات العالم بأسره، إن جهل العالم بمدنيات الشرق القديم التـــي زالت منذ آلاف السنين، ثم ما وصل إلينا أخيراً من تاريخ هذه المدنيات، فـــإن أول أثـــر يخطـــر على البال- كما يقول برستيد- بعد هذا العرفان هو أن

نرفض ذلك المذهب اللاهوتى القائل بانفراد شعب واحد بالتمتع بالوحى الإلهى،وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا عدة قرون عن التعرف على ذلك التراث الخلقى الجليل الذى ورثناه عن تأملات وإلهامات العالم بأسره ، لا عن تاريخ أو تجارب أى أمة من البشر بعينها . وعلى ذلك فإن أعظم فائدة نجتنيها من وراء الاهتداء إلى حقيقة تلك المدنيات الشرقية القديمة المفقودة هى أنها ردت إلينا تراثا عرضه عرض الأفق، وهو التراث الذى خلفته لنا حياة بنى الإنسان أجمعين، ففيه نجد أعظم وحى يخطر لنا، وبه يمكننا الآن أن نستدل على أن انبثاق إدراك الإنسان للمميزات التى تفرق بين السلوك الطيب والخاطئ ، إنما هو خطوة من خطى التاريخ ، نتيجة للخبرة الاجتماعية(١).

غير أن برستيد، بعد أن عرض للأخلاق عند المصريين القدماء عرضا مفصلا، استشهد فقط بإشارة سريعة إلى حضارات الكنعانيين والحيثيين والبابليين والفرس ، وهو عمل يتفق تماما مع هدفه من تأليف كتابه وهو إثبات أن فجر الضمير الإنسانى إنما بزغ فى مصر القديمة .

أما هدفنا من تأليف هذا الكتاب ، فهو أن نوسع من نطاق الدراسة التى قام بها برستيد فلا نجعلها منحصرة فى ثقافة المصريين القدماء والبابليين والحيثيين والكنعانيين والفرس فقط كما فعل برستيد ، بل نضيف إليها- مع ما سبق - بعض الديانات الإنسانية القديمة مثل الزرادشتية والهندوكية والبوذية...إلخ ، وبعض الثقافات القديمة أيضا مثل الثقافتين اليونانية والرومانية، وجميعها ثقافات تعرف القراءة والكتابة ولها تاريخ مكتوب مُوثّق ، فيما عدا العرب الذين اعتمدنا على المحفوظ من أمثالهم وشعرهم ، بحيث تصبح هذه الدراسة بعد أن وسعنا نطاق الاستقراء فيها : البحث عن الفضائل والقيم لدى الشعوب القديمة، والذى يهمنا أن لا تكون هذه الشعوب ذات علاقة بالوحى

---

(١) برستيد ٤١٣

فننظر لنرى هل لهذه الشعوب فضائل وقيم حقاً كتلك التي جاء بهـا الـوحي أم لا، وطبعاً سوف يكون ذلك من خلال استقراء حضاراتهم بما فيها مـن ديـن أو أحداث تاريخية، أو سلوكيات اجتماعية . . . الخ ،المهم أن يكـون ذلـك عـن طريق الاستقراء ودون أن نقطع مقدما – باستخدام العقل كما فعل المعتزلـة – بوجود الفضائل والقيم منبتة عن الوحى ٠

هذا وينبغي أن نلفت إلى شيء هام جداً، وهو إننا إذا كنا سنهتم في هـذا الكتاب بتتبع تاريخ الفضائل والقيم لدى بعض الشعوب ذوات الديانات الإنسـانية، فإن هذا لا يعني أن هذه الشعوب كانت تخلو من الرذائل بل كانت لهـم رذائلهـم وسخائمهم التي يألم الإنسان لها، غير أن بعض هذه الرذائل كانت عادات مألوفة لديهم، ولم يكن الضمير عندهم قد نضج النضج الكافي ليـدركوا مـا فـي هـذه الرذائل من شر، يقول ديورانت " كل رذيلة كانت يوماً ما فضيلة ضرورية فـي تنازع البقاء ولم نسمها رذيلة إلا لأنها تلكأت في وجودها بعـد زوال الظـروف التي كانت تستلزم وجودها، فليست الرذيلة إذن ضرباً من السلوك الراقي، بل هي في العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذي حل مكانه سلوك جديـد، فمـن الغايات التي ينشد تحقيقها التشريع الخلقـي، أن يـوائم نـزوات [أي متطلبـات] الطبيعة البشرية التي لم تتغير، أو التي تتغير ببطء مع حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة "[٢] ومثال ذلك قسوة الرجل البدائي وميله إلى العدوان، فـإن ذلك أمر طبيعي تحتمه طبيعة الحياة البدائية ذاتها، يقول ديورانت " وأما جـرائم الافتتات والاعتداء، فهي قديمة قدم الجشع، فتقاتل الناس على الطعـام والأرض والمرأة، قد روى الأرض بدماء البشر، لم ينج من ذلك جيل واحد من الأجيـال، وغُشى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام٠ كان الإنسان البدائي قاسياً

---

(٢) ديورانت ١

لأنــه كــان حــتماً عــليه أن يكون كذلك إذ علمته الحياة أن يكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً، وأن يكون له قلب يستسيغ القتل الطبيعي".[٣]

وفي الحقيقة، فإنه مهما كانت درجة رفضنا للرذائل، وللشر عموماً، فإننا نســتطيع القــول أن هــذه الــرذائل وما يكتنفها من شرور، هي الممهد الرئيسي لتوصــلنا للفضائل، إذ لولا ما يكتنف هذه الرذائل من شرور وآلام، لما رفضناها رنــبذناها أصــلاً، ولمــا توصلنا للفضائل التي تجنبنا تلك الشرور والآلام ومن المعــروف أن " الألــم" في الفلسفة الخلقية وعلم النفس، محرك هام للسلوك لكافة الكائنات الحية من الأميب إلى الإنسان.

فالفضــائل والــرذائل إذن ليستا كذلك لوجود صفات ذاتية فيها كما اعتقد المــثاليون اليونان، والمعتزلة من بعدهم، بل إن الفضائل فضائل والرذائل رذائل لأن المجتمع أراد لهما ذلك. وهذا الرأي الذي توصل إليه ديوارنت لابد أن ننظر إليــه بعيــن الاهتمام، لأنه توصل إليه عن طريق استقرائه للتاريخ وليس نتيجة للتحليل العقلي كما يفعل فلاسفة الأخلاق.

على أننا نريد أن ننبه إلى شيء هام آخر، وهو أنه إذا كنا سوف نعرض في هذا الكتاب أحياناً نداء الحكماء إلى مريديهم والآباء إلى أبنائهم أن يتحلوا بما أمكــنهم مــن الفضــائل، فــلا يعني هذا أن هذه الفضائل كانت وقفاً على هؤلاء الحكمــاء والآبــاء وســائر المصلحين، بل لقد كانت هذه الفضائل معروفة لدى الجميــع في أزمانهم، ولم يفعل هؤلاء الدعاة إلى الأخلاق شيئاً سوى أنهم جمعوا هــذه الفضــائل والقيــم وطالبوا محبيهم بالعمل بها بما لهم من سلطان أدبي في نفوســهم، وبما يضربونه من المثل الأعلى لأتباعهم. أي أن الفضائل والقيم ليست من "وضع" هؤلاء المصلحين كما اعتقد بعض العلماء، بل هي منتج اجتماعي لا يُعــرف مــن وضعه كاللغة تماماً، وهي تتطور تماماً مثلما تتطور اللغة، فكما أن

---

(٣) ديورانت ٩٢/١

لكـــل قـــوم لغتهم فأيضاً لكل قوم فضائلهم وقيمهم التي لا تنفصل عن ظروفهم الاجتماعية، بل الجغرافية والتاريخية أيضاً.

وعـــلى ذلـــك، فإنـــنا إذا كـــنا نورد فضائل وقيم الشعوب ذوات الأديان الإنسانية، فإننا نورد هذه الفضائل والقيم ناظرين إليها بأعين هذه الشعوب وليس بأعيـــنا نحن، أو حتى ناظرين إليها نظرة معيارية، فالفضائل والقيم كما سوف نـــرى فيما بعد نسبية تماماً، وليس لها وجود خارجي مستقل مهما كانت شائعة، وعـــلى ذلـــك فإن بعض الفضائل والقيم هنا لا يقرها كاتب هذه السطور، ولكن المـــنهج المستخدم في هذا الكتاب وهو المنهج الوصفي، يحتم إيراد هذه الفضائل والقيم كما هي دون أن نطلق عليها تقيماتنا الخاصة.

هذا ورغم أن هذا الكتاب غير مخصص للبحث في العقائد الدينية أصلاً، إلا أننا كنا نرى أحياناً أن وجود الفضائل والقيم عند شعب من الشعوب مرتبط أساساً بالعقيدة الدينية لدى هذا الشعب، على العكس من شعب آخر، فكان لابد من عرض تحليل موجز لعقائد الشعوب المختلفة لكي نبين المواضع الأخلاقية بها أو ننوه بعدم وجودها.

هـــذا وسوف نفترض فى هذا البحث -كمصادرة- أن القارئ على وعى تام بكافة الفضائل والقيم لدىالشعوب ذوات الأديان **الإلهيـــة** المنزلة من الله ، فلا نقارن بينها وبين تلك التى لذوى الأديان الإنسانية المصنوعة بمعرفة البشر ، وعلى القارئ أن يقوم بهذه المقارنة بنفسه ٠

هـــذا وقد استخدمنا مصطلح " أخلاق " هنا بمعناه الدارج أى " الفضائل والقيـــم " ، رغم أنه أوسع من هذا حيث أنه يشتمل - بالإضافة إلى ذلك -على كافة الخبرات الخلقية ٠

تمهيد

نـبدأ هـذا الـتمهيد بتعريف بعض الحدود التي جاءت بالعنوان، فالقيم values لهـا معـنيان فـي هذا الكتاب، أما المعنى الأول فهو المبادئ أو القواعد norms, priniciples الـتي تحكـم سـلوك فرد معين أو جماعة معينة في عصر معين، مثل قولهم: ينبغي أن تكون كريماً مع الفقراء، أو ينبغي أن تكون أميناً مع الآخـرين. فالمبادئ والقواعد تأمر، و لذلك فهي معيارية، وأما المعنى الثاني فهو أن تعـني المـثل العليا والغايات القصوى دون تحديد، كأن نتكلم عن "الخير" أو الفضيلة بصفة عامة دون أن نحدد ما هية هذا الخير أو ما هية هذه الفضيلة.

أمـا الفضائل virtues، فهي ما نمارسه بالفعل من سلوك مع الآخرين، فيقال مثلاً: فلان كريم مع الفقراء، أو فلان أمين مع الآخرين، فنحن لا نأمره بأن يكون كريماً، أو أميناً، بل نصفه بالكرم والأمانة لأنه سلك هذا السلوك فعلاً، ومن ثـم فإنه إذا كانت المبادئ والقواعد معيارية، فإن الحديث عن الفضائل ذو طبيعة وصفية.

أما الدين الإنسانى فهو من صنع البشر ، أى غير موحى به مـن الله ، وهو مجموعة من المعتقدات المقدسة، التى تدور حول السلوك وقد تفسر الكون ، وتكون مصحوبة غالبا ببعض الطقوس التى يمارسها أصحاب هذا الدين. وقـد يتخذ الدين الإنسانى من الغيب محورا له كما فى الهندوكية والزرادشتية ، وقـد يعترف بالغيب ويقر وجوده ولكنه ينحيه جانبا كما فى البوذية والكنفشيوسية.

والآن، ما هي علاقتنا بالفضائل والقيم؟ . . . قد تكون هده العلاقة واحدا مما يلي: - أن نمارسها.

- أن نحث الآخرين على ممارستها.
- أن نصـفها كما هي موجودة بالفعل فنقول مثلاً: هذه الجماعة تحسن إلى الآخر، أو أن هذا الشعب يحترم المرأة ويأمر بعدم إهانتها.

- أن نُنَظِّر لها، فنتساءل عن مصدر الالزام الخلقي ونحاول أن نحدده.

وهذا الكتاب معنى أساساً بوصف الفضائل والقيم لدى شعوب قديمة كما يهتم- بإيجاز شديد- بالتنظير لها، وليس التنظير مطلوباً لذاته، ولكن لمجرد بيان وجهة نظر الكاتب.

فَلْنَنْظُر إذن ما هو مصدر الفضائل والقيم وكيف نشأت وما هي محركاتُها؟ تمثل الإجابة على هذا السؤال مبحثاً هاماً من مباحث الفلسفة الخلقية وكذا علم الاجتماع، ومن الآراء التي قيلت في ذلك هو الرأي الذي قال به رجال الدين عموماً خاصة علماء الدين الإسلامي فلقد سبق أهل السلف وعلماء الحديث في الإسلام متأخري علماء اللاهوت في الغرب ببضعة قرون من الزمان، حين ردوا خيرية الأفعال وشريتها إلى إرادة الله، فالخير ما حسَّنه الشرع وأثنى عليه، والشر ما قبَّحه الشرع ونفَّر منه، ولو أمر الشارع بالكذب لكان خيراً، ولو نهى عن الصدق لكان شراً، وليس ثمة فعل يمكن اعتباره خيراً في ذاته أو شراً في ذاته، يشهد بهذا أن القتل يذم حين يقع بغير موجب، ويمتدح حين يكون قصاصاً.. ولكن المعتزلة رفضوا هذا الرأي بنظريتهم في الحسن والقبح العقليين، كما رفض أفلاطونيو كمبردج رأي علماء اللاهوت المشابه له، قال المعتزلة إن في الأفعال خصائصَ ذاتيةً توجب اعتبارها خيراً أو شراً، والله يأمر بالخير لأنه في ذاته حسن، وينهى عن الشر لأنه في ذاته قبيح، ومن أجل هذا استطاع العقل بطبيعته أن يميز بين الخير والشر قبل أن يرد بهما شرع، وكان الإنسان مكلفاً باتباع الدين ولو لم تبلغه رسالة[1] فاقتربوا بذلك من أفلاطون وارسطو وكافة العقليين الذين قالوا بأن الفضائل والقيم يمكن إدراكها بالعقل وبأن لها وجوداً واقعياً.أى أن المعتزلة جعلوا الأخلاق مستقلة عن الدين وفى نطاق إدراك الإنسان قبل برستيد ، ولكنهم لم يقدموا الدليل على ذلك.

---

[1] الطويل ٣٠٨

أما عن ورود التكاليف " فهو ألطاف للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينه"[٢]

وهذا الذي ذهبت إليه المعتزلة والعقليون عامة وإن كـان خطـوة فـي الطريق الصحيح، غير أننا لا نذهب مذهبهم في رد الأخلاق إلى العقل، فلو كانت الفضائل والقيم ترجع إلى العقل حقاً، لعرفت بغتةً، ولكانت واحدة عنـد جميـع الناس في كل العصور والأمكنة[٣]. غير أن اختلافها من قوم إلى قوم، ومن زمن إلى زمن كما سوف يبين من هذه الدراسة، ليشـهد علـى أن الفضـائل والقـيم اجتماعية، ومن ثم إنسانية ونسبية وأنها ليست عقلية أو لها وجود مستقل خـارج الإنسان، بل إنها من صنع يديه.

وإذا كان قولنا إن القيم والفضائل ليس لها وجود مستقل خارج الإنسـان يعني أننا ننادي بالعبث واللامعقولية كما قرّر الدكتور زكريا إبـراهيم[٤] ، فـإن الأمـــرله وجه آخر، وهو أن الإنسان رغم هذا العبث واللامعقولية الموجودين فعلاً في الواقع، أخذ على عاتقه أن يشيد عالمه بيديه، فيجعله عالماً معقولاً ثريـا بالمعاني، حافلاً بالفضائل والقيم التي هي من صنع يديه. وهذا- بلا شك- يعلـي من شأن ذوى الأديان الإنسانية ويعيد إليهم كرامتهم التي سُلبت منهم حينـاً مـن الدهر عندما كانت مدنياتهم غائبة عنا، فالفرد منهم حين يفعل الخير يفعله إما لأنه نافع أو طبقا للواجب أو لأن دينه الإنساني أمـره بـذلك ، أو لغيـر ذلـك مـن الأسباب، فالخير هو بحق " عملية جهد حر يقوم فيها الإنسان بالبحث عن القـيم بوصفها غايات، ولا يمكن أن يكون هناك قهر أو إكراه على فعـل الخيـر، لأن الخيرية لابد من أن تكون وليدة الحرية[٥] ، " فالإنسان الفاضل هو ذلـك الـذي يستطيع أن يرتكب الخطيئة ولكنه لا يرتكبها posse peccare et non peccare[٦]

---

(٢)التفتازاني ١٥٤ (٣) انظر زكريا [أ] ٦١ (٤) زكريا [أ] ١٥ (٥) زكريا [أ] ٣٢ (٦) زكريا [أ] ١١٨

وهناك رأي آخر لمصدر الأخلاق غير أن نردها إلى العقل أو الوحي، وهو رأي المدرسة الاجتماعية الفرنسية بأن الأخلاق اجتماعية ومن صنع المجتمع، ونحن نعتقد مثل إميل دور كايم (ت ١٩١٧) وليفي بريل (ت ١٩٣٩) والمدرسة الاجتماعية عموما، بأن الأخلاقَ ومُثُلَها العليا هي " من صنف الظواهر الاجتماعية التي تنشأ باجتماع الناس بعضهم ببعض ولا تكون قط من صنع الأفراد، ويكون لها من السلطان أن تفرض نفسها على الفرد ولا تتأثر به، فهو يتلقى توجيهات المجتمع ويستجيب لها راضيا أو كارها. وبهذا تكون المثل العليا وليدة المجتمع وليست من صنع فلاسفة الأخلاق.وتمرد الأفراد عليها يؤدي إلى الإنحلال والفوضى، إذ ليست المثل [العليا] إلا تعبيرا عن رغبات الأفراد في إرضاء المجتمعات التي ينتمون إليها، ووظيفة علم الأخلاق أن يقوم بدراستها كما هي موجودة بالفعل عند جماعة ترتبط بزمانها ومكانها"[٧].

أما دليلنا على أن الأخلاق اجتماعية، وإن كان دليلا عقليا، هو أننا لا نستطيع أن نتصور وجود معنى لأي فضائل أو قيم لدى روبنسن كروزو* رغم تحليه بهما، إذ أن الصدق لديه، أو الكرم أو العفة أو الإحسان . . . الخ لن يكون لأي منها معنى بغير وجود شخص آخر. إذ مع من سيكون كريما؟ ومع من يكون صادقا؟ ومع من سيكون عفيفا أو محسنا؟ ولكن متى وُجد هذا الآخر حتى ولو كان إنسانا واحدا مثل " جمعة" الذي انقذه من أيدي آسريه، أصبح للفضائل والقيم معنى، بل إن هذه القيم والفضائل سوف يكون لها معنى حتما، حتى ولو لم

---

(٧) الطويل ٢٥٢

* بطل قصة كان مسافرا في البحر مع جمع من الناس، وفجأة هبت عاصفة أغرقت السفينة فتعلق بلوح خشبي ولم يشعر إلا وهو ملقى على الشاطئ وحيدا، وبعد أن استكشف المكان تبين له أنه يعيش بمفرده في جزيرة مهجورة. وفي أحد الأيام هبط على الجزيرة مجموعة من الناس ومعهم شخص يريدون تقديمه قربانا للآلهة فأنقذ روبنسن كروزو، وأصبح تابعا مخلصا له، واسماه جمعة.

يكــن هذا الآخر إنسانا، وكان كلبا مثلا أو قطة، فسوف توجد لدى هذا الإنسان الوحيــد عاطفتا الشفقة والألفة، على الأقل، وسائر العواطف التي نكنها للحيوانات الأليفــة، إذ ســوف تصبح الفضائل المقابلة لهذه العواطف ذات معنى، وهناك من تمــارس معه. فالفضائل والقيم لابد لإعمالها من وجود الآخر، وهو دليل على أنها اجــتماعية. ولعــل ذلك هو نفسه ما عناه إميل دور كايم حين قال " إن الإنسان لم يصــبح موجــودا أخلاقيا إلا لأنه استطاع أن يعيش في جماعة، ولو أننا نجحنا في القضــاء علــى الحياة الاجتماعية، لقضينا في الوقت نفسه على الحياة الخلقية لأنها عندئذ ستكون غير ذات موضوع[٨]. ومن هنا نشأ قولهم "لا أخلاق بدون مجتمع".

غير أننا إذا كنا نتفق مع المدرسة الفرنسية في كل ما ذهبت إليه من حيث اجــتماعية الأخــلاق، ولكننا- مع ذلك-لابد أن نوجد موضعا للفرد أن يؤثر في قيم الجماعة وفضائلها، إذ قد يتمرد بعضهم على قيمة اجتماعية بالية أو هزيلة، وهذا ما نشاهده في حياتنا العادية، فيواجه باستهجان المجتمع. غير أن إصراره على رفض هذه القيمة قد يصادفه النجاح، خاصة إذا كان هذا الشخص محبوبا في مجتمعه وذا خلق كريم، أو سلطان ونفوذ. ومع ذلك فقد يصادفه الإخفاق والفشل إذا كانت هذه القيمــة- رغم هزالها- راسخة في المجتمع، وهو في هذه الحالة لن يخسر خسرانا تاما، فحسبه أن مهد لمن بعده في هدم هذه القيمة البالية.

وليــس هــدم القيم البالية هو فقط ما يهدف إليه الفرد، فقد يساهم الفرد في إنشــاء قيمــة جديدة في مجتمعه أو حتى يكتشفها* أو بعث فضيلة مؤجلة فيقلده غيــره، وقد تنتشر القيمة الجديدة في المجتمع بعد ذلك حتى تعمه كله، ومع ذلك فقد لا تجد هذه القيمة الجديدة موضعا لها في المجتمع، فتذوي وتموت ولا تكاد تفارق صــاحبها غيــر أنــه في كل الأحوال، فإن التفاعل بين الفرد والمجتمع في مجال

(٨) زكريا [أ] ٨٩

*يرى الدكتور زكريا إبراهيم أن الإنسان لا ينشئ القيم الخلقية ولكنه فقط يكتشفها، لأن هذه القيم لابد أن تكون موجودة من قبل في المجتمع ولكنها ليست معروفة (٩) زكريا إبراهيم [أ] ١١٨

الفضائل والقيم مستمر باستمرار المجتمع ولا يمكن إنكاره أبدا لأننا نشاهده بأعيننا، والدليـل على ذلك أيضا، هو ما نراه من تغير القيم في المجتمع الواحد من عصر إلى عصـر، فإن ذلك يكون غالبا بفعل الأفراد، وإن لم يكن من السهل تحديد هؤلاء الأفـراد في كل الأحوال. فالفضائل والقيم في نظرنا إنسانية اجتماعية، أي لابد أن تنشأ في مجتمع إنساني، ويصنعها المجتمع، ويشارك الأفراد في صنعها، دون وعي منهم غالبا.

مـا دام الأمـر كذلك، أي ما دامت الفضائل والقيم إنسانية و اجتماعية، فلابـد بالضـرورة أن تكون نسبية، لأن كل ما هو اجتماعي نسبي. غير أننا لن نعتد بهذا الدليل المنطقي، وإنما سوف يرى القارئ، في تضاعيف هذا الكتاب أن الفضائل والقيم نسبية فعلا.

بعـد أن افترضنـا أن الأخـلاق اجتماعية وإنسانية ونسبية، فما هي المحـركات المباشـرة الـتي تحرك الإنسان ناحية الفضائل وتحثه على ممارسة القيم؟

في نظرنا أنه لا يمكن حصر هذه المحركات، ولكن يمكن حصر أغلبها، وهـي فـي ظننا إما أن تكون الحب أو الواجب أو أو الضمير أو المنفعة. وربما يضـيف غيـرنا محركا أو محركات أخرى. وقد يكون المحرك للسلوك الخلقي واحدا من هذه المحركات بمفرده، وقد يكون المحرك الخلقي أكثر من واحد، فمن العـبث تحديد محركات السلوك تحديدا صارما. فالحب الذي يكون لذات الآخر- أي دون أن يكون غاية لمنفعة ما- هو البيئة الصالحة التي تنطلق منها كافة القيم والفضـائل بسـهولة ويسـر تجـاه الآخرين، فيكفي أن تحب الآخر حتى تتدفق الفضـائل والقيم نحوه، فأنت لن تشفق على الآخر إلا إذا أحببته، ولن تحسن إليه إلا إذا أحببـته، وقـل مـثل ذلك في كافة الفضائل الأخرى. فالحب هو المحرك الأول للفضائل والقيم.

غيـــر أنك قد تكره إنسانا ما، أو على أقل تقدير لا تكرهه ولا تحبه، ولا تـــربطك بـــه صلة ما، عندئذ لن تكون فاضلا معه إلا بموجب مبدأ آخر هو مبدأ "الواجـــب"، إذ طبقا لمبدأ الواجب، ينبغي عليك أن تعامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعامـــلوك به*. نعم سوف تكون صادقا معهم، وسوف تحسن إليهم إن احتاجوا للإحســـان وتمـــد إليهم يد المعونة إن كانوا في محنة، ولكن كل هذه الفضائل لن تصـــدر مـــنك إلا اســـتجابة لـــنداء الواجب وإرضاءاً للمجتمع. ولكن إذا حدثت اســـتجابتك للآخـــرين في كل ما سبق بعيدا عن أعين الناس، فأنت الآن تخضع لســـلطان الضمير. أما المنفعة، فبالإضافة إلى أنها تجعل السلوك النافع يحقق لنا مصـــلحة مباشـــرة فإنها تفيد كثيرا في تحريكنا بعيدا عن الفضائل التي لم تصبح نافعـــة لـــنا بعد ما تبين لنا عدم جدواها، وتحركنا تجاه فضائل أخرى أكثر نفعا، ففضـــائل القســـوة والكذب والخداع والغدر التي كانت من ضمن معايير اليوناني الفاضـــل في عصر الآخيين مثلا، هجرها اليونانيون في عصر تالٍ بعدما تبين لهم أن الرحمة والصدق والإحسان أكثر نفعا.

وســـواء الحب أو الواجب أو الضمير أو المنفعة أو أي محركات أخرى، فكل ذلك لم يوجد إلا داخل المجتمع وبسببه، فالحب اجتماعي بطبيعته لأنه موجه للآخـــر أو الآخـــرين، و"الواجـــب" يوجد بسب زواجر المجتمع أو نواهيه التي يســـتجيب لهـــا الإنسان خوفا من المجتمع، فإذا استقرت في وجدان الفرد بحيث أصـــبحت ســـلوكا تلقائيا لا يمكن تجنبه، أصبحت ضميرا والضمير هو صوت المجتمع ولكن داخل الفرد، أما المنفعة، وإن كانت ذات صبغة فردية، فلها أيضا صبغة اجتماعية حين تتجاوز مصلحة الفرد إلى مصلحة الجماعة.

---

* هذه القاعدة مشتقة منطقيا من الأمر المطلق لكانط وهو "افعل فقط طبقا للقاعدة التي تجعل في إمكانك أن تريد لها في عين الوقت أن تغدو قانونا كليا (كانط ٧٩)

كـل مـا سـبق هو المبادئ أو المحركات المباشرة **للفضائل والقيم** في نظرنا؛ أما المحركات البعيدة أو القصوى أو غير المباشرة **التي تقف وراء الحب** أو الواجب أو الضمير، فقد تكون اللذة أو السعادة أو العقل. **أو غير ذلك، كلها أو** بعضـها، إذ ليس مـن الحكمـة أن تُـردَّ المحركات **غير المباشرة- أو حتى** المحـركات المباشرة- لمبدأ واحد كما اعتقد كثيرون من **فلاسفة الأخلاق، قدماء** ومحدثيـن، فقـد يعمل أكثر من مبدأ واحد في نفس الوقت، **وليس هناك ما يمنع** ذلك، ولن نناقش هذه المبادئ القصوى لأن هذا يخرج بنا عن **أهداف هذا الكتاب،** وسنقتصـر عـلى دراسة المبادئ المباشرة فقط التي تحدثنا **عنها منذ قليل، والتي** تبين وجهة نظر الكاتب.

الإسكندرية في مارس ٢٠٠٤ **جلال شمس الدين**

الفصل الأول

الفضائل والقيم

لدى المصريين القدماء وفراعنتِهم

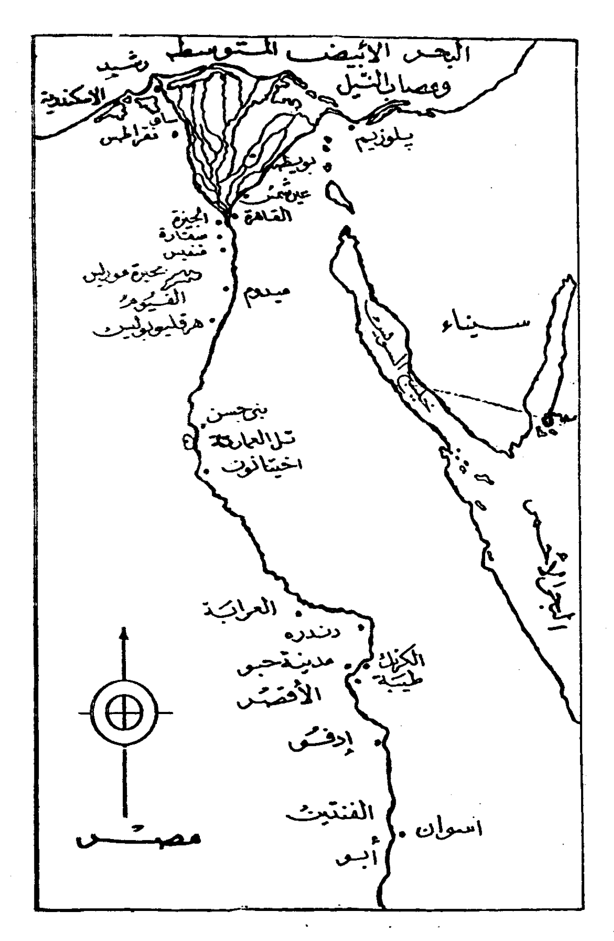
مقدمة:

مـــن الخطـــأ أن نحدد الزمان والمكان لبداية ظهور الفضائل والقيم على أســـاس المصادر المكتوبة، فقد تكون هذه الفضائل والقيم قد وُجدت قبل ذلك لدى شـــعب آخـــر ولكنه لا يعرف الكتابة. ومع ذلك يمكن التأريخ لأول زمان ومكان لظهـــور الفضـــائل والقيم طبقا للمصادر المكتوبة، دون أن نؤكد أن هذا التاريخ وهذا الموضع هو أول ظهور لهذه الفضائل والقيم بإطلاق، بل هو أول ظهور لها مســـجل كتابة. ولقد حدث ذلك بالتحديد عند المصريين القدماء وفراعنتهم(•) يقول المؤرخ جيمس هنري برستيد " وإنه لمن الممتع حقا أن نعرف الوقت الذي بدأت تظهـــر فيه نفس كلمة (أخلاق) أو (خُلق) لأول مرة في كلام أبناء البشر. لقد بدأ ذلـــك فـــي عصر الأهرام، وسرعان ما صارت متداولة في موضوعات التعليق والـــتأمل. ففـــي حِكَـــم بتاح حتب نرى ذلك الوزير الحكيم المسن يذكّر ابنه بأن الفضيلة في الابن لها قيمة عظيمة عند الوالد، وأن (الأخلاق) الحسنة شيء جدير بالذكر. وبذلك ينسب أقدم استعمال لتلك الكلمة إلى القرن السابع والعشرين ق.م. وبعد انقضاء نحو خمسة قرون على انقضاء ذلك العهد، نجدها [أي كلمة أخلاق] في تلك النصائح التي وجهها أحد الفراعنة إلى ابنه مريكارَعٌ حيث يقول: "إن الله عز وجل هو الذي يعرف الأخلاق"(١).

واضـــح أننا حين نحث أبناءنا على التخلق بالأخلاق الفاضلة، فإننا في هذه الحالة " نشكل" سلوكَهم فعملية التربية الخلقية هي عملية "تشكيل". يحدثنا

(•) أي ملوكهم

(١) برستيد ٤٢٤



خريطة مصر القديمة

برستيد أيضاً عن تاريخ هذه الكلمة، وكيف تطورت من أصلها الحسي البعيد إلى أصل معنوي، فمعنى كلمة (أخلاق) أو (خُلق) مأخوذ من فعل معناه (يشكل) (يُكَوِّن) (يبني). وكانت تستعمل في عصر مبكر للدلالة بنوع خاص على العمل الذي يقوم به صانع الفخار أثناء تشكيله للأواني الصلصالية فوق عجلته، ثم أخذت هذه الكلمة تتطور بعد ذلك عند المصريين القدماء بعد أن خضعت لعمليات المجاز المعروفة في اللغة، والتي كانت تسير جنباً إلى جنب مع التطورات الاجتماعية حتى أفضت- كما يقول برستيد- إلى نظام جديد أبرزه أيضاً حكماء الأخلاق المصريون، وصار يعبر عندهم بكلمة (ماعت) التي يريدون بها (الحق) و (الاستقامة) و (العدل) و (الصدق) "وهذه الألفاظ مضافاً إليها (الضمير) و (الأخلاق) تعد آثاراً خالدة لذلك الانتقال الذي ظهر في الحياة فوق كوكبنا الأرضي، وقد ظهرت لنا ظهوراً تاريخياً عن طريق الوثائق المصرية القديمة التي دونت فيما بين سنتي ٣٠٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م. وفي هذا الانتقال التاريخي الذي حدث لأول مرة فوق كرتنا الأرضية – بل في الكون على ما نعلم- نجد أن المصريين هم الكاشفون للأخلاق"[٢].

غير أن هذا الكشف المصري لم يستمر- لحسن الحظ- حكراً على المصريين وحدهم، بل انتقل إلى الكنعانيين أهل فلسطين، ومنها انتقل بعد ذلك إلى العبرانيين. يقول برستيد " وقد كان أعظم كشف جاوز حد المألوف في هذه الناحية هو أننا عرفنا أن حكمة أمينموبي، التي حُفظت لنا في ورقة مصرية بالمتحف البريطاني، قد تُرجمت إلى العبرية في الأزمان الغابرة، وأنه بذيوعها في فلسطين، صارت مصدراً استُقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال في التوراة . . لقد أضاف هذا الكشف أهمية بعيدة المدى إلى الحقيقة القائلة بأن التقدم الحضاري في الممالك التي تحيط بفلسطين كان أقدم بعدة آلاف من السنين

---

[٢] برستيد ٤٢٤-٤٢٥

عن التقدم العبري، ولقد أصبح من الواضح الجلي أن التقدم الاجتماعي والخلقي الــذي أحرزه البشر في وادي النيل الذي يعد أقدم من التقدم العبري بثلاثة آلاف سنة، قد ساهم مساهمة فعلية في تكوين الأدب العبري الذي نسميه نحن (التوراة)، وعــلى ذلك فإن إرثنا الخلقي مشتق من ماضي إنساني واسع المدى أقدم بدرجة عظيمـــة من ماضي العبرانيين، وأن هذا الإرث لم ينحدر إلينا من العبرانيين بل جاء عن طريقهم، والواقع أن نهوض الإنسان إلى المُثل الاجتماعية، قد حدث قبل أن يــبدأ ما يسميه رجال اللاهوت بعصر الوحي بزمن طويل، وأن هذا النهوض نــتيجة للخبرة الاجتماعية التي مارسها الإنسان نفسه ولم تُزج إلى هذا العالم من الخـــارج. إن الحقيقـــة القائلة بأن أفكار الإنسان الأول الخلقية أتت نتيجة لخبرته الاجــتماعية الشخصية، تعد من أعمق المعاني لرجال الفكر في عصرنا"[٣]. ولعل هــذه الحقائق التي قررها برستيد من استقرائه للتاريخ، ومن استقرائنا نحن أيضاً لتاريخ الأخلاق، كما سوف يرى القارئ هو الذي يجعلنا نجهر بأن الأخلاق-أو الفضائل والقيم- اجتماعية وإنسانية في أصلها.

ظهور فكرتي السعادة والنعيم الأخرويتين وانهيار فكرة الأهرام

تمــثل أهــرامات الجيــزة ذروة الاعتقاد في كفاءة العتاد المادي التامة لضـــمان سعادة المتوفى في الحياة الأخرى؛ فبتلك المباني الضخمة بالإضافة إلى فــن التحنيط يتسنى للجثمان الملكي أن يقاوم بتلك الطريقة المادية المحضة غائلة كــل الآبــاد، ويقهر بتلك القوة الآلية الأسباب المانعة من الخلود، ثم تطور الأمر بعــد ذلك من خلال أحداث كثيرة معقدة- كما يقول برستيد- واكتفوا بكتابة متون الأهــرام منذ عهد آخر ملك في الأسرة الخامسة حوالي ٢٦٢٥ ق.م داخل أهرام صـــغيرة. وهــذا مظهر على نشأة اعتقاد جديد بوجود السعادة والنعيم في الحياة

---

(٣) برستيد ١٢-١٣

الأخرى في مكان آخر، مما يؤكد إلى حد ما أن الأكوام من المباني لا يمكنها أن تهـب الإنســان الحياة الأبدية، بل يجب أن ينالها بروحانيته، وبذلك أوشك عصر الأخــلاق أن يظهر ويلغي ما عمله بناة الأهرام(٤). وهذا النعيم لن يُتحصل عليه- كما سوف يتضح- إلا في مملكة بعيدة مقصود بها السماء.

وهــنا ينــبغي أن نــتوقف قــليلا لنوضح للقارئ نقطة هامة في عقيدة المصــريين القدمــاء؛ فلقد كانوا يؤمنون في مبدأ الأمر بإلاهين، الإله آمون رع وهــو إله الكون جميعا، وهناك إله أصغر مرتبة هو أوزير،وكان آمون مختصا بــرعاية الفــراعين في السماء بعد الموت، أما أوزير فكان مختصا برعاية باقي البشــر بعد الموت في العالم السفلي- أي تحت الأرض- ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما عرف المصريون فكرة الحساب في الآخرة، فأصبح الجميع يصعدون إلى الســماء، وأصبح أوزير قاضيا يقضي بين البشر جميعا بين يدي آمون رع الإله الأوحــد. وعــلى ذلك فإن "المملكة البعيدة لا يراد بها- كما يقول برستيد- إلا الســماء، وأن مــتون الأهرام لا تعرف شيئا تقريبا عن الحياة الأخروية المظلمة الــتي توجــد فــي العالم السفلي، ولذلك فإن عالم الأموات عندهم لا يراد به إلا (العــالم السماوي). على أنه لا يكاد يوجد شك في أن فكرة تصور جنة سماوية، وهــي تــلك الفكرة التي شاعت فيما بعد في العهد المسيحي(*) يرجع أصلها إلى نفس هذا الاعتقاد المصري القديم المتوغل في القدم(٥).

الأسرة منبع الأخلاق عند المصريين القدماء، بداية ظهور الضمير:

بعد المسرحية المنفية(**) ومتون الأهرام وغير ذلك من المصادر الغزيرة، اكتشف برستيد أن هذه المصادر تصور لنا الحياة في الأسرة عند قدماء المصريين

---

(٤) برستيد ٨٠-٨١ (*) من المعروف أن فكرة الجنة السماوية غير معروفة في التوراة

(٥) برستيد ٨٩ (**) هو تصوير المحاكمة التي يقيمها الله للبشر بعد الموت فيهب الحياة للطيب والموت للخبيث، وكان ذلك عام ٣٥٠٠ ق.م. وسوف يرد ذكرها بالتفصيل بعد قليل.

بصـــورة لا تدع مجالاً للشك "في أنها- أي الأسرة- هي العامل الأول في ظهور الحياة الخلقية ونموها، فقد كان المصري في عصر الأهرام يشعر بوجود جو من الـــوازع الخـــلقي يزعه، حتى أن متون الأهرام قد أظهرت لنا الآن ذلك الوازع مطـــلاً عـــلى مـــا قد مضى من تلك العصور التي لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشـــجار بين أفراد تلك الجماعة الأولى"[٦]؛ فلقد أكد لنا أحد أشراف رجال الوجة القبـــلي الـــذي كان يعيش في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد ذلك المعنى، إذ قـــال في نقوش قبره بعد أن عدد لنا كثيراً من أعماله الطيبة: " إني لا أقول كذباً لأنـــي كنت إنساناً محبوباً من والده، ممدوحاً من والدته، حسن السلوك مع أخيه، ودوداً لأخـــته"[٧]. ولقـــد ظهـــر هذا الاعتراف بعد ذلك كثيراً في جبانات الأهرام وغيـــرها، فقد كان البر بالوالدين فضيلة من أهم الفضائل عند المصريين القدماء وفراعنتهم. وربما كانوا يستخدمون أحيانا كلمة الأخت لتعنى الزوجة أيضا.

هـــذا عن منبع الأخلاق عند المصريين القدماء، أما عند بداية تبلور هذه الأخـــلاق وتجليها في " الضمير" فلقد كان الضمير قبل العصر الإقطاعي- كما يقـــول برســـتيد- مسألة تتعلق بسلوك الفرد، غير أنه ما لبث بعد مجيء العصر الإقطـــاعي أن تحـــول الضـــمير إلى قـــوة اجتماعية ذات تأثير عظيم في الحياة الاجتماعية لأول مرة في التاريخ البشري. ومن الواضح- كما يقول برستيد- أن المـــلك، أي الفرعون قد صار منقاداً لنفوذ المفكرين الأخلاقيين في ذلك العصر، وأن سياســـة العدالـــة الاجتماعية صارت تُكَوِّن جزءاً من هيكل النظام الحكومي، وقد انتهى عصر تلك الأيام الخالية التي كان يعتبر سلوك الإنسان الخلقي مرضياً إذا رضـــى عـــنه الأب والأم والأخـــوة والأخـــوات، وجاء العهد الذي يمكن أن

---

(٦) برستيد ١٣٠-١٣١ (٧) برستيد ١٣١

نسـميه- كما يقو ل برستيد- عصر الضمير الاجتماعي، وهو الذي بحلوله بزغ عصر الأخلاق.[٨]

أي أن "عصـر الضمير" عند برستيد هو عصر العدالة الاجتماعية. ومن الجديـر بالذكر أن برستيد قد قلل كثيراً من قيمة قوانين حامورابي فيما بعد لأنها لا تحقق العدالة الاجتماعية.

ظهور المسئولية الأخلاقية

وبظهـور الدولـة المصرية الحديثة ظهر تطور سريع وعميق يبين لنا شـعور المصـري المـتزايد بمسـئوليته الشخصية عن أخلاقه، وكان المصري آنـذاك- كما يقول برستيد- يرى أن المسئولية الخلقية تترتب بصفة قاطعة على إدراكه وفهمه الشخصي، غير أن مركز الإدراك- كما تصوره المصري القديم- هـو القـلب. ثـم يوحد المصري القديم بين القلب والعقل والضمير، فالقلب [أي العقـل] الواعي المتيقظ يكون سبباً في سعادة صاحبه. يقول برستيد " ففي عصر الأهـرام وجدنا أن بتاح حتب، ذلك الوزير الحكيم المسن، كان يذكر القلب على أنـه مركز المسئولية والإرشاد، إذ قال (فيما سيلي ذكره): إن المستمع (يعني إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذي يحبه الإله، أما الذي لا يصغي فهو الذي يبغضه الإلـه، والقلب هو الذي يجعل صاحبه مصغياً أو غير مصغ. كما نجد في نصائح بتاح حتب أيضاً أن قلب الرجل قد صار دليله، بل في الواقع قد صار ضميره".[٩]
أي أن المصري القديم وحد بين العقل والقلب والضمير.

ثـم يعرض علينا برستيد ما توصل إليه من كل ذلك فيقول "حقاً إن آراء بـتاح حتب عن القلب من حيث نعته له بالمرشد الحكيم قد استمرت، إذ من خلال القـرن الخامس عشر نرى أحد حجاب بلاط الفاتح تحتمس الثالث يذكر خدماته

---

(٨) برستيد ٢٢٦-٢٢٧ (٩) برستيد ٢٧٠

التي أداها للملك، فيقول:" لقد كان قلبي هو الوازع لأن أقوم بها، بإرشاده في شئوني، وكان كأنه شاهد ممتاز، فلم أهمل كلامه، وخشيت أن أتخطى إرشاده، وبذلك كان الفلاح حليفي لدرجة عظيمة، وكنت بسبب ما أوحى إلي [أي قلبي] أن أعمله ناجحاً. وكنت بإرشاده نابهاً، تأمل . . .، فقد قال القوم إنه وحي من الإله يوجد في كل إنسان، وأن من أرشده إلى الصراط السوي في انجاز العمل لسعيد، تأمل . . فإني كنت هكذا" (١٠) ومعنى ذلك أن القلب عندهم هو ما نسميه نحن "الضمير".

ولكن كيف انتقل الوازع الباطني من الخوف من المجتمع- أو الملك- إلى أن أصبح الخوف من الله؟ يقول برستيد : " ولما انتقل الشعب المصري القديم الى ألف السنة الأخيرة ق.م، كان نمو الضمير الذي تتبعناه في نحو ألفي عام قد وصل إلى نهايته بتحقيق هذا الانتقال العميق العام، الذي كان يمهد لمجيئه من عدة قرون، فإن الوازع الباطني الذي نما في الأصل من المؤثرات الاجتماعية، ثم زاد تطوره خلال قرون مضت من التفكير العميق، قد صار المتعبدون يعترفون الآن من غير تحفظ بأنه [أي الوازع الباطني] أمر الإله نفسه، وقد رأينا أن هذه الفكرة قد ظهرت قبل ذلك بنحو ٥٠٠ سنة أي في بداية عهد الإمبراطورية المصرية، ولكن في هذا العصر الذي هو عصر الورع الشخصي، صار الضمير هو صوت الإله بدون أدنى شك، وذلك ما لم يحدث من قبل مطلقاً"(١١).

وإزاء ذلك لم يكن هناك بالطبع مجال لإخفاء الخطيئة أو إنكارها بعد وقوعها من المخطئ، وإذ كان المؤمن يشعر بأن كل أمره معلوم عند ربه، فقد أصبح يضع نفسه- بدون أدنى تحفظ- في يد الله المرشد والمهيمن على كل

---

(١٠) برستيد ٢٧٠-٢٧١ (١١) السابق ٣٤٦

حياته وخطواته، ومع أن رضاء المجتمع كان لا يزال أمراً هاماً ، وضغط المؤثرات الاجتماعية محسوساً، فإن ذلك صار في المرتبة الثانية إزاء الإله العليم بكل شيء. وهذا الوقت الجديد قد كُشف لنا غطاؤه في رسالة عظيمة يمكننا أن نسميها حِكَم أمينموبي، وبرديتها محفوظة الآن بالمتحف البريطاني(١٢).

ولا شك أن عبادة أوزير التي كانت آخذةً في الازدياد- كما يقول برستيد- له علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع- والذي صار الآن عاماً- بأن كل روح لابد أن تلقى ذلك الحساب الخلقي العسير الذي ينتظرها في الآخرة.

ظهور فكرة الإله الواحد وعلاقة ذلك بالأخلاق:

الواقع أن اللغة عند المصريين القدماء وكذا البابليين والآشوريين واليونان والرومان وغيرهم من الشعوب ذوات المدينات القديمة، لم تكن قد نضجت في العصور القديمة النضج الكافي كي تمدنا بمفهوم مثل مفهوم " الخلق " فكان يعبر عنه أحياناً " بالولادة " أو " الأبوة " كما لم تمدنا بكلمة "الملاك" فكانوا يستخدمون بدلاً من "الملائكة" كلمة "الآلهة" على أن يفهم من السياق أن هذه الآلهة كانت تخضع هي ذاتها للإله الواحد. والواقع أن كلمة "ملاك" التي ظهرت فيما بعد في بلاد ما بين النهرين وربما عند المجوس، قد حلت مشكلة كبيرة جداً وجدت في كافة الأديان القديمة تقريباً، فحلت الملائكة محل الآلهة الصغرى، كما حلت كلمة"خلق" محل كلمة "ولادة" وسوف نرى هاتين الكلمتين "الآلهة" و "الولادة" تترددان كثيراً في الديانة المصرية القديمة، وفي غيرها من الديانات جنباً إلى جنب مع وصف آمون "بالإله العظيم الذي تدين له سائر الآلهة" ... " إنك انت الذى تشرف على كل الآلهة ولا يشرف عليك إله ما " (برستيد ٤٦) ويصف المصرى القديم الله بأنه "الواحد الأحد خلق كل موجود"

---

(١٢) برستيد ٣٤٦ وسليم ٢٣١/١٧

(برستيد٣٣٥) ٠ وها هى قصيدة بابلية لأحد الكهنة البابلين يستخدم فيها لفظى الأبوة والولادة إلى جانب لفظى الألوهية والخلق، إذ ما زالت المفاهيم مختلطة :

- أيها الأب الرحيم الشفيق الذى في قبضته حياة الأرض قاطبة٠
- أيها الرب ، ألوهيتك كالسماء العالية٠
- هو الذى يخلق الأرض ويؤسس المعابد ، ويسمى أسماءها٠
- رالوالد الذى يلد الآلهة والناس [أى يخلقهم]٠
- من المعظم فى السماء٠ إنك أنت وحدك المعظم٠
- ومن المعظم فوق الأرض٠ إنك أنت وحدك المعظم٠
- وحين يتردد صدى كلمتك فى السماء، فإن آلهة [أى ملائكة] العالم العلوى يسجدون لك٠
- وحين يتردد صدى كلمتك فوق الأرض ، فإن آلهة [أى ملائكة] العالم الدنيوى يقبلون الأرض لك٠ (انظر ص ٦٣-٦٤ من هذا الكتاب)٠

مما يدل على أن المصريين القدماء هم والبابليون وربما بعض الشعوب الأخرى يكونون بهذا الاعتبار من الموحدين ، وإن ظلوا من الوثنيين٠

أما عن علاقة فكرة الإله الواحد بالأخلاق فتظهر عند الحكيم أمينموبي، فالواقع أن أمينموبي كانت له رسالة يحملها إلى العالم، إذ أنه ترك النصائح العادية ظهرياً-كما يقول الدكتور سليم حسن- وأول ما يلفت نظر القارئ في تعاليمه التي تتألف من ثلاثين فصلاً شيئان هما: تدين هذا المؤلف واعتداله.

أما من الوجهة الدينية، نجد المؤلف قد ذكر في تعاليمه عدة آلهة مختلفة، وبالرغم من ذلك يدرك القارئ الذي ينظر بعين فاحصة، أن هناك قوة أخرى عظيمة خفية وراء تلك الأسماء الرمزية وهي الله العلي العظيم الذي لا إله غيره، إذ الواقع أننا نجد خلافاً لأسماء الآلهة التي جاء ذكرها في التعاليم مثل (تحوت) و (خنوم) و (رننوت) وغيرها، أن أمينموبي يذكر لنا بصفة خاصة اسم

(الله) أو (الإله) وهذا يطابق تماماً- كما يقول الدكتور سليم حسن- ما جاء في الدين الإسلامي، مما يدل على أن أمينموبي كان لا يؤمن إلا بإله واحد، وعلى ذلك كان لكل فرد أن يصور هذا الإله في أية صورة شاء، "وقد لاحظنا في التعاليم السابقة التي فاه بها من سبقه من الحكماء ورجال الفكر، أن الصلاح كان فضيلة، وأن التفكير في الموت والأبدية كان حافزاً يدفع الإنسان إلى أن يسلك الصراط السوي في الحياة الدنيا مخافة الله، إذ أن الله هو الذي يُسعد ويغني، ولكن كان التدين في نظر أمينموبي يقوم بدور أعظم من ذلك، إذ كانت فكرة وجود الله في نظره هي المستوى الذي وضعه أمامه لفهم الحياة فالله هو الذي يجب أن يكون مديراً لسكان (الدفة) سفينة الحياة، وهو رب الأرزاق، لذلك يجب على الإنسان ألا يخاف غيره، وأن الكمال لله وحده، وأن الإنسان هو المخطئ، والحساب ينتظر المخطئ"[١٣] من كل ذلك يتبين أن أمينموبي قد توصل إلى فكرة الإله الواحد المجرد وفكرة الحساب في الآخرة، مما يعني ارتباط الأخلاق بالدين برباط وثيق.

الوازع الخلقي، معرفة الحق والباطل:

سبق أن ذكرنا في المقدمة، أن المصريين القدماء هم وفراعنتهم، كانوا أول الشعوب التي أدركت الوازع الخلقي. والآن نورد الدليل على ذلك، وهو تلك المحاكمة التي تقام في الدار الآخرة لأصحاب الحقوق والمظالم التي ورد ذكرها في ثنايا مسرحية منف (٣٥٠٠ ق.م) ففي هذه المسرحية يهب الله الحياة للطيب والموت للخبيث، ولقد بدأت هذه المحاكمة بفكرة بسيطة ثم تطورت بعد ذلك لتأخذ شكلاً أكثر اكتمالاً، فلم تكن الفكرة في أقدم أشكالها تفترض حضور جميع الناس أمام المحكمة، وإنما كان يحضر أمامها الخصوم فقط لإصلاح الخطأ،

---

(١٣) سليم ١٧/٢٦٣-٢٦٤

فكان في أول الأمر لزاما على الشخص المتهم فقط أن يحضر أمام المحكمة في الحيـاة الآخرة ليظهر براءة نفسه، ثم ظهرت فكرة المحاكمة العامة بعد ذلك في بـاكورة العهـد الإقطـاعي حوالي عام ١٦٠٠ ق.م حيث لا تقتصر على حصر تفصـيلي لكـل المخالفـات الخلقية، وإنما صارت امتحانا خُلقيا قاسيا، بل معيارا شاملا للقيمة الخلقية لحياة كل إنسان[١٤].

ولقـد كـانت هـذه المسـرحية بداية لمعرفة المصريين لفكرتي الحق والـباطل. غير أن هاتين الفكرتين لم تنشآ فجأة، بل جاءتا اشتقاقا من فكرة أخرى أسبق منهما وأكثر بساطة هي فكرتي "المحبوب والمكروه". يقول برستيد: "الواقع أنـه فـي هـذه المرحلة السحيقة من التقدم البشري أخذ الإنسان يدرك أن بعض السلوك ممدوح، وبعضه مذموم، وأن كل إنسان يعامَل بحسب ذلك. فالحياة تُمنح للمسـالم (الـذي يحمل السلام)، ويحيق الموت بالمجرم (الذي يحمل الجريمة) . فالمسالم في نظرهم هو الذي يفعل ما هو محبوب، والمجرم هو الذي يفعل ما هو مكروه.. وفي هذين التعبيرين (ما هو محبوب) و (ما هو مذموم أو مكروه)، نجد أقـدم بـرهان عُرِف على مقدرة الإنسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السئ لأنهما ذُكرا هنا لأول مرة في تاريخ البشر. . ولم يحل محلهما كلمتا (الحق والـباطل) إلا بعـد ذلـك بزمن طويل"[١٥] إذ كان لابد كما يقول برستيد- " من الانـتظار طويلا إلى أن تصبغ هذه الأفكار بصبغة إنسانية اجتماعية وتصير قوة اجـتماعية عظيمـة، مهـدت لفاتحـة عصـر الضمير والأخلاق بعد ذلك بعدة قرون"[١٦].

والآن، وبعـد أن انـتهت هذه المقدمة الطويلة بعض الشيء، والتي يتبين منها ارتباط الدين عند المصريين القدماء بالفضائل والقيم ارتباطا وثيقا، ننتقل

---

(١٤) برستيد ٣٨ ، ٤٠ (١٥) السابق ٥٦-٥٧ (١٦) برستيد ٦٠

الآن لكي نتحدث بشيء من التفصيل عن تلك الفضائل والقيم.

العدل والأمانة والمساواة بين الناس والمهابة :

من الفضائل والقيم التي كان يتحلى بها قدماء المصريين وفراعنتهم، وكانوا حساسين جدا تجاهها: "العدل" إذ كانوا يصرون على تحققه دائما.ففي خطاب الوزارة الذي كان يلقيه الفرعون بمناسبة تعيين الوزير [أي رئيس الوزراء حاليا]، كان فرعون مصر يعظ الوزير ويأمره بمراعاة العدل بين الناس وعدم إذلال الشعب أو مداهنة الأمراء والمستشارين والكبراء، أي أن فرعون مصر لم يكن غافلا عما قد يحدث من تجاوزات. يقول الفرعون لهذا الموظف الكبير " واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق. .، واعلم أنها (يعني الوزارة) لا تعني إظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن يتخذ بها الوزير لنفسه عبيدا من الشعب، واعلم أنه عندما يأتي إليك شاكٍ من الوجه القبلي أو الوجه البحري، أو من أي بقعة في البلاد، فعليك أن تطمئن إلى أن كل شيء يجري وفق القانون، وأن كل شيء قد تم حسب العرف الجاري، فتعطي كل ذي حق حقه. واعلم أن الأمير يمثل مكانة بارزة، وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله، واعلم أن كل ما يفعله لا يبقى مجهولا أبدا"(١٧).

ثم يحذر الوزير من الطغيان والتحيز قائلا " فلا تنس أن تحكم بالعدل لأن التحيز يعد طغيانا على الإله. وهذا هو التعليم (الذي أعلمك إياه) فاعمل وفقا له. وعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرب من الملك كالبعيد عنه، واعلم أن الأمير الذي يعمل بذلك سيتسمر هنا في هذا المكان. . . ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب في أمره"(١٨).

---

(١٧) برستيد ١٧

(١٨) برستيد ٢٢٤

ومن تعاليم أمينموبي لالتزام كبار الموظفين للعدل مع الجمهور:

- لا تفسدن رجلا في قاعة المحكمة [أي تجعله يشهد زورا].
- ولا تزعجن الرجل المحق [كي يعدل عن شهادته].
- ولا توجهن كل التفاتك إلى فرد قد لبس ملابس بيضاء.
- بل أقبله في خرقه الباليه.
- ولا تقبلن هدية رجل قوي.
- ولا تظلمن الضعيف من أجله.
- لأن العدل هبة عظيمة من الله.
- وسيعطيها من يشاء.[١٩]

ومـــن قيمهم أيضا مما يدخل في باب العدالة، تقديس الحق. يقول الحكيم بـــتاح حـــتب "إذا كنت حاكما تصدر الأوامر للشعب فابحث لنفسك عن كل سابقة حســـنة، حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها. إن الحق جميل وقيمته خالدة، ولـــم يتزحزح من مكانه منذ خُلق لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه، وقد تذهب المصـــائب بالـــثروة ولكن الحق لا يذهب، بل يمكث ويبقى"[٢٠] . ثم يقول الحكيم بعـــد ذلك" إن الرجل الذي اتخذ العدالة معيارا له وسار وفقا لجادتها يكون ثابت المكانـــة"[٢١]. ويعلق برستيد على هذا قائلا "ولا نزاع في أننا نجد في هذا الكلام نغمة الحكمة العبرانية كما وصلت إلينا في كتاب العهد القديم، وإن كانت حكمتنا (يريد حكمة بتاح حتب) أقدم من حكمة العبرانيين بألفي سنة"[٢٢].

وإذا كان بتاح حتب يهتم بالعدالة، فإن الحكيم المصري أمينموبي يهتم بها كذلـــك، غيـــر أنـــه- في هذا الموضع- يهتم بالمساواة بين الناس، فهذا وجه من وجـــوه العدالـــة، مما يعتبر البذرة الأولى للديمقراطية. فهو يحث ابنه على دماثة

(١٩) سليم ٢٥٥/١٧ (٢٠) برستيد ١٥٠ (٢١) برستيد ١٥١ (٢٢) برستيد ١٥١

الخلق مع الناس وعدم الاهتمام بالظاهر، وإذا كان مركز السلطة فلا ينحاز لعلية القوم:

- لا تجبرن رجلاً للذهاب إلى المحكمة [أي اعطه حقه فوراً]
- لأنك لن تجعل العدالة تلتوي.
- فلا يتجه وجهك نحو 'الملابس البراقة (التي يلبسها خصم شخص آخر).
- بينما تطرد من تكون ملابسه قذرة باليه.
- لا تأخذن العطايا من القوي.
- ولا تضطهدن الضعيف من أجله.
- فالعدالة هبة عظيمة من الله يهبها من يشاء.
- فقوة من كان مثله (أي مثل الله).
- تنجي المكتئب من ضرباته (يعني ضربات القاضي).
- أعط المتاع أصحابه.
- وبذلك تبغي لنفسك الحياة.
- ومع أن قلبك يعمر في بيتهم (يعني في بيت المُلاّك الذي يحابيهم).
- يكون جسمك مصيره لمقصلة الجلاد[٢٣].

ومـــن المظاهـــر التي تتجلى فيها العدالة، إعطاء الحق لأصحابه، خاصة لصـــانع القـــبور وعـــدم استغلال النفوذ، فها هو ذا أحد الموتى يقص علينا قصة تكاليفه أحد المثالين لصناعة تمثال جُنّازي له يوضع شاهداً على قبره. فيقول على قـــاعدة التمـــثال: " لقـــد طلبت إلى المثّال أن ينحت لي هذه التماثيل، وقد كان مـــرتاحاً للأجـــر الـــذي د فعته إليه"ويقول مصري آخر يدعى (منى) في نقوش مـــأخوذة مـــن مقبرته التي من عهد الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ – ٢٧٥٠ ق.م) ما

---

(٢٣) برستيد ٣٤٩

يــأتي: "أمــا فيما يخص كل رجل عمل لي هذا (أي ساهم في إقامة هذا القبر)، فإنه لم يكن قط غير مرتاح، سواء كان صانعا أم حجّارا، فإني قد أرضيته"(٢٤) .

"فمن الواضح جدا أن كلا من ذينك الرجلين أراد أن يعلن أنه حصل على معداته الجنازية من طريق شريف، وأن كل من عمل في إعدادها قد حصل على حقه كاملا غير منقوص" (٢٥)*

مــن الغــريب أن تكون المهابة قيمة مطلوبة في هذه العصور السحيقة، ومع ذلك فقد اهتم بها الفراعنة، إذ يجب أن يتحلى بها رجال دولتهم، شريطة أن لا يكتسب كبراء الدولة هذه المهابة بالطغيان والبطش بل بالتزامهم بالعدل، وحتى هــذه المهابــة ينبغي أن لا تزيد عن قدر معقول، فإذا زادت عن ذلك دلت على نقــص صــاحبها، وهــي فضيلة أخرى إلى جانب العدالة، يقول فرعون مصر ناصــحا رئيـــس وزرائه "اجعل نفسك مهيبا، ودع الناس يهابونك، والأمير لا يكــون أميــرا إلا إذا هابــه الناس، واعلم أن الخوف من الأمير يأتي من إقامته العــدل، واعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغي، دل ذلك على ناحيــة نقص فيه في نظر القوم"(٢٦). ولا شك أن هذه النصائح من فرعون مصر إلى أمرائه ووزرائه، تبعد تهمة الطغيان عن هذا الفرعون.

بيــد أنــه لم يكن مطلوبا من الفرعون أن يقيم العدل بين رعيته فقط، بل كــان مطلوبا منه أن يقيمه في السماء أيضا، فالفرعون الذي أُعلنت براءته ورُفِع إلى الســماء، كان يستمر في إظهار نفس الصفات الحسنة في القيام بأعمال ملكه السماوي الذي يُسند إليه. و ها هو نص يعرضه برستيد يوضح ذلك حيث يتحدث

---

(٢٤) برستيد ١٣٧ (٢٥) برستيد ١٣٧

* بإزاء هذه الحساسية تجاه بناة القبور وضرورة أخذهم حقوقهم من أصحابها، فإن ذلك يوحي إلينا أنه من المستحيل أن يكون بناء الأهرام قد تم بالسخرة.

(٢٦) برستيد ٢٢٤

النص عن أحد الفراعنة العادلين "إنه يقضي بالعدل أمام (رع) في يوم العيد (المسمى) رأس السنة، فالسماء في سرور، والأرض في حبور حينما سمعنا أن الملك نِفِر كارَع (بيبي الثاني) قد أقام العدل، والذين يجلسون مع الملك نِفِر كارَعْ في قاعة العدل مرتاحون للقول الحق الذي خرج من فمه. ومما يلفت النظر أن الملك كان يقضي بتلك العدالة في حضرة رَعْ إله الشمس، وكذلك نجد تصريحاً شمسياً يؤكد أن الملك وناس قد أقام العدل فيها (أي في الجزيرة التي استقر بها) مكان الباطل"[٢٧]. ولقد كانت هذه المهمة التي يكلف بها الملك في الحياة الأخرى في حضرة آمون ر ع وهي إقامة العدالة، هي الوظيفة الوحيدة التي يضطلع الملك بها في الحياة الأخرى بين يدي آمون رع، ثم صارت في إحدى الوثائق لقباً ملكياً- يقول برستيد: "ونجد في القرن الثامن والعشرين ق.م أن أحد ألقاب الملك (وسر كاف) الرسمية (مقيم العدالة ماعت). وعلى ذلك نرى أن اعتبار الملك الراحل إلى السماء حاكماً بها، أي بالعدالة ماعت في الحياة الأخرى، إن هو إلا استقرار للنظام الخلقي الذي كان يرعاه فوق الأرض[٢٨].

وأظن أنه يحق لنا أن نستنتج من كل ذلك أن الفرعون لابد أن يكون فاضلاً على الأرض حتى يستطيع أن يقوم بالمهام الجسام من إقامة العدل بين يدي آمون رع في السماء.

ومن نصائح أحد فراعنة مصر المجهول اسمه، إلى ابنه الملك مريكارَعْ، للسلوك الذي ينبغي عليه أن يتبعه عندما يحكم مصر: "أقم العدل لتوطيد مكانتك فوق الأرض، وواس الحزين ولا تسيء إلى الأرملة، ولا تحرمن رجلاً من ميراث والده[٢٩]".

---

(٢٧) برستيد ١٤٢ (٢٨) برستيد ١٤٢

(٢٩) برستيد ١٩٦ وسليم ١٧/١٩٣

ومن نصائح بتاح حتب لابنه لإتباع العدل: "حصّلْ الأخلاق، واعمل على نشـــر العدالة، وبذلك تحيا ذريتك ، إن الرجل الذي اتخذ العدالة معياراً له، وسار وفقاً لجادتها، ثابت المكانة"[٣٠].

نـــتقل الآن إلى قيمـــة الأمانة، فمن تعاليم أمينموبي التي يحث فيها على اتباع هذه القيمة:

- لا تزحزحن الحد الفاصل (بين الحقول).
- ولا تحولن موقع ضبط المقياس.
- ولا تطمعن في ذراع أرض.
- ولا تقذفن بحدود الأرملة (أي لا تتعد عليها).
- وإن المكيـــال الـــذي يعطيـــك الله خيـــر لك من خمسة آلاف تكسبها بالبغي.
- فإنها لا تمكث يوماً واحداً في المخزن ولا في الجرن[٣١].

ومن حثه على الأمانة أيضاً:

- لا تتلاعبن بكفتي الميزان ولا تطفف[*] الموازين.
- ولا تنقصن من أجزاء مكاييل الغلال.
- ولا ترغبن في مكاييل الحقول (أي الضريبة).
- ثم تهمل مكاييل الخزانة.
- فإن الفرد يجلس بجوار الميزان (الإله تحوت).
- وقلبه اللسان (الميزان).

---

(٣٠) سليم ١٨٥/١٧

(٣١) سليم ٢٤١/١٧-٢٤٢

(*)المطفف في الموازين هو المتلاعب بها سواء بالزيادة أو النقصان.

- وأين يوجد إله عظيم مثل تحوت.
- ولا تصنعن لنفسك موازين منقوصة.
- وإذا رأيت إنساناً يغش.
- وجب عليك أن تمر به مبتعداً.
- واجتنب الكتان الجميل.
- وما فائدة عباءة من نسيج "مك" إذا كانت ضلالاً أمام الله؟
- وإذا كانت قشرة الذهب توضع فوق السبيكة لتظهرها ذهباً خالصاً.
- فإنها في الفجر تكون من القصدير.
- احذر إساءة استعمال مكاييل عين حور (وازيت).
- أو الغش في أجزائها.
- ولا تكونن ظالماً مثل وبن تاخت.
- ولا تجعلها خالية في باطنها (أي تجعل لها قعراً مغشوشاً).
- وأوف مكيالها حسب حجمها بالدقة.
- ويدك تكيل بالحق[٣٢].(*) .

ومما يدخل أيضاً في باب الأمانة ، الكتمان؛ ولنستمع إلى نصائح أمينموبي:

- لا تصغين إلى أجوبة رجل شريف في بيت.
- ثم تنشره إلى آخر في الخارج.
- ولا تجلعن كلامك يذاع في الخارج.
- حتى لا يتألم قلبك.
- وقلب الرجل (ضميره) هو منقار الإله تحوت.

(*) هذه الفضيلة وهي عدم الغش في الميزان بالذات ما زالت موجودة عند المصريين حتى يومنا هذا، فحتى البائع الردئ جداء يغش في أي شيء إلا الميزان.

(٣٢) سليم ٢٥١/١٧-٢٥٢

- فاحذر أن تهمله.

ولعلـــه يكون قد اتضح للقارئ مدى اهتمام حكماء مصر وفراعنتها بالعدالة والأمانة،وسوف نجد فيما بعد أن هاتين الفضيلتين قد اشتركتا مع فضائل أخرى.

راحة الضمير :

نســتطيع أن نقــول مع قليل من المغامرة،أن راحة الضمير هى المنبع الذى يغــذى الأخلاق بالحيوية والحركة،فلا عجب إذن أن يهتم بها المصريون القدماء وفراعنـــتهم،ومن أجمل أناشيد أمينموبى -فيما يرى برستيد - تلك الأنشودة التى يطـــلب فيها من ابنه أن يلتزم سواء السبيل حتى ينام خالى البال، فالإنسان لا يعلم مـــا ســيكون عليه الغد ،ولا يعتقد أنه سيصل إلى الكمال، فالكمال لله وحده ،ولا تعتقد أبدا أنك منزه عن الخطيئة ، واترك أمرك لله معتمدا عليه. يقول أمينموبى الحكيم المصرى فى قصيدته :

- لاتنم فى الليل وأنت خائف من الغد.
- لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا سيكون عليهالحال فى الغد.
- ولاتجهدن نفسك بإثارة النزاع.
- أما الخطيئة فأمرها عند الله .
- وهو الذى يختمها بإصبعه [أى الذى يحاسب عليها].
- وليس فى يد الله إنسان كامل.
- ولا يقف العجز حائلا أمامه(٣٤).

فــفى هــذه القصــيدة لا يعظ أمينموبى لراحة الضمير فقط،بل إنه كإنسان عميـــق التجربة ، وخبير بدروب النفس البشرية ، يدرك أن من أسباب عدم راحة البال - أو الضمير - هو شعور الإنسان بما قد يكون به من نقص ، فهو يعالج هذا النقص بدقة بالغة ورهافة حس ، حتى يأخذ بيد من ينصحه كي يسترجع ثقته

---

(٣٣) سليم ١٧/ ٢٥٢ (٣٤) برستيد ٣٥٤

بنفســـه ، فيـــرتاح ضميره ، ويُذكِّره بأن الخطيئة أمرها عند الله ، أى أن الله هو الذى يراها، وهو الذى يحاسب عليها • ثم يقول بعد ذلك:

- ولا تجعلن من نفسك سِكاناً.
- فإن كان لسان الإنسان كسِكان السفينة.
- فإن رب الجميع هو ربانها.

فالاعتماد على الله هو الراحة الحقيقية للضمير .

ومـــن مظاهـــر اهـــتمام المصريين القدماء بالضمير وراحته ، هو كتاب المـــوتى؛ وهو كتاب يوضع فى تابوت المتوفى، ولم يكن سوى إعلان عن راحة الضـــمير، حيـــث يعلن المتوفى ما يبرئه فى الآخرة يوم الحساب : " إنى لم أقتل رجلا ، إنى لم أسرق، إنى لم أتلصص ، إنى لم أسرق امرأ ينتحب على متاعه ، ولـــم تكـــن ثروتى عظيمة إلا من ملكى الخاص ، إنى لم أغتصب طعاما ،إنى لم أبعث الخوف ، إنى لم أُزكِ الشجار ••"[٣٥]

الطهر والعفة والصدق والقناعة:

كـــان المصرى القديم يحرص على أن يكون طاهرا عفيفا ، فلقد كانت خطيئة الزنا عند المصرين القدماء لا تغتفر، ونستنتج من النص التالى أن المرأة لا تجرأ أن تمـــارس هـــذه الخطيئة فى حيِّها الذي تسكن فيه أو حتى فى بلدها بعيدا عن مســـكنها، وإنمـــا درجـــت على ممارستها فى أماكن بعيدة، لا تكون هى معروفة فيها. ولنستمع إلى الحكيم (آنى) وهو يعظ الشباب ويحذرهم من الزنا:

- احذر المرأة الأجنبية التى لا تُعرف بلدتها •
- ولا تنظرنَّ إليها ولا تعرفنها فى جسدها •
- لأنها فيضان (من الشر)عظيم وعميق لا يعرف الرجل دورانه •

---

(٣٥) برستيد ٣٧٤-٣٧٥

- والمراة التى يكون زوجها بعيدا جدا تقول لك كل يوم إنى جميلة ·
- وعــندما تكــون بعيدة عن الأعين تقف أمامك لتوقعك فى أحابيلها... يا لعظيم الجريمة التى تستحق الموت.
- عندما يرتكبها الإنسان و لو لم يعلم بذلك الملأ.
- لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب هذه الخطيئة أن يرتكب كل خطيئة[٣٦].

ومن العفة أيضا ، نصح أمينموبى لمن يعمل موظفا عند شريف :

- لا تطمعنَّ فى متاع شريف ·
- ولا تعطين مقدارا كبيرا من غذاء الخبز تبذيراً.
- وإذا نصَّبك على إدارة أعماله ، فابتعد عما يخصه حتى يثمر ما تملكه.[٣٧]

ومــن قيــم بتاح حتب التى يحث بها على الصدق : " إذا كنت حاكما تصدر الأوامــر للشــعب ، فــابحث لنفسك عن سابقة حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لاغــبار عــليها ، إن الصــدق جميل وقيمته خالدة ، ولم يتزحزح عن مكانه منذ خــلق، لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه... وقد تذهب المصائب بالثروة، ولكن الصدق لا يذهب ، بل يبقى "[٣٨]

ومن قيم أمينموبى وحثه على الصدق أيضاً:

- قل الصدق أمام الشريف (القاضى).
- و ألا يكون له سلطان على جسمك .
- فإذا حضرت فى اليوم التالى .
- فإنه يقبل كل ما تقوله [٣٩].

والواقــع أن هذا هو ما يحدث حقا حينما يكون الشاهد صادقا . ومن حث أمينموبى على قول الصدق والتخويف من الشهادة الزور:

---

(٣٦) برستيد ٣٤٤ (٣٧) سليم ٢٤٩/١٧ (٣٨) سليم ١٨٤/١٧ (٣٩) سليم ٢٥٤/١٧

- لا تتكلمن مع إنسان كذبا .
- فذلك ما يمقته الله .
- ولا تفصلن قلبك [أى ضميرك] عن لِسانك .
- حتى تكون كل طرقك ناجحة .
- وكن ثابتا أمام غيرك من الناس .
- لأن الإنسان فى مأمن فى يد الله .
- وإن الممقوت من الله من يزور فى كلام الناس .
- لأن أكبر شيء يكرهه هو النفاق .[٤٠]

ومـــن الصـــدق أيضا عدم التملق ، لأن التملق نوع من الكذب . ينصح فـــرعون مصـــر [واسمه مجهول] ابنه الملك (مريكارَع) ألا ينافق العظماء على حساب البسطاء من الناس فيقول له : " وعلى ألا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع ، بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفايته "[٤١].

ومن الحث على العفة أيضاً قول أمينموبي:

- لا تحترمن شخصاً.
- ولا تجهدن نفسك لتبحث عن يده (مساعدته).
- إذا قال لك: خذ رشوة.
- ولا تلقين بنظرك إلى أسفل.
- وسلم عليه بفمك وقل له سلام عليك وعندما يقلع عن ذلك فإن موهبتك ستظهر[٤٢].

والحكيم (آني) يحث أيضاً على العفة والأمانة:

" لا تفرحن من أجل ثروة أتت عن طريق السرقة، ولا تئنن من الفقر" [٤٣].

---

(٤٠) سليم ٢٤٧/١٧ (٤١) سليم ١٩٢/١٧ (٤٢) سليم ١٧ / ٢٥٠ (٤٣) ٢٤٤/١٧

ومــن مظاهــر العفة أيضاً ذلك النقش الذي تركه الموظف (أميني) على بــاب مزار قبره ليقول لنا كيف كان عفيفاً عادلاً شفوقاً على مواطنيه، حيث كان فيمــا يــبدو مــن الأمراء أو كبار الموظفين إذ يقول : "لا توجد بنت مواطن قد عبــثت بهــا، ولا أرملة عذبتها، ولا فلاح طردته، ولا راع أقصيته، ولا رئيس خمسة سلبته رجاله مقابل ضرائب (يعني لم تسدد) ولا يوجد بائس بين عشيرتي ولا جــائع فــي زمــني وعندما كانت تحل بالبلاد سنون مجدبة، كنت أحرث كل حقــول مقاطعــة الغــزال (يعني مقاطعته) إلى حدودها الجنوبية، وإلى حدودها الشــمالية، محافظاً بذلك على حياة أهلها، ومقدماً لهم الطعام حتى أنه لم يوجد بها جائع قط، وقد أعطيت الأرملة مثل ذات البعل، وإني لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير في أي شيء أعطيته" [٤٤].

ومــن مظاهــر العفة والطهر عند المصري القديم وعدم ارتكابه جريمة الزنا، ذلك الإعلان الذي يسجله المتوفى في كتابه حيث يقول: "إني لم ارتكب زنا مع امرأة، ولم ارتكب ما يدنس عرضي"[٤٥].

ورغم أن الوزير المسن بتاح حتب يعلم جيداً قيمة الثروة، فإنه كان يرى مــن الواجــب أن لا يطغى حب الثروة على روابط الأسرة، ولا يكون ذلك إلا بالــتعفف فيعــظ ابــنه قائلاً: " لا تكونن شرها في القسمة، وانبذ الطمع حتى في حقك، ولا تطمع في مال أقاربك، فإن التماس اللين يجدي أكثر من القوة..، وإن القــليل الذي يؤخذ بالخداع يولد العداوة.. إذا أردت أن يكون خلقك محموداً، وأن تحــرر نفسك من كل قبيح فاحذر الشراهة، فإنها مرض عضال لا يرجى شفاؤه والصداقة معها مستحيلة"[٤٦].

---

(٤٤) برستيد ٢٢٨ (٤٥) برستيد ٢٧٥ (٤٦) برستيد ١٤٧ وسليم ١٨٣/١٧

والعفـــة من آداب تناول الطعام خاصة مع كبار القوم، يقول الحكيم بتاح حـــتب: "إذا اتفق إنك كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك **(مقاماً)** فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك، **ولا تنظرنَّ** إلا إلى ما وضع أمامك"(٤٧).

والعفة أيضاً يجب أن تمتد لتشمل ما يمتلكه التابع أو الخادم، **فلقد اختُصَّ** التابع بمكانة حميمة لذي **المصريين القدماء. يقول أمينموبي:**

- **لا تطمعن في** متاع تابع.
- ولا تتطلعنَّ **(جوعاً)** لخبزه.
- والواقع أن متاع التابع **شجٌّ** للحلق.
- ومقيئ للزور(٤٨).

وما زلنا مع أمينموبي **في قيمه حيث** يقول :

- لا تندفع بقلبك وراء الثروة.
- فكل إنسان مقدر له ساعته.
- ولا تجهدن نفسك **في** طلب المزيد.
- عندما تكون قد حصلت **(بالفعل)** على حاجتك.
- لأن الثروة لو أتت لك عن طريق السرقة.
- فإنها لا تمكث معك (سواد) الليل.
- إذ عند مطلع الفجر لا تكون في بيتك بعد(٤٩).

المساواة أمام القانون الإلـهي:

ولعل من القيم والفضائل التي يستحق المصريون القدماء أن يفخروا بها،

---

(٤٧) سليم ١٧٩/١٧ (٤٨) سليم ٢٤٨/١٧ (٤٩) سليم ١٤٣/١٧

المساواة أمام القانون، ونحن نرى هذه الفضيلة مبثوثة في ثنايا الفضائل الأخرى، دليـــلاً على اهتمامهم بها، مما يجعلنا نقول أن المصريين القدماء، كانوا بفضيلتهم هـــذه هم الممهدون الأوائل لإقامة أهم أعمدة الديمقراطية. فبعد أن تطورت عقيدة أوزيـــر واتحـــدت بعقيدة آمون في العهد الإقطاعي كما ذكرنا في مقدمة الفصل، وُضع (أوزير) و (رع) جنباً إلى جنب في التفكير الخلقي في ذلك العصر. ونحن نظـــن أن ما حدث من مساواة أوزير بآمون، هو ثورة اجتماعية خطيرة، لم تُرَقْ فيهـــا قطـــرةٌ دم واحدة، إذ لابد أن يكون هناك مغزى حين يصعد إله الموتى من ســـاحة عامـــة الشعب من العالم السفلي إلى السماء لكي يصبح هو القاضي لكل الـــناس، الفقراء والفراعنة على حد سواء، وهو يقضي بين يدي الإله آمون وكما يقول برستيد: " كان لابد في ذلك الوقت لكل عظيم وكل قوي أن ينتظر المحاكمة أمام محكمة العدل، على أن يكون ذلك على قدم المساواة مع الفقير ومن لا ناصر لـــه في المعاملة وفي الأحكام، وتلك المعاملة لم تُذكر فقط في الاعتقادات الدينية والمبادئ الاجتماعية، بل ذُكرت كذلك رسمياً في السياسة الملكية، ولا يكاد يكون هناك أي شك في أن مثل تلك العقائد الخاصة بالعدالة الاجتماعية كما وجدناها في ذلـــك العصـــر(*) قد ساعدت مساعدة عظيمة على نمو الاقتناع بأن الإنسان الذي يصـــير مقـــبولاً أمـــام محكمـــة عدالة الإله العظيم، ليس هو الرجل الذي يكون صاحب سلطان وثروة، إنما هو رجل الحق والعدالة(٥٠).

وبطبيعة الحال، ما دامت هذه هي سياسة الملوك الفراعنة، فمن الطبيعي أن يتأثر الكهنة الذين كانوا مشتغلين باللاهوت في ذلك العصر تأثراً عظيماً بذلك الميـــل لـــتعميم المســـاواة بين الناس (أي نشر الديموقراطية)ويكشف لنا عن ذلك

(*) عـــلى خـــلاف قـــانون حامورابي الذي كان يفرق بين الناس أمام القانون طبقاً لمراكزهم الاجتماعية كما سوف نرى في الفصل الخاص بالبابليين.

(٥٠) برستيد ٢٣٤- ٢٣٥

الـتأثر- كما يقول برستيد- خطاب أساسي هام موجه لإله الشمس عُثر عليه في مـتون التوابيت الخشبية التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر الإقطاعي إذ يقول: " لقد خَلقتَ الرياح الأربعة ليتنفس بها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته، ولقد خـلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد، لقد خلقت كل رجل مثل أخيه وحرمت عليهم اتيان السوء، ولكن قلوبهم هي التي نكثت ما قلته"[٥١].

وواضـح أن المساواة بين البشر عمود من عُمد الديمقراطية الحديثة، إن لم نقل أهم عُمدها.

ويقارن برستيد بين هذه النظرة للإنسان عند قدماء المصريين وفراعنتهم وبين قوانين حمو رابي فيقول : "إن ظهور مثل تلك النظرة- إلى الإنسانية- التي قضـت عـلى كـل الفوارق الاجتماعية في نظر الخالق العظيم عند خلقه الناس وجعلهم سواسية أمام المسئولية الخلقية يعد أمراً غريباً، ويزيد في غرابته ظهوره قـبل عهد المسيح (عليه السلام) بألفي سنة، أي أنه كما تلاحظ كان معاصراً على وجـه التقريب لعهد الملك حمو رابي، الذي سن قانونه العظيم "إن كل العقوبات والأحكـام القضـائية، تـدرج حسـب مراكـز المذنـبين الاجتماعية، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية" وبناءاً على هذه التفرقة الاجتماعية، يغالي برستيد كثيراً فيقـول: " وهـذه الحقيقة تفسر لنا على الفور، السبب الذي من أجله نعتبر أن ما أضـافته المدينة البابلية إلى إرثنا الخلقي في غرب آسيا في حكم العدم"[٥٢]، فرغم هـذه النقيصـة، فـلقد أضـافت الحضارة البابلية إلى الإرث الخلقي الكثير من الفضائل والقيم كما سوف نرى في الفصل الخاص بالبابليين.

---

(٥١) برستيد ٢٣٥ (٥٢) برستيد ٢٣٦

التواضع واكتساب محبة الناس واحترامهم:

ومن القيم التي بثها بتاح حتب لابنه كي يُعِدَّه لأن يصبح وزيراً، هي قيمة التواضع، فينصحه بألا يسئ استعمال الحكمة التي سيلقنه إياها بل عليه أن ينتهج سبيل التواضع، فيقول له: " ولا تكونن متكبراً بسبب معرفتك فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم بلغ في فنه حد الكمال، وإن الكلام الحسن أكثر اختفاءاً من الحجر الأخضر الكريم [أي أكثر ندرة]، ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللائي يعملن في إدارة حجر الطاحون"(٥٣).

ومن حكم المصريين القدماء، تلك التي تُذكِّرُ الإنسان بحاله قبل أن يصبح عظيماً: " إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغير القدر، وأصبحت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً، فلا تنسين كيف كانت حالك من الزمن الماضي، ولا تفخر بثروتك التي أتت إليك منحة من الإله (أي الملك) فإنك لست بأفضل من غيرك، من أقرانك الذين حل بهم ذلك"(٥٤)، هذا بالإضافة إلى أن المصري القديم درج على أن يعلن في كتابه بعد الوفاة أنه لم يكن متكبراً(٥٥).

ومن نصائح فرعون مصر لابنه الفرعون المقبل مريكارَعْ، أن يتحلى بالتواضع وعدم الغرور حيث يقول له: " ولا تضعن ثقتك في طول العمر لأنهم (يعني القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة كأنها ساعة واحدة، ولكن الإنسان يُبعث ثانية بعد الموت، وتوضع أعماله بجانبه كالجبال، لأن الخلود مثواه هناك (أي بالآخرة). والغبي من لا يكترث لذلك، أما الإنسان الذي يصل إلى الآخرة دون أن يرتكب خطيئة فإنه سيثوى هناك، ويمشي مرحاً مثل الأرباب الخالدين (يعني الأبرار المتوفين)"(٥٦).

---

(٥٣) برستيد ١٤٣ (٥٤) برستيد ١٤٥ (٥٥) برستيد ٢٧٥ (٥٦) سليم ١٧/١٩٤

ومــن تعاليم كاجمني أحد حكماء مصر في الدولة القديمة: " والمتواضع يبقى صحيحاً، ومن يستقم في معاملته يُمدح، وتُفتح الخيمة للمتواضع، والحذر في كلامه يُفسح له مكان رحب، ولكن السكين تُرهف لمن يحيد عن الصراط"(٥٧).

ولا شــك أن "التواضــع" ســوف يقود إلى فضائل أخرى، وهي اكتساب احــترام الناس ومحبتهم، فلقد ذكرنا فيما سبق كيف أن الفرعون طلب من أمرائه أن يكونــوا ذوي مهابة، ولكنه حدد لهم العدل طريقاً للحصول على هذه المهابة، أمــا هذه المرة فسوف نرى الحكيم أمينموبي يحث ابنه على أن يحصل ليس على مهابــة الــناس له، بل على احترامهم ومحبتهم فهما أفضل من الخزائن المملوءة بالمال. يقول أمينموبي لابنه:

- وخير لك المدح (تتاله) كفرد يحبه الناس.
- من الثروة (المجموعة) في الخزائن.
- وذلك لأن الغِنى مع الضمير الشاعر بالذنب لا قيمة له.
- وما فائدة الملابس الجميلة.
- إذا كان الإنسان باغياً (متعدياً على غيره) أمام الله؟ (٥٨)

الشفقة والتراحم والتعاطف:

اهــتم الــتطوريون من فلاسفة الأخلاق بهذه الفضائل بالذات، فهي عند سبنســر (١٨٢٠-١٩٠٣) القوة المحركة لتكيف الإنسان مع الظروف، وبخاصة الــتغير مــن الحيــاة الوحشية إلى الحياة المدنية المستقرة، وفي هذا التكيف يقمع الإنســان صــفات الأنانية القديمة ليطور صفات أخرى بواسطة ما عنده من مبدأ التعاطف (الموسوعة مادة سبنسر) .

---

(٥٧) سليم ١٨٨/١٧ (٥٨) برستيد ٣٤٨

ولقـد اهتم المصري القديم أيضاً بفضيلتي الشفقة على الآخرين والتراحم بهـم والـتعاطف معهم، خاصة الضعفاء والفقراء.فلقد ترك أحد حكام المقاطعات ممـن عاشـوا في القرن السابع والعشرين ق.م البيان التالي عن حياته الصالحة حيـث يقول: "لقد أعطيت خبزاً لكل الجائعين في جبل الثعبان (ضيعته)، وكسوت مـن كـان عرياناً فيها، وملأت الشواطئ بالماشية الكبيرة، وأراضيها المنخفضة بالماشـية الصـغيرة، وأشـبعت كل ذئاب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصـغير. ولـم أظلم أحداً قط في ممتلكاته، حتى يدعوه ذلك لأن يشكوني لإله مدينـتي، ولكـني قلت وتحدثت بما هو خير .. وإني لم أنطق كذباً لإني كنت امـرءا محـبوباً من والده، ممدوحاً من والدته رفيع الأخلاق مع أخيه ودوداً [لأخته]"(٥٩).

ومن قيم أمينموبي حثه على الشفقة بالفقراء حيث يقول:

- لا تمنعن أناساً من عبور النهر.
- عندما يكون في قاربك مكان.
- ولا تصنعن لنفسك قارباً.
- ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره.
- خذ الأجر من الرجل صاحب الثروة.
- ورحب بمن لا يملك شيئاً(٦٠).

ومن قيمه أيضاً التي يحث عليها: الطيبة:

- ضع طيبتك في جوف الناس (في أعماق نفوسهم).
- حتى يحييك كل إنسان(٦١).

---

(٥٩) برستيد ١٣٧-١٣٨ (٦٠) سليم ١٧/٢٦٠-٢٦١ (٦١) سليم ١٧/٢٤٤

ومـــن قيـــم الشفقة تلك القيمة التي يأمر بتاح حتب أتباعه بها، وإن كان يوجهها إلى الحكـــام ومـــن بيدهم الأمر، ولا بأس بذلك إذ أنهم أولى بها. يقول بتاح: "إذا كنت حاكماً فكن شفيقاً حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تسئ معاملته إلى أن يغسل بطنه (أي يبوح بكل ما في صدره)، وإلى أن يقول ما جاء من أجله . وأنهـــا لفضيلة للقلب أن يستمع مشفقاً" (٦٢)، وهذه القيمة وإن كانت تدخل في باب الشفقة، ولكنها سوف تؤدي حتماً على تحقيق العدالة في نفس الوقت.

آداب المجتمع :

ارتـــبطت الحضارة المصرية القديمة بالفرعون وبالدولة عموماً، وكانت "لـــلدولة" قداســـة في قلوب المصريين، لذلك فلا عجب أن تقابلنا بعض القيم التي تـــدور كـــلها حول مفهوم الدولة ومفهوم الرؤساء وآداب الكلام في مجالس كبار رجال الدولة، وفي المناسبات الاجتماعية عموماً.

فمـــن القيـــم الأخلاقية التي كان قدماء المصريين يحتفون بها ويعلمونها لأبـــنائهم، قيمـــة الصمت وقلة الكلام، وسوف نرى هذه القيمة عند البوذيين فيما بعـــد، يقول الحكيم : " لا تكن كثير الكلام فبالصمت تنال الخير، أما من جهة أمر الإلـــه، فلعنته في رفع الصوت، تعبَّدْ بقلب سليم كل كلمة من كلماته باطنة، فبذلك تنال ما تحتاجه ويسمع كلماتك، ويتقبل قربانك"(٦٣).

ومـــن ذلـــك أيضـــاً: "أنتِ أيتها البئر العذبة للصادي في الصحراء- إنها مُوصـــدة لا تُفـــتح للثرثار – ولكنها مفتوحة للصامت، فأينما يأتي الصامت يجد البئر"(٦٤). وهو نداء صوفي فيه رمز أكثر من التصريح.

وبطـــبيعة الحـــال كـــانت هذه القيمة من ضمن القيم التي كان بتاح حتب يعلمها لابنه، غير أنه لم يكن يطلب الصمت كقيمة مطلقة، ولكنه كان يفضله على

---

(٦٢) سليم ١٧/١٨٤ (٦٣) برستيد ٣٤٣ (٦٤) برستيد ٣٤٣

الكـــلام الأحمق المـــنقول عن الغير. فيقول لابنه: " ولا تعيدن قط كلمات حمقاء خرجت من غيرك في ساعة غضب والزم الصمت، فإنه أحسن من أزهار تفتف، وتكلم فقط إذا كنت تعلم أنك ستحل المعضلات"(٦٥).

ويؤكد بتاح حتب في حِكَمه وجوب مراعاة حُسن الذوق واستعمال الذهن الـــذي أطـــلق عـــليه كالمعتاد كلمة (القلب)(*)، فأفضل الصفات التي يجب على الشـــاب أن يتحلى بها أن يكون قادراً على الإصغاء أو الطاعة، فنجده يقول: "إن المستمع هو الذي يحبه الإله أما الذي لا يستمع فإنه هو الذي يبغضه الإله.والعقل (القلب حسب النص الأصلي) هو الذي يجعل صاحبه مستمعاً أو غير مستمع، إن ثـــروة المرء العظيمة هي عقله، فما أفضل الابن عندما يصغي لأبيه، والا بن إذا وعى لما يلقيه عليه والده، فإنه لن يخيب في مشروع من مشروعاته"(٦٦).

ومـــن القيـــم المرتبطة أيضاً بالدولة، احترام الرؤساء حتى لو كانوا من أصـــل وضيع، وهي كما ترى ذات طابع نفعي عملي. يقول بتاح حتب لابنه: "إذا كـــان رئيســـك فيما مضى من أصل وضيع فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة، واحـــترمه طـــبقاً لمـــا وصل إليه لأن الثمرة لا تأتي عفواً"(٦٧). فبتاح حتب يعلم بخالص حكمته أن هذا الرئيس ذا الأصل الوضيع لم يصل إلى مرتبته هكذا فجأة، بـــل لابد قد وصل إليها بعد جهد وكفاح مريرين (الثمرة لا تأتي عفواً) لذلك فهو يستحق الاحترام.

ومـــن القيم أيضاً المرتبطة بالدولة وذوي النفوذ هو ألا تبحث- كما يحث أمينموبي- عن علية القوم كي تستظهر بهم ضد الأقوياء من أعدائك، بل اصبر

---

(٦٥) برستيد ١٤٤-١٤٥

(*) لقد وحد المصريون القدماء بين العقل والقلب والضمير كما ذكرنا سابقاً.

(٦٦) برستيد ١٤٣-١٤٤ (٦٧) برستيد ١٤٤

عليهم- أي أعداءك- في صمت، ولن يتركك الله إلا بعد أن يعطيك حقك:

- لا تقولن إني وجدت رئيساً قوياً.
- والآن يمكنني أن أهاجم رجلاً في مدينتك.
- ولا تقولن إني وجدت حامياً.
- والآن يمكنني أن أهاجم الرجل الممقوت.
- فالحقيقة أنك لا تعلم تدبير الله.
- وأنك لا تدرك الغد.ضع نفسك بين يدي الله.
- إلى أن يهزمهم صمتك(٦٨).

ومـــن القيم الذي ينبغي أن يستجيب المصري القديم لها إذا جلس للطعام مـــع كـــبار القـــوم، هو ما يوصي به بتاح حتب فيقول : " إذا اتفق أنك كنت بين الجالســـين على مائدة أكبر منك (مقاماً)، فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك ولا تنظرن إلا إلى ما وضع أمامك، ولا تصوبن [النظر] لحظات كثيرة إليه لأن ذلك ممـــا تشمئز منه النفس (كا) إذا أحفظها الإنسان، وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييـــك، وتكلم فقط بعد أن يرحب بك، واضحك حينما يضحك، فإن ذلك سيكون ساراً لقلبه"(٦٩). ولقد سبق أن رأينا هذه القيمة سبيلاً إلى العفة.

وإلى جـــانب هذه القيم التي تمارس مع كبار القوم، هناك مجموعة أخرى من القيم التي ينبغي ممارستها في المجتمع العادي بصفة عامة؛ فمن آداب الطعام ينصح (كاجمني) الضيف قائلاً: " إذا جلست مع أناس كثيرين (للأكل) فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة وإن كنت تشتهيه، فإن ضبط النفس لا يكلف الإنسان أكثر من لحظة، وإنه لمن العار أن يكون الإنسان شرهاً، فقدح ماء يروي الغلة"(٧٠)، وهي قيم تقوم جميعها على ضبط النفس والسيطرة عليها.

---

(٦٨) برستيد ٣٤٩-٣٥٠ (٦٩) سليم ١٧/١٧٩ (٧٠)سليم ١٧/١٨٨

ومـــن آداب المجـــتمع احـــترام أسرار البيوت التي ندخلها يقول الحكيم (آني): " لا تدخلن بيت غيرك، ولا تمعنن في النظر إلى الشيء المنتقد في بيته إذ يمكـــن لعيـــنيك أن تراه، ولكن الزم الصمت، ولا تتحدثن عنه لآخر في الخارج حتى لا تصبح جريمة كبرى تستحق الإعدام عندما تُسمع"(٧١).

وفـــي نصـــيحة أخرى لنفس الحكيم آني يقول " لا تذهبن إلى بيت إنسان بحرية، بل ادخله فقط عندما يؤذن لك، وحينما يقول هو لك (أي رب البيت) أهلاً بك بفمه" (٧٢).

طيب الذكر:

الحضـــارة المصـــرية القديمة- كما هو معروف- حضارة دينية، قامت حول تقديس الإله وتقديس الفرعون وتقديس الحياة الأخرى، ورغم ذلك قد تكون هـــناك أحياناً فترات من الانحلال التي تنتج من ثورات اجتماعية، وقد حدث مرة أن طال هذا الانحلال عقيدة المصريين وساد الشك حياتهم فأصبحوا يشكون في وجـــود حياة أخرى. وكان المصري القديم في فترات الإيمان شغوفاً بحب الخير وبطيـــب الذكـــر، فهو يقيم الشواهد على قبره ويكتب عليها أنه كان محسناً كريماً محـــباً لأبيه. . الخ مستبعداً كل الصفات الذميمة، كل ذلك طلباً لطيب الذكر، غير أن هـــذه الصفات لم تفارقه أبداً حتى في فترات الانحلال والشك في حياة أخرى فحـــتى فـــي عصـــر الشـــك الذي ساد فترة حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م حيث شك المصريون القدماء في الحياة الأخرى وفي البعث. كان المصري القديم يدعو لأن يكـــون صـــاحب اسم له ذكرى طيبة عطرة تبقى إلى الأبد. فلننظر إلى بعض ما جـــاء في أحد الأناشيد التي عُثر عليها في قبر كاهن آمون (نفر حتب) في طيبة، اسمع للمتشكك وهو يدعو للانغماس في اللذات ويقول:

(٧١) سليم ٢٢١/١٧ (٧٢) سليم ٢٢٦/١٧

- أتريد أن تغرس لنفسك شجراً محبوباً.
- على شاطئ بركتك.
- لتجلس روحك تحته.
- ولتشرب من مائها.
- اشبع رغباتك كلها [أي انغمس في اللذات].
- واعط الخبز لمن لا حقل له [أي كن محسناً كريماً].
- وبذلك تنال اسماً طيباً.
- للمستقبل ويبقى للأبد.(٧٣)

فحتى عندما وصل المصري القديم إلى أعلى مراتب الشك والإنحلال، وعدم الإيمان بوجود حياة أخرى، لم ينس فعل الخير للمحتاجين من أجل طيب الذكر الذي يحرص عليه جيداً. . وكما يقول برستيد "فالمغني الذي يرتل هذه الأنشودة لا يجد أملاً في التفكير في الموت ومصيره غير أنه يرى أنه من الخير أن يترك الإنسان وراءه سمعة حسنة دائماً- لا لأن ذلك ينفعه حتماً في الآخرة [فهو لم يعد يؤمن بها]، بل لكي تبقى ذكراه في الدنيا على الألسنة وفي أذهان من يأتون بعده"(٧٤)، ولا شك أن العمل على الفوز بطيب الذكر، هو إحدى الفضائل.

البر بالوالدين واحترام كبار السن وذوي العاهات:

كان الترابط الأسري- على نحو ما شاهدنا- هو أحد الأسس الأخلاقية عند المصري القديم، فلا عجب أن التراحم بالآباء وكبار السن من الفضائل التي يتحلى بها المصري القديم، ولقد امتد هذا التراحم ليشمل أهل العاهات.

فمن نصائح الحكيم (آني) لابنه "ضاعف مقدار الخبز الذي تعطيه والدتك، واحملها كما حملتك، ولقد كان عبئها ثقيلاً في حملك، ولم تتركه لي قط

---

(٧٣) برستيد ١٨٠-١٨١ (٧٤) برستيد ١٨١

أبداً، وحينما وُلدت حملتك كذلك ثانية بعد شهور حملك حول رقبتها، وقد أعطتك ثديهـا ثلاث سنوات ولم تشمئز من برازك، ولم تكن متبرمة، ولم تقل ماذا أفعل أنـا، ولقـد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمتَ الكتابة، وقد وقفت هناك يومياً خارج المدرسـة . . . وحينما تصبح شاباً وتتخذ لنفسك زوجة وتستقر في بيتك، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربتك بكل الوسائل، فليتها لا تضرك بألا ترفع أكف الضراعة إلى الله، وليته لا يسمع عويلها"(٧٥).

ومـن القيم التي يبثها الحكيم أمينموبي وتحث على احترام كبار السن. ما جاء في قصيدته:

- لا تلعن أكبر منك سناً.
- لأنه شاهَدَ رع قبلك.
- ولا تجعله يتهمك إلى قرص الشمس عند شروقه.
- قائلاً: شاباً آخر سب مسناً.
- فإنه مؤلم جداً أمام رَعْ.
- أن يسب شاب رجلاً مسناً.
- دعه يضرب بيده في صدرك.
- دعه يسبك وأنت ملازم السكون.
- فإذا حضرت أمامه في اليوم التالي.
- فإنه سيعطيك خبزاً لا حصر له.(٧٦)

ومـن نصائح آني الخاصة بكبار السن أيضاً: " لا تقعدن إذا كان غيرك أكبر سناً واقفاً، أو آخر يشتغل في مهنته (معك) زمناً أقدم منك"(٧٧)

ولقـد امـتدت عاطفـة المصـري وقيمـه، لتشمل ذوي العاهات. يقول أمينموبي:

---

(٧٥) سليم ٢٢٦/١٧ (٧٦) سليم ٢٥٩/١٧-٢٦٠ (٧٧) سليم ٢٢٤/١٧

- لا تسخرنّ من أعمى ولا تهزأن من قزم.
- ولا تفسدن قصد رجل أعرج.
- ولا تُحفظنّ رجلاً في يد الله (ما يعبر عنه الآن بالمجذوب).
- ولا تكونن عابس الوجه حينما يكون قد تعدى الحدود.
- إذ الواقـع أن الإنسان من طين وقش (وهما المادتان اللتان يصنع منهما الطوب اللبن).
- والله هو مسويه.
- وهو يهدم ويبني كل يوم[٧٨].

مجموعة متناثرة من الفضائل والقيم:

هـناك مجموعـة متـناثرة مـن بعض الفضائل والقيم التي نجدها عند المصـري القديـم، ولكـنها لـم تتكرر أمامنا كثيراً، فآثرنا أن نجمعها في فترة واحدة.

فمن هذه الفضائل ما يسجله المتوفى في كتابه:

" إنـي لم أبعث الخوف- إني لم أزك الشجار- ولم يكن قلبي متسرعاً- إني لم أضاعف الكلمات عند التحدث-ولم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب- وفمي لم يثرثر- ولم تأخذني حدة الغضب-إني لم أسب ولم أكن متسمعاً..الخ"[٧٩]

والحلم من ضمن الفضائل التي حث أمينموبي عليها حيث يقول:

- أما الرجل الحليم حقاً فهو الذي يضع نفسه جانباً (حيث يجب).
- فمثله كشجرة باسقة في حديقة.
- تنمو يانعة وتضاعف ثمرتها.
- فتقف أمام سيدها.

---

(٧٨) سليم ٢٥٨/١٧

(٧٩) برستيد ٢٧٥

- وثمرتها حلوة وظلها ظليل.
- وينتهي مصيرها في الحديقة [وليس في مخزن الأخشاب](٨٠).

احتــلت المرأة المصرية مكانة عظيمة عند المصريين القدماء، ولذلك فقد أطــلق بــتاح حتب نصائحه للزوج حتى يحوز رضاء زوجته، غير أننا نجتزئ مــنها تــلك النصيحة التي تجعل الإنسان فاضلاً إذا التزم بها؛ يقول بتاح ناصحاً "اجعــل قلــبها فــرحاً ما دمت حياً فهي حقل مثمر لسيدها"(٨١)، وقوله: "إذا كنت ناجحاً فوطد حياتك المنزلية وأحبب زوجتك في البيت كما يجب".

لا شــك أن الإنســان الذي يتمتع بطلاقة الوجه سوف يكون محبوباً من الجميــع، ولذلك فإن بتاح حتب ينصح مريده فيقول له: "كن طلق الوجه ما دمت حياً"(٨٢). ولا شك أن هذه القيمة من القيم النادرة عند كافة الشعوب، وقد لا تقابلنا مستقبلاً.

أما بعد؛ فلعل القارئ قد اطلع على بعض الفضائل والقيم لدى المصريين القدماء وفراعنتهم، ورأى أنهم قد توصلوا إلى مفهوم "الضمير" الذي هو في رأينا أحــد المحركات الأساسية للإلزام الخلقي، واهتموا اهتماماً شديداً بالعدالة وتقديس الحــق، كما ظهرت لديهم فكرة العدالة الاجتماعية ومساواة الناس أمام الله قبل أن يظهر هذا المفهوم في أي حضارة أخرى، ولقد فصلوا القول في ذلك فحثوا على المســاواة بيــن الفقير ذي الملابس القذرة والشريف الذي يلبس الكتان، فهم بذلك أبعد ما يكونون عن الطغيان، ولقد حثوا كثيراً على الأمانة وعدم العبث بالميزان والمكــاييل، كمــا حثوا على الطهر والعفة والقناعة، كما طالبوا الضيوف بكتمان الســر، لمُضيفيهم، وطالبوا الناس بالتواضع وحثوهم على الرحمة والتعاطف (فلا تمنعن أناساً من عبور النهر، وخذ الأجر من الرجل صاحب الثروة، ورحّب بمن

---

(٨٠) سليم ٢٤٠/١٧ (٨١) سليم ١٨٢/١٧ (٨٢) سليم ١٨٤/١٧

لايملك شيئا)ورأينا أنهم حتى فى عصور الشك فى الغيب كانوا مع ذلك يطلبون حسن الذكر ، كما اهتموا اهتماما كبيرا بالوالدين وكبار السن فطلبوا مضاعفة الخبز للأم ، وأشفقوا على ذوى العاهات (ولا تسخرنَّ من أعمى ولا تهزأنَّ من قزم ولا تُفسدنَّ قصد رجل أعرج)٠واهتموا اهتماما خاصا بالأرامل فأعطوا الأرملة مثل ذات البعل ٠ إن كل من يفعل هذا لابد أن يفوز براحة الضمير ٠

كما اهتموا أيضا بفضائلَ نادرةٍ جدا ربما لا نراها عند غيـرهم مثـال فضيلة "المهابة " التى لا يحصل عليها الأمير بالطغيان ، وإنما بالعدل: " واعلـم أن الخوف من الأمير يأتى بإقامة العدل" ٠ وهذه المهابة لها حدود ينبغى عـدم تخطيها: " واعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغـى دل ذلـك على ناحية نقص فيه فى نظر القوم "٠ ومن ذلك أيضا الحـث علـى صـيانة الأسرار : " لا تصغين إلى أجوبة رجل شريف فى بيت ثم تنشره إلى آخر فـى الخارج٠٠٠ حتى لا يتألم قلبُك"٠ ومن فضائلهم النادرة أيضا الحث علـى عـدم إقحام النظر إلى عورات الآخرين: " لا تدخلن بيت غيرك ولا تمعنن فى النظـر إلى الشئ المنتقد من بيته إذ يمكن لعينيك أن تراه ، ولكـن الـزم الصـمت ولا تتحدثن عنه لآخر فى الخارج حتى لا تصبح جريمة تستحق الإعدام "

وجميع هذه الفضائل والقيم ، والتى تتفق كثيرا مـع الفضـائل والقـيم فىالأديان الإلهيـة ، مارسها هذا الشعب هو وفراعنته الذين لم يكونوا أقل منه شغفا بها ، وكل ذلك حدث فى عصور قديمة قبل مجيء التوراة بألفى عام ، مما يدل على أن الشعب المصرى قد توصل لفضائله وقيمه عن طريـق ممارسـته لحياته ، أى أن الفضائل والقيم اجتماعية وإنسانية ٠ وسوف نرى فيما يلى مسار الفضائل والقيم عند الحيثيين والكنعانيين ٠

الفصل الثاني

الفضائل والقيم لدى الحيثيين والكنعانيين

أولاً: الحيثيون

لابد أنه كان للحيثيين تاريخهم الأخلاقي، فنحن مقتنعون تماماً أنه ما وجد مجتمع إنساني قط، إلا وُجِدت الأخلاق عنصراً أصيلاً في التكوين الاجتماعي لهذا المجتمع، مهما كان هذا العنصر ضعيفاً غير أن أبرز ما وصل إلينا من الأخلاق عند الحيثيين، هو " ما نراه من تقديرهم للمسئولية الخلقية في الالتزامات الدولية التي أقرها أحد الملوك الحيثيين في القرن الثالث عشر ق.م، حيث يعترف هذا الملك بهجوم لا مبرر له، قام به ضد الدولة المصرية في عهد رمسيس الثاني ، ولما كان هذا الملك يشعر بالخطأ الخلقي الذي ارتكبه، فقد نسب الوباء الذي كان شعبه يعانيه إذ ذاك إلى غضب إلهه عليهم بأن أرسل عليهم هذا الوباء بمثابة عقاب على تلك الخطيئة التي ارتكبها، كما يلاحظ أيضاً نمو شعورهم بالحق والاعتدال في الصورة المنقحة من القانون الحيثي التي أحدثها الملك خاتشيل وجعلها أكثر رأفة من قبل"[1].

غير أن هناك علاقة بين قانون حامورابي البابلي وقانون الحيثيين؛ فإذا كان البابليون قد جعلوا العقوبة تتدرج اجتماعياً، فقد جعلها الحيثيون تتدرج حسب المركز السياسي الذي يشغله المذنب، فكانت تخف وطأة العقاب إذا كان المجرم من أهل البيئة المحلية، فيكون أقل من العقاب الذي يوقع على أحد رعايا الحكومات المجاورة. وهو طبعاً نوع من عدم المساواة أمام القانون[2].

وواضح أن الفضائل والقيم لدى هذا الشعب تكاد تكون مجهولة لدى المؤرخين. فكما يقول برستيد " لا يزال أمامنا مقدارٌ عظيمٌ من الحفائر والأبحاث

---

(١) برستيد ٣٦٨-٣٦٩ (٢) برستيد ٣٦٩

الـــتي لابـــد مـــن درسها وإتمامها قبل أن تكون لدينا المعلومات الوافية عن كنه المدنيـــة الحيـــثية، وإلى أن يتم ذلك تشير الدلائل إلى القول بأن الحيثيين كان لهم بعض التأثير في التقدم الخلقي في آسيا الغربية"[٣].

(٣) برستيد ٣٦٩

ثانياً: الكنعانيون

الكـنعانيون هم أهل فلسطين الأوائل الذين كانوا يسكنونها قبل أن يحتلها العبرانيون، "وكانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد"(٤).

ففـي خـلال هـذا الألف عام، انتقلت آثار من الثقافة المصرية القديمة والـثقافة البابلية إلى الكنعانيين أهل فلسطين الأصليين، ثم احتلها العبرانيون بعد ذلـك، فانتقـلت هذه الثقافة إليهم عن طريق الكنعانيين، "يضاف إلى ذلك، أن هذا الإقـليم كـان منذ زمن بعيد واقعاً تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة، فقد بدأ المصـريون يبسـطون سـيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسـطين بأكـثر مـن ألفي سنة، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق.م. لمـا فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية، ووصلوا في فتحهم إلى نهـر الفـرات فـي خلال القرن السادس عشر ق.م، بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهـم أكثر من أربعة قرون، والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العـبرانيين فيهـا، وبذلـك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلـتها فيهـا مصـر. فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مراراً وتكراراً بالعناصر المصرية"(٥).

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الثقافة الكنعانية كانت واقعة في نطاق تأثير الثقافة البابـلية أيضـاً، اسـتنتجنا مـن ذلك أن الثقافة الكنعانية كانت مزيجاً من الثقافة المصـرية القديمـة والبابلية، بالإضافة طبعاً إلى التجاريب الاجتماعية للكنعانيين أنفسهم. وظل هذا الحال مدة ألف عام إلى أن احتلها العبرانيون(*).

---

(٤) برستيد ٣٧٢ (٥) برستيد ٣٧٢

(*) اتخذ العبرانيون بعد ذلك لغة الكنعانيين لغة لهم، وهي التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب اللغة العبرية (برستيد ٣٧٣)

نســـتنتج من كل ذلك أن فضائل الكنعانيين وقيمهم، كانت متأثرة إلى حد بعيـــد بتلك التي كانت للمصريين والبابليين، دون أن نتمكن من الاطلاع المباشر عـــلى حياتهم الخلقية، وننتقل الآن إلى مدنيات البابليين والسومريين والآشوريين لنرى كيف كانت الفضائل والقيم لديهم.

الفصل الثالث

الفضائل والقيم

لدى البابليين والسومريين والآشوريين

أولاً: البابليون:

مقدمة:

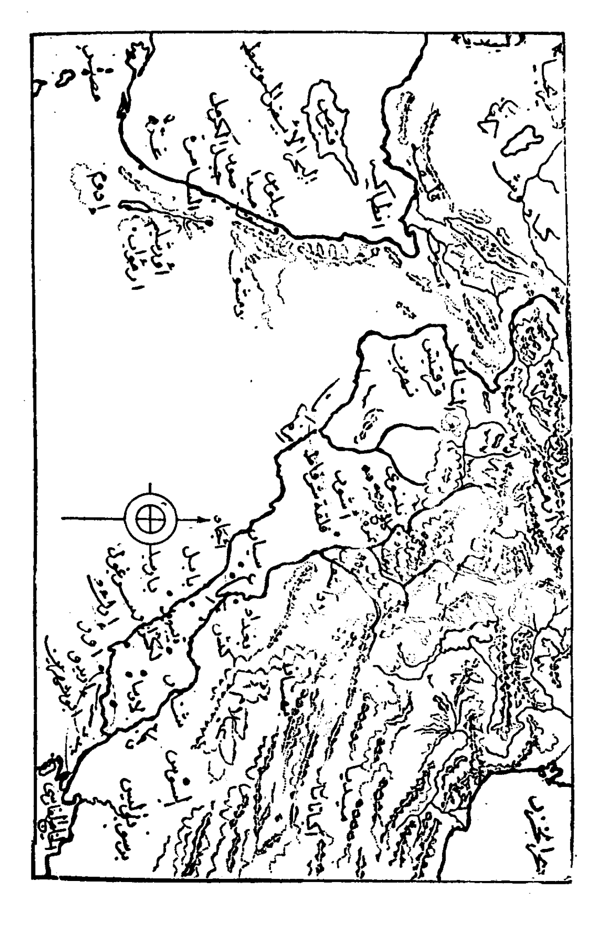
المدنيـــة البابـــلية من أقدم المدنيات، " ويمكننا الآن أن نتتبع نشأتها خلال بضـــعة القـــرون الأولى مـــن الألـــف الســـنة الرابعة قبل الميلاد، ولقد أحرزت الحضارة البابلية بعض التقدم السامي في عالم الفن خلال الألف السنة الثالثة قبل الميلاد"(١).

وكـــانت بابل كما يقول ديورانت "مو طن حضارة غنية قوية كادت تكون هـــي الخالقة لعلم الفلك، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب، وأنشأت علم اللغة وأعدت أول كتب القانون الكبرى، و علمت اليونان مبادئ الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم. ونقلت إلى العرب بعـــض المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظت بها روح أوروبا من سباتها في العصر الوسيط"(٢).

ننـــتقل الآن إلى الحياة الدينية عند البابليين، فلقد تصور البابليون الأوائل آلهـــتهم كمـــا يقول برستيد ممثلة في قوى الطبيعة، وهم في ذلك مثل المصريين القدمـــاء، فكانت أقدم معبوداتهم من آلهة الطبيعة، ولذلك نجد في أنشودة عظيمة كـــانت لابـــد مســـتعملة في عبادة (سِن) إله القمر في معبد بمدينة أور أن مؤلفها الكـــاهن كشف فيها عن أصل عالم الطبيعة حيث رأى عفواً إله القمر يقوم بعمله وهو لذلك لم يَسند إليه خلق كل الأشياء المادية فحسب، بل عزا إليه أيضاً تأثيث

---

(١) برستيد ٣٦١ (٢) ديورانت ٢/١٨٧ - ١٨٨



خريطة بابل وآشور وسومر وعيلام (فارس)

كـل الـنظم البشرية بما في ذلك الحكومة والديانة الرسمية وبخاصة حياة الشعب الخلقية[٣]، وسوف يلاحظ القارئ أن اللغة البابلية- مثلها مثل اللغة الفرعونية- لم تكـن آنذاك قد نضجت النضج الكافي كي تمدنا بمفاهيم مثل مفهوم "الخلق"، فكان يعـبر عـنه أحياناً بمفهوم آخر هو مفهوم "الولادة"، كما لم تمدنا بمفهوم الملاك، فكـانوا يسـتخدمون بدلاً من الملائكة كلمة "الآلهة" كما سبق أن ذكرنا في مقدمة الفصـل الأول، ولكننا إذا نظرنا إلى أناشيدهم الدينية، وجدناها تفيض بالوحدانية والـتقديس كقولهـم (مَنْ المعظم في السماء، إنك أنت وحدك المعظم- فإن آلهة العـالم العـلوي يسجدون لك- وحينما يتردد صدى كلمتك فوق الأرض فإن آلهة العـالم الدنيـوي يقبلون الأرض لك)، ولقد كانت الديانة البابلية ذات صلة وثيقة بالأخلاق على ما سوف نرى، وفيما يلي بعض قيمهم وفضائلهم:

الصدق والعدالة والعفة والبعد عن الشر:

سوف نتلو فيما يلي قصيدة بابلية، أنشأها أحد الكهنة البابليين، حقاً لم تكن الحيـاة الخـلقية قد نضجت في بابل، حتى أن برستيد نفى عن بابل أي مساهمة خلقية على النحو الذي سوف نراه، ولم نوافقه على ذلك، غير أننا سوف نرى في هـذه القصـيدة بـاكورة لحيـاة خلقية، وسنجد بها مفاهيم مثل الصدق والعدالة والرحمة والشفقة، فكيف ننكر وجود حياة خلقية لديهم؟

- أيها الأب الرحيم الشفيق.
- الذي في قبضته حياة الأرض قاطبة.
- أيها الرب ألوهيتك كالسماء العالية.
- نهرٌ عريض مفعم بالأشجار.
- هو الذي يخلق الأرض ويؤسس المعابد.

---

(٣) برستيد ٣٦٣

- ويسمى أسماءها.
- والوالد الذي يلد الآلهة والناس [أي يخلقهم].
- ويجعل المساكن تقام وينشئ القرابين.
- وهو الذي يدعو الملكية ويعطي الصولجان.
- ويحدد ما هو مقدر للإنسان في الأيام البعيدة.
- وهو الأمير ذو البطش لا يرى ما في قلبه الفسيح أي إله.
- والرب الذي يقرر حكم السماء والأرض.
- والذي لا مبدل لأمره.
- والقــابض عــلى النار والماء والمرشد للمخلوقات الأحياء فمن ذلك الإله الذي يعادلك.
- من المعظم في السماء؟
- إنك أنت وحدك المعظم.
- ومن المعظم فوق الأرض؟
- إنك وحدك المعظم.
- وحيــنما يــتردد صدى كلمتك في السماء، فإن آلهة [أي ملائكة] العالم العلوي يسجدون لك.
- وحيــنما يــتردد صــدى كلمتك فوق الأرض فإن آلهة [ملائكة] العالم الدنيوي يقبلون الأرض لك.
- وحيــنما تــرتفع كلمتك إلى عليين كالهواء فإنها تجعل المراعي تنمو، وعيون الماء تغزر.
- وحينما تنزل كلمتك إلى الأرض فإن الكلأ يخرج شطأه وكلمتك تصَيِّرُ الحظائر بما فيها من قطعان سمينة.

- وكلمتك يتولد منها الصدق والعدالة، وعلى ذلك يتكلم الناس الصدق[٤].

هـذه القصيدة على طولها- كما يقول برستيد- لم تشتمل إلا على سطر واحـد عـن سـلطان القمر من الناحية الخلقية وهو: كلماتك يتولد منها الصدق والعدالة، فقد كانت معنية أساساً عن الكشف عن عمل وسلطان ذلك الإله[٥].

غير أننا يجب أن نشير إلى وجود ألفاظ أخرى تشير إلى الفضائل جاءت في أول القصيد ولم يشر برستيد إليها، وهي: أيها الرب الشفيق الرحيم، "فالرحمة والشفقة" من الفضائل التي تتطلبها ا لحياة الخلقية.

غيـر أن برستيد يلاحظ أن هذه الأنشودة تذكرنا بالمزامير العبرانية مع أنهـا ترجع على ما قبل ظهور الدين العبراني بزمن بعيد[٦]. وبالرغم من عدم ظهـور الأخـلاق في رأي برستيد الذي لم نوافقه عليه، فإن شعب بابل تقدم في معـتقداته فصـار يؤمن أن شماس إله الشمس الذي يمثل عندهم إله العدالة- كما كـانت الشمس تمثل إله العدالة عند المصريين القدماء- كان يبغض السلوك الذي لا يـنطوي عـلى المودة [٧]، والذي يقرأ القصيدة التالية سوف يجد بداية ظهور للحياة الخلقية عند البابليين ممثلةً قي العديد من الألفاظ كما يجد العديد من المبادئ الخـلقية، فالشـرير لـن يفلت من الله ولن يفر منه مخطئ، كما أن الذي يحنث بيميـنه فسوف يعاقب سريعاً، ومن لا يحترم المقدسات فلن يستطيع الفرار، والله منتـبه لمن يرتكب الشر، أو يرفع بصره إلى زوجة رفيقه، كما أن الإنسان وقت المحاكمـة سـوف يقـف وحيداً ولن يستطيعَ أقرب الناس إليه أن يساعده، وأما القاضـي الجائـر فسوف تجعله يرى الأغلال حتى يفيق إلى ضميره، والمرتشي وشاهد الزور فسوف تثقله بالعقاب، أما القاضي العادل فسوف يُمنح مقراً ملكياً [في الجنة طبعاً] . . . الخ. والآن فلتقرأ هذه القصيدة:

---

(٤) برستيد ٣٦٤-٣٦٥
(٥) برستيد ٣٦٤
(٦) برستيد ٣٦٥
(٧) برستيد ٣٦٦

- يا شماس أنت الذي لا يفلت من شباكك شرير.
- ولا يفر من فخك خاطئ.
- أما من يحنث في يمينه فإنك تعجل له العقاب
- ومن لا يحترم كل مقدس فلن يستطيع الفرار منك.
- شباكك العريضة مطروحة لمن يقترف الشر.
- ولمن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه.
- إذا أشهرت سلاحك عليه فلا منجي له.
- فإذا وقف أمام المحكمة فليس في استطاعة أحد مساعدته ولو كان والدَه.
- وليس من يعارض القاضي حتى إخوتَه.
- فهو يُحبس في فخ نحاسي لا مناص منه.
- وأما من يضمر السوء فأنت تحطم قرنه.
- ومن يتحيز إلى المسيء فإن الأرضَ تحت قدميه تميد به.
- . . . .
- والقاضي الجائر تجعله يشاهدُ الأغلال.
- ومن يقبل الرشوة ويلتوي في الحق.
- فإنك تثقله بالعقاب.
- أما من يأبى الرشوة ويتحيزُ إلى جانب الضعيف.
- فإنه يُدخل السرور العظيم على شماس ويعيش طويلاً.
- والقاضي الحذر الذي يقضي بالعدل.
- يُعِدُّ لنفسه قصراً ويكون مثواه مقراً ملكياً.
- كمثل ماء الينبوع الأبدي فيه بذرة لا تنفد.
- لمن يعمل بتقى وطيبة ولا يعرف الغش.
- أما المرء الدنيء العقل، فإنه يسجل (على نفسه) ذلك بالعلم.

- أما الذين يرتكبون الشر، فإن بذرتهم لا بقاء لها[٨].

فالذي يقرأ هذه الأنشودة، لابد أنه سيجد بها مفاهيم ومبادئ خلقية عديدة، فـإذا أضـفنا إلى هذه الأنشودة المزامير البابلية الخاصة بالتوبة والتي تعبر عن شـعور البابـليين المرهف من جهة الخطيئة، علمنا أن الشعب البابلي كان يرنو بعيـنيه ناحيـة الفضـيلة وإن لم يصل فيها إلى النضج الكافي، وذلك قبل ظهور الدين العبراني.

الطهارة والعفة بعد الزواج:

كـان يُسـمح للبابـليين في العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج، ولم يكن يُضَنُّ على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالاً غير مرخص به بـزيجات تجريـبية، تنتهي متى شاء أحد الطرفين[٩]، ولكن متى تم الزواج، تبعه ارغـام شـديد على الاستمساك بالوفاء الزوجي بعده. " وكان القانون ينص على إغـراق الزوجة الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته، فآثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذي لا يكاد يستر شيئاً من جسمها" [١٠].

وفيمـا عدا ذلك فيبدو أن عبادة اشتار "تشير إلى أن المرأة والأمومة كان لهمـا قسط من التبجيل في بلاد بابل، كما تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى على ما كان لها من التبجيل وقتئذ"[١١].

---

(٨) برستيد٣٦٧

(٩) ديورانت ٢٣١/٢

(١٠) ديورانت ٢٣٢/٢

(١١) ديورانت ٢٣٤/٢

العدالة والخير في قانون حمورابي

تطـل عليـنا مـن بداية تاريخ بابل العظيم شخصية قوية هي شخصية حمورابـي (٢١٢٣-٢٠٨١ ق.م) الفاتح المشرّع المحارب العظيم الذي أقام في بـابل منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخي العظيم(١٢). وسوف نورد فيما يلي بعضاً من نصوص هذا القانون لكي نرى ما استهدفه من الفضائل والقيم مـن أمر بنشر العدالة والقضاء على الأشرار. . الخ. يقول حمورابي في مقدمة القوانين:

"ولمـا أن عهد أنو الأعلا ملك الأنوناكي وبل رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم، لما أن عهدا حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك. . . ولما أن يـنطقا باسم بابل الأعلى وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم، وأقاما في وسطه ممـلكة خـالدة أبـد الدهر، قواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض، في ذلك الوقت نـاداني أنو وبل، أنا حمورابي الأمير الأعلى عابد الآلهة، لكي أنشر العدالة في العـالم وأقضي على الأشرار الآثمين وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء، وأنشر الـنور فـي الأرض وأرعى مصـالح الخلق، أنا حمورابي، أنا الذي إختاره بل حاكمـاً والـذي جـاء بالخير والوفرة، والذي أتم كل شيء لنيبور ودريلو . . . والذي وهب الحياة لمدينة أرك، والذي أمد سكانها بالماء الكثير . . . والذي جمل مديـنة بارسـيا، والذي خزن الحب لأوراش العظيم، والذي أعان شعبه في وقت المحـنة، وأمّـن الـناس على أملاكهم في بابل، حاكم الشعب، الخادم الذي تسر أعماله أنونيت"(١٣).

إن هـذه العـبارات التي قرأناها تواً، لتجعل المرء- كما قال ديورانت- يتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقي مستبد عاش عام ٢١٠٠ ق.م. ويعتقد

---

(١٢) ديورانت ٢/١٨٨-١٩٠ (١٣) ديورانت ٢/١٩٠

ديورانــت- ولكــنه لا يجزم- بأن قوانين حمورابي استمدت أصولها من قوانين ســومرية أسبق منها، مضافاً إليها الظروف التي كانت تسود بابل، وهو ما جعل شــريعة حمورابــي شــريعة مركــبة غير متجانسة، ويختتم حمورابي شريعته بالكلمات الآتية:

" إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي، والتي أقام بهــا فــي الأرض دعائم ثابتة، وحكومة طاهرة صالحة . . . أنا الحاكم الحفيظ الأميــن عليها، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد، وبحكمتي قيدتهم حتى لا يظــلم الأقوياء الضعفاء، وحتى تنال العدالةُ اليتيمَ والأرملة . . حقاً أنا حمورابي، حــاكم كالوالد الحق لشعبه. . لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدة الدهر كله، وأقام في الأرض حكومــة طاهرة صالحة. . ولعل المَلِك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل، يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري".[١٤]

هــذا ورغــم أن هذا القانون يعد أقدم تشريع مكتوب فى تاريخ البشرية، لابــد أن نشــير هنا إلى ملاحظة برستيد التي يرى فيها أن المبادئ الخلقية عند البابــليين لــم تنضج النضج الكافي كما كانت ناضجة عند الفراعنة، فلقد وردت الجــرائم والأحكام في هذا القانون، مرتبة حسب الدرجات الاجتماعية التي يشغلها المتقاضون أو المذنبون كما سبق أن أشرنا، فكان الرجل صاحب المنزلة السامية يــنال فيــه رعايــة ظاهرة أكثر من الرجل وضيع الأصل، وقد رأينا في الفصل الســابق أن الحكماء المصريين الأقدمين ووجهاء القوم كانوا يكررون دائماً ذكر عدم اكتراثهم بالفوارق الاجتماعية بين طبقات الناس لدرجة أن الفرعون ذاته نبه عــلى وزيره الأكبر بأن واجبه يقضي عليه بأن لا يظهر احترامه للأفراد بصفة كونهــم أمراء أو مستشارين وهو من أعلى درجات العدالة. غير أن برستيد يغالي كــثيراً بعد ذلك فينفي عن البابليين أي رقي خلقي بسبب هذا القانون فيقول: " أما

---

(١٤) ديورانت ٢/١٩١-١٩٢

عـند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التي هي بعينها الأساس الذي يقوم عليه الـرقي الخـلقي ناقصـة جداً، بل معدومة بالمرة، وعلى ذلك لم تساهم مدينتهم مساهمة جوهرية في تاريخ آسيا الغربية الخلقى" [١٥].

ونحن لا نغالي إلى هذه الدرجة في نفي مساهمة البابليين مساهمة جوهـرية فـي الحيـاة ا لخلقية لغرب آسيا، حقاً لم تصل المبادئ الخلقية عندهم مبـلغها عند قدماء المصريين وفراعنتهم، ولكنها تكفي بالتأكيد لمجتمع يرنو على الأقـل إلى الفضـيلة والخير ويحذر من الشر والرذيلة على النحو الذي عرضناه والذي جاء في تراتيلهم.

---

(١٥) برستيد ٣٦٨

ثانياً: السومريون

مقدمة:

كـــان السومريون- وهم قوم غير ساميين- يعبدون الإله الأعظم شمس، ذلـــك أن الحكومـــة سرعان ما رأت ما في الالتجاء للدين من فوائد سياسية، فلما أصـــبح الآلهة ذوي فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مديـــنة ولكـــل ولاية ولكل نوع من النشاط البشري إله موح مدبر. وكانت كثرة الآلهـــة تســـكن المعابد حيث يقدم لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج. وقـــد عثر في الخرائب السومرية على لوحة نقش عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذور الدينية الغريبة: إن الضأن فداء للحم الآدميين، بها افتدى الإنسان حياته.

ولقـــد أثـــرى الكهـــنة مـــن القـــرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالاً وأعظمهـــا فـــي المـــدن السومرية، وحتى كانوا هم الحكام المتصرفون في معظم الشـــئون، فـــلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس، نهض أورو كاجينا- كما نهـــض لوثر فيما بعد- وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم، ويتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها من الزراع والصيادين ثمرة كدهم، وأفلح وقتاً ما في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين. وســـن القوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تُؤدَّي للمعابد، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز[١٦].

ومـــن المعروف أن الكهنة يدركون احتياج الناس الشديد للدين، والدين لا يـــنمو ويزدهر إلا بالأساطير والناس لا يترددون في أن يؤدوا أغلى الأثمان لكي يعـــودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم بعد موت كاجينا. ولقد استنتج ديورانت أن

---

(١٦) ديورانت ٢/٢٩-٣٠

السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة لأن الطعام والأدوات كانت توضع مع الموتى في القبور، ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلد قد استقرت بعد في عقولهم، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً في الحياة الخالدة، بل كانوا يتقدمون بها طمعاً في النِعَم المادية الملموسة في الحياة الدنيا(*)[١٧]. والآن لنلقِ نظرة على فضائلهم وقيمهم:

العدالة والخير والعفة:

ربما يكون قد وضح من المقدمة السالفة أن الدين لم يكن ذا تأثير كبير على الأخلاق عند السومرين، وأن الفضائل والقيم لديهم، كانت عبارة عن تشوف لحياة أفضل، فكما رأينا فإن أورو كاجينا المصلح الاجتماعي كان يعرف "العدالة" ويحاول تطبيقها على الرعية، كما يعرف أن "الرشوة" سلوك رذيل فحاول تخليص الشعب منها ومن الفساد عموماً خاصة ذلك الذي استشرى بين الكهنة. ومع ذلك لا يمكن تجريد الدين من كل مساهمة في الأخلاق، فمن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين من نبل في التعبير والتفكير، ذلك الدعاء الصوفي الذي يتضرع به الملك جوديا للإلهة (بو) راعية لكش ونصيرتها:

- أي ملكتي ، أيتها الأم التي شيدت لكش.
- إن الذين تلاحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان.
- والعابد الذي تنظرين إليه تطول حياته.
- أنا ليس لي أم فأنتِ أمي.
- وليس لي أب فأنتِ أبي.
- أي إلهتي (بو) إن عندك علم الخير.

(*) يرى ديورانت أن هذا الدين هو أول الأديان التي عرفها التاريخ ولكنه لم يثبت ذلك تاريخياً.

(١٧) ديورانت ٢/٣٠

- وأنت التي وهبتني أنفاس الحياة [١٨].

مــن هذه الأنشودة يتضح لنا معرفة الملك جوديا "للخير" وهو يطلبه من إلهته (بــو).

وكــان الســومريون يعرفون فضيلة "العفة". غير أن العفة كانت فضيلة ينبغي أن تتحلى بها المرأة في المقام الأول. يقول ديورانت "كان الحكم الأخلاقي على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقي للمرأة حتى في ذلك العهد السحيق، وكان ذلـك نتيجة لازمة لاختلافهما في شئون الملكية والوراثة. فزنى الرجل كان يعد من النزوات التي يمكن الصفح عنها، أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام" [١٩].

---

(١٨) ديورانت ٢/٣١-٣٢

(١٩) ديورانت ٢/٣٢-٣٣

ثالثاً: الآشوريون

مقدمة:

ترجع أقدم آثار آشور إلى عام ٣٧٠٠ ق.م. ولقد اضطر أهل البلاد التي نشـأت فيهـا هذه الحضارة أن يحيوا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبـلية التي كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات، وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين، واستولوا على المدن التي كانت مهدهم الأول في عيلام وسومر وأكد وبـابل، وتغلـبوا على فينيقية ومصر، وظلوا مائتي عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشـية عـلى بلاد الشرق الأدنى، وكانت عاصمة ملكهم هي مدينة آشور ثم نقلت إلى نينوي في الشمال لاعتدال جوها[٢٠].

والحقيقـة أن الذي يقرأ التاريخ العسكري للأشوريين، سوف يجده تاريخاً مليـئاً بالقسـوة المبالغ فيها، خاصة معاملتهم للأسرى وهم أحياء معاملة جهنمية قـبل قتـلهم، وسوف نضرب صفحاً عما كانوا يفعلونه مع هؤلاء الأسرى، كما ضـربنا صفحاً عن رذائل كافة الشعوب التي درسنا فضائلها وقيمها، ولكنا نشير فقـط إلى ملاحظـة ديورانت عن هذه القسوة حيث يقول: "ويلوح أن القوم- أي الآشـوريين- لم يكونوا يشعرون بشيء من وخز الضمير، وهم يسرفون في اتلاف الحيـاة البشرية بهذه الطرق الجهنمية"[٢١]، ويمكن القول بصفة عامة أن الحرب، ومـا يتـبعها مـن سلب ونهب كانت ذات أهمية قصوى للمجتمعات القديمة ذات الصبغة العسكرية وأن هذه المجتمعات كانت تثيب على كل ذلك[٢٢].

أما عن الدين عند الآشوريين، فكما يقول ديورانت لم يكن له أثر قط في تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية، وأنه كان يكيف نفسه حسب حاجات الملوك

---

(٢٠) ديورانت ٢/٢٦٤-٢٦٥ (٢١) ديورانت ٢/٢٧٤-٢٧٥

(٢٢) انظر زكريا [أ] ١٠٤

وأذواقهــم، وكـــان آشور إلههم القومي من آلهة الشمس ذا روح حربية، لا يشفق عــلى أعدائه، وكان عُبادة يعتقدون أنه يغتبط برؤية الأسرى يقتلون أمام مزاره، وكـــان العمل الجوهري الذي تؤديه الديانة الآشورية هو تدريب مُواطن المستقبل عــلى الطاعـــة الـــتي تتطلبها منه وطنيته، وأن تعلمه مداهنة الآلهة لكسب ودهم بضروب من السحر والقرابين.(٢٣)

العفة والخير وكراهية الشر

عـــلى أن الآشـــوريين- رغم كل ذلك- لم يكونوا مجردين تماماً من كل فضـــيلة، فكانت ديانتهم- مثل معظم الديانات- تهتم بمشكلة الخير والشر، فكانوا يؤمـــنون بإله للخير وإله للشر، وهناك معركة بينهما. يقول ديورانت يصف الفن الآشـــوري "على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدها إلى آشور بانيبال الثاني، وهـــي مـــن المرمـــر الـــنقي، وتمـــثل مردك إله الخير يهزم نيامات الخبيث إله الفوضى" (٢٤).

وأمـــا عن فضيلة العفة، فلم تكن من متطلبات الآشوريين الرجال، ولكنها مطلوبة حتماً بالنسبة للنساء " فلم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن على الطريق العـــام بغير حجاب، وكان يطلب منهن أن يكنَّ جد أمينات على أعراضهن، وإن كـــان يسمح لأزواجهن أن يتخذوا لهم ما يشاءون من السراري، وكان البغاء يعد في عرفهم أمراً لابد منه وتنظمه القوانين".(٢٥)

أمـــا الزنا للمتزوجين، فإنه كان يسمح للزوج أن يقتل الذي زنى بزوجته إذا ضـــبطه متلبســـاً(٢٦). وفيما عدا ما سبق ، نكاد لا نجد فضائل أو قيم أخرى لدى الآشوريين ٠

---

(٢٣) ديورانت ٢/٢٨٢-٢٨٣

(٢٤) ديورانت ٢/٢٨٧

(٢٥) ديورانت ٢/٢٨١

(٢٦) ديورانت ٢/٢٨١

عـــلى أي حـــال فقد كان لدى البابليين والسومريين والآشوريين فضائلهم وقيمهـــم، فالبابليون يدركون من أنشودتهم التي أوردنا طرفاً منها الرحمة والشفقة والصـــدق والعدالـــة. وهذه الأنشودة بالذات قيلت قبل ظهور الدين العبراني كما رأينا، ولقد كان الإله شماس في أنشودة أخرى هو إله العدالة الذي يبغض السلوك الذي لا ينطوي على المودة ولا يفلت الشرير من شباكه. أما من يحنث في يمينه فـــإن شـــماس يعجل له نهايته هو ومن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه، والقاضي الجائر سوف يشاهد الأغلال، وأما من يقبل الرشوة ويلتوي في الحق فإنك تثقله بالغضب . . . الخ، ولقد رأينا كذلك أن البابليين يطلبون الطهارة والعفاف للنساء بعد الزواج، ولقد رأينا قانون حامورابي، وإن كان لم يصل إلى حد المساواة بين الـــناس، ومع ذلك فهو لا يخلو من الكثير من الفضائل، فبحكمتهمنع الأقوياء من ظلم الضعفاء وطالت عدالته اليتيم والأرملة.

والســـومريون كانت لهم أيضاً فضائلهم وقيمهم فلقد رأينا أن أورو كاجينا المصـــلح الاجتماعي كان يعرف العدالة ويحاول تطبيقها على شعبه وأنه حارب الرشوة التي انتشرت بين الكهنة، وهاهو جوديا يطلب "الخير" من الإلهة (بـــو)، كمـــا أن الســـومريين كانوا يعرفون فضيلة العفة وإن كانت خاصة بالنساء دون الرجال.

أما الآشوريون فهم كدولة محاربة تحيط بها الأعداء كانت فضائلهم- إن جـــاز هـــذا التعـــبير- مركزة على القسوة في معاملة الأعداء والتنكيل بهم إذ أن آشور إلههم كان يغتبط بهذه القسوة، ومع ذلك كانت ديانتهم تهتم بمشكلتي الخير والشـــر وجعـــلت لكـــل منهما إلاهاً، ولقد اهتموا أيضاً بفضيلة العفة التي كانت مطـــلوبة حـــتماً للنســـاء. وكل هذه الفضائل والقيم خاصة البابلية، مارستها هذه الأقوام قبل نزول الدين العبراني، وهي تتفق كثيراً مع الفضائل والقيم التي جاءت فيما بعد في الأديان الإلهيـــة على النحو الذي نعرفه، فيما عدا القسوة المبالغ فيها

عـــند الآشـــوريين، فقد خلت الأديان الإلهيـــة منها بالصورة التي وجدت بها عند الآشوريين. وننتقل الآن إلى الفرس لنرى فضائلهم وقيمهم .

الفصل الرابع

الفضائل والقيم لدى الفرس

انتشـــرت فـــي بـــلاد الفـــرس (إيـــران) عقائد ونحل عديدة أهمها هي الزرادشـــتية والمانويـــة، وهـــناك عقائد أخرى أقل أهمية مثل المزدكية وغيرها. ويكـــاد يكـــون مـــن المســـلم بـــه أنه لا يوجد في إيران شيء معروف لنا قبل الزرادشـــتية حيث أن النصوص القديمة تعود فقط إلى زرادشت نفسه[1]. وسوف نتحدث فيما يلي عن الزرادشتية والمانوية.

---

(١) زرادشت ١٤

أولاً: الزرادشتية

مقدمة:

حيـــن بلغ زرادشت الثلاثين- كما يقول الشهر ستاني بعثه الله تعالى نبياً ورسولاً إلى الخلق(*) فدعى كشتاسب(**) الملك فاجابه إلى دينه، وكان دينه عبادة الله، والكفـــر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث(٢)! وواضـــح "أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث " كل ذلك يمثل الجانب السلوكي في عقيدة زرادشت، وأنها جميعاً من الفضائل، وهذا يؤذن بـــأن الفضـــائل والقيم عند زراشت مرتبطة بالدين، وسوف نرى تأييداً لذلك بعد قليل.

ويـــرى الزرادشـــتيون أن النور والظلمة أصلان متضادان، وأن الباري تعـــالى خـــالق الـــنور والظلمة ومبدعهما، وهو لا شريك له ولا ضد ولا نِد، ولا يجـــوز أن ينسب إليه وجود الظلمة(٣)، وعلى ذلك لا يُعتبر زرادشت من الثنوية، أي الذين يقولون بأصليين للوجود. ويعتقد زرادشت أن الله يتكون من ثلاثة أقانيم هـــي: الـــرب الحكيم والحق والعقل الخيِّر(٤). ويقال إن زرادشت له كتاب اسمه (زند أوستا)(٥). ومنه جاء وصف أصحاب زرادشت بالزنادقة، أي أصحاب كتاب الزند. والزرادشتيون كما يقول الشهر ستاني من الذين يؤمنون بالرجعة مثل كثير من الفرق وظهور رجل يملأ العالم عدلاً ويميت الجور(٦).

(*) لـــم يصرح زرادشت نفسه أنه نبي أو رسول من عند الله في المصادر التي لدينا. وربما اتباعه هم الذين قالوا ذلك.

(**) ترجمها الدكتور فيليب عطية فشتاسب (٧)

(٢) الشهر ستاني ١٩٢ — (٣) الشهر ستاني ١٩٢

(٤) زرادشت ١٩ — (٥) الشهر ستني ١٩٣

(٦) الشهر ستاني ١٩٤ — (٧) زرادشت ١١

ومـــن ارتباط ديانة زرادشت بالفضائل والقيم ما عرضه برستيد في كتابه فجــر الضـــمير. فمذهــب زرادشت(*) يصنف الحياة الخلقية تصنيفاً واضحاً إلى الخيــر والشــر، فهو مذهب مزدوج يدعو كل إنسان أن يقف إلى جانب قوة من اثــنين؛ فإما أن يملأ روحه بالخير والنور، وإما أن يخلد إلى الشر والظلمة. وقد مثــلت هذه القوى جميعاً في كائنات حية، وأي طريقة منهما يسلكها الإنسان، لابد أن ينــتظر بعد موته حساباً عنها في عالم الآخرة، وأما ظهور فكرة الحساب في الآخــرة، وهــو شيء لم يعرف في آسيا الغربية قبل زرادشت، فقد أوجد نظرية قوية بأن زرادشت قد أخذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية القديمة، والدليل عــلى ذلك فهو هذا النقش الذي شاهده برستيد على أحد أعمدة قصر قورش في بازرجــادة، يمــثل صورة إنسان طويل القامة في شكل أحد أنصاف الآلهة، له زوجان من الأجنحة المنتشرة في وضع رائع، وفوق رأس الصورة المجنحة كان يعــلوها تاج أوزير إله الحساب المصري في عالم الآخرة عند قدماء المصريين، وعــلى ذلــك يكــاد يكون من الأمور التي لا شك فيها- كما يقول برستيد- أن المحاكمة الزرادشتية في الآخرة، مأخوذة من قدماء المصريين(٨).

فإذا دققنا في الفضائل والقيم عند زرادشت في المصادر التي أتيحت لنا، وجدناهــا ذات صــبغة مجردة أي أنه حينما يتحدث عن الخير، فإنه يتحدث عنه بصــفة عامــة، دون أن يتحدث عن وجوه هذا الخير بالتحديد كالصدق والأمانة والــبر بالوالدين والإحسان للضعفاء. . وهكذا، وهو كذلك حين يتحدث عن الشر لا يذكــر له أمثــلة جزئية، على عكس المصريين القدماء وفراعنتهم الذين حثوا على فعل الخير بالتفصيل، وسوف نجد هذا الاتجاه، أي الحديث عن الخير بصفة عامة غالباً عند الهندوس والبوذيين وفلاسفة اليونان والرومان. والآن لنلق نظرة

(*) يطلق عليه أحياناً اسم زرروستر

(٨) برستيد ٣٦٩-٣٧٠

على الفضائل والقيم عند زرادشت من خلال ابتهالاته، وهو المصدر الوحيد الذي أتيح لي لعرض الفضائل والقيم عند زرادشت:

ابتهالات زرادشت:

فـــي هــذه الابــتهالات التي يقر فيها زرادشت مراراً بقوة الله وعظمته، يطلب فيها العون من الله أن يساعده على نشر الخير والانتصار مع زرادشت هو واتباعه على الشر. يقول زرادشت مبتهلاً.

- دعوا روح الشر تخمد واقضوا على الفساد.
- أنتم يا من تصونون أنفسكم بواسطة الاستقامة.
- جائزة العقل الخيِّر الذي رفيقه الرجل المقدس.
- من سيكون مسكنه في منزلك أيها الرب[٩].

ففـــي هــذه الابتهالات يدعو زرادشت اتباعه الذين يتمسكون بالاستقامة والفضــيلة، أن يــتركوا روح الشــر تخمد وتنطفئ، وأن يحاربوا الفساد للقضاء عــليه، ومن يلبي هذا النداء سيكون جزاؤه أن يكون مسكنه في الجنة مع الرب. وفي نفس الترنيمة يقول زرادشت:

- هؤلاء هم المخلصون المقبلون للناس.
- الذين يناضلون بأفعالهم بتعضيد العقل الخيِّر.
- لينفذوا الحكم الذي به قضيتَ[١٠].

فهــؤلاء الذيــن ســيواجهون الشر، هم المخلصون للرب، والذين يحبون الناس ويناضلون بأفعالهم لتعضيد العقل الخير، وهو الأقنوم الثالث للإله.

وفي ابتهال آخر يقول زرادشت:

- هذا الذي ينتمي إلى الأسرة أو القرية أو القبيلة أيها الرب.

---

(٩) رزادشت ٤٠-٤١

(١٠) زرادشت ٤٢

- ويصنع نعمة لرجل الصلاح أو يكد في رعاية القطيع.
- سيصير في مرعى الحق والعقل الخير(١١).

فهـذا المناضـل الذي ينتمي إلى المجتمع، ويقدم الخير للإنسان الصالح الـتقي، أو يكـد لرعاية باقي الناس، سوف يتمتع بالتأكيد بالبقاء في مرعى الحق والعقل الخيِّر وهو ما يعرف في أديان أخرى "بالجنة".

ثم يقول زرادشت في ترنيمة أخرى:

- الأتقياء الذين وجدتهم مستحقين بسبب عدلهم وعقلهم الخير.
- لبِّ رغبتهم أيها الرب الحكيم. اجعلهم يحصلون عليها.
- أعرف أن كلمات الصلاة التي تخدم الخير تلقى القبول أمامك(١٢).

فهـؤلاء المناضـلون الأتقياء الذين يستحقون عطاءك أيها الرب الحكيم، سـوف تلـبي طلباتهم، وأنا متأكد أن الابتهالات التي تسخر للخير لابد أن تلقي رضاءك.

ثم يخاطب زرادشت اتباعه قائلاً:

- لا تدع شيئاً منك يلتفت إلى كلمات أو تعاليم الشرير.
- لأنه يأتي بالمنزل والعشيرة والمقاطعة والبلاد إلى البؤس والخراب.
- ادفعه عنك بالسلاح (١٣) .

فهو يطالب أتباعه أن لا يلتفتوا إلى الأشرار ، ولا إلى غـوايتهم ، لأن هدفهم هو خراب كل شئ : المنزل والعشيرة والمقاطعة والبلاد جميعا ، ويجـب أن تقاومَهم بقوة السلاح .وربما كانت هذه هى المرة الوحيدة التى قابلتنا ويحث فيها ذرو الأديان الإنسانية أتباعهم على استخدام العنف دفاعا عن النفس. ثم ينبه زرادشت مريديه على الواجب عليهم إذا تُركت لهم حرية الاختيار :

- سيادة الخير يجب أن تكون اختيار الإنسان.

---

(١١) زرادشت ٥٥ (١٢) زرادشت ٨٩ (١٣) زرادشت ١١٦

- إنها تجلب النصيب الثمين لمن عمل بحماس.
- من خلال الحق سوف يحصل على الخير الأسمى.
- نظير أعماله أيها الرب الحكيم(١٤).

أي أننا إذا تركت لنا حرية الاختيار، ينبغي أن لا نختار سوى "سيادة الخير"، فهذا الطريق سوف يجلب السعادة لمن يعمل فيه بجد واجتهاد، وسوف يحصل الذي يسير فيه على نصيبه بمعرفة الحق (أي الله) حيث يحصل على الخير الأسمى من الرب الحكيم.

---

(١٤) زرادشت ١٤٥

ثانياً: المانوية

وهـــم أصـــحاب مـــاني بن فاتك، وهو حكيم ظهر في زمان سابور بن أردشـــير، وكـــان يرى أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان ولم يزالا ولن يزالا [١٥].

ولـــلمانوية تفســـير لـــلوجود، فقالوا إن الوجود وجد لما امتزج النور مع الظـــلمة. وجميـــع أجـــزاء النور أبداً في الصعود والارتفاع، وأجزاء الظلمة في الـــنزول والتسفل حتى تتخلص الأجزاء من الأجزاء، ويبطل الامتزاج، وذلك هو القيامـــة والمَعَاد. ومما يعين على التخليص والتمييز ورفع أجزاء النور، التسبيح والتقديس والكلام الطيب وأعمال البر [١٦].

ولقـــد فـــرض مـــاني على أصحابه العُشر في الأموال كلها، والصلوات الأربـــع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق وترك الكذب والقتل والزنا والسرقة والـــبخل والسحر وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله [١٧].

وكافة هذه الفضائل والقيم جاءت محددة، وهي وإن كانت موجزة في هذا المصـــدر، إلا أن الوصـــية الأخيـــرة، وهو أن يمتنع الإنسان أن يمس روحاً من الأرواح بما يكره أن يمسه شخصياً، فإنها تمثل قاعدة أساسية في الأخلاق كما هو معروف ، وهي قاعدة شاملة تشمل الكائنات الحية جميعاً.

هـــذا، ولـــم تكـــن الدعـــوة إلى الفضائل والقيم عند الفرس وقفـــاً على الحكمـــاء وأصـــحاب العقائد فقط، بل إننا قد نجد ما يثبت أن الملوك أيضاً كانوا يدعون إلى الفضائل، فلقد اكتشف العالم ارنست هرزفيلد Ernest Hersfield

---

(١٥) الشهر ستاني ١٩٨

(١٦) الشهر ستاني ٢٠٠

(١٧) الشهر ستاني ٢٠١

نقشـــاً يحتوي على بيان خلقي، وعلى المثل الأعلا للسلوك، إذ يقول الملك دارا مثلاً في هذا النقش:

- لقد أحببتُ الصواب و أما الخطأ فلم أحبه.
- وكانت إرادتي عدم ارتكاب أي ظلم ضد أية أرملة أو يتيم.
- ولم تكن إرادتي أن يحيق ظلمٌ باليتامى والأرامل.
- ولقد عاقبت الكاذب عقاباً صارماً.
- وأما الذي يكد فقد كافأته مكافأة حسنة(١٨).

فهذا أحد ملوك الفرس، وهو يعبر عن الأخلاق والمثل العليا في الدولة، يعلن عن الملأ أنه قد أحب الصواب ولم يحب الخطأ، وكان يريد دائماً أن يكون بمـــنأى عـــن الظلم، خاصة ذلك الظلم الذي يوجه للأرامل واليتامى، وهو يكره الكـــذب أيضـــاً ويعاقب عليه عقاباً شديداً، كما أنه يشجع الذي يكد ويخلص في عمله، حتى يدفع الآخرين إلى تقليده، وكل ذلك حث على الفضائل.

من كل ما سبق نستطيع القول أن الفرس، قد ادركوا الكثير من الفضائل والقـــيم، فقد دعوا في عقيدة زرادشت إلى اخماد روح الشر، وعرفوا الاستقامة، كمـــا عرفوا الحق والخير والحكمة وهي جميعاً أقانيم الله تعالى الثلاثة، وعرفوا الإخـــلاص والصلاح والتقى، كما عرفوا العدل والخير الأسمى. كما عرفوا من المانويـــة كثـــيراً أيضاً من الفضائل والقيم، فعرفوا الكلام الطيب وأعمال البر، ودعـــوا إلى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة، كما دعوا إلى العفة والبعد عن الـــزنا، وأخـــيراً توصل ماني ابن فاتك إلى القاعدة الأخلاقية الهامة وهي أن لا يأتي الإنسان على ذي روح ما يكره أن يؤتي إليه بمثله وكافة هذه الفضائل مما جاء بالأديان الإلهيـــة. وننتقل الآن إلى الهندوس لكى نرى فضائلهم وقيمهم .

---

(١٨) برستيد ٣٧

الفصل الخامس

الفضائل والقيم لدى الهندوس

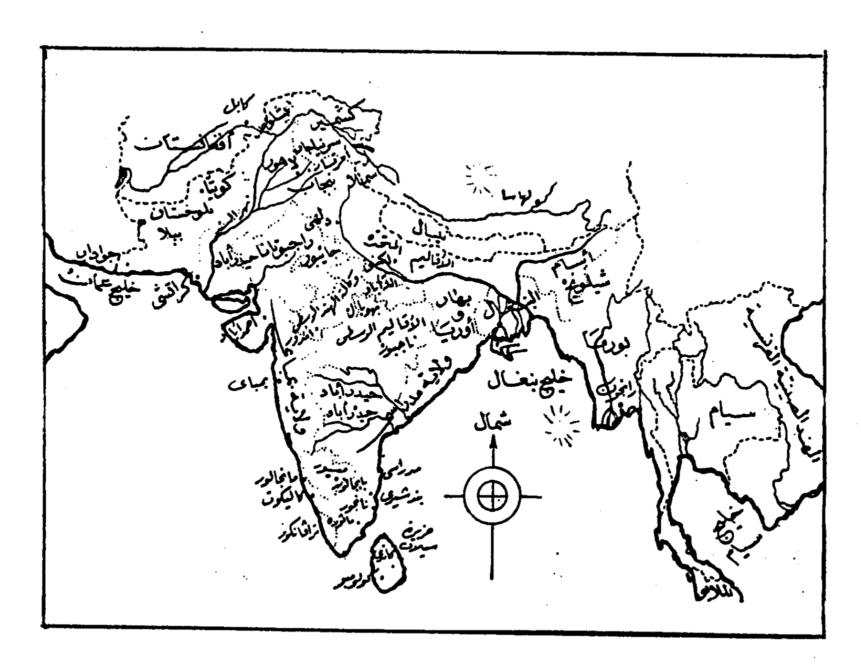
مقدمة

يعتبر بعض أتباع الهندوكية المعاصرين أن الهندوكية دينٌ إلهي وصل لأنبيائهم وحياً وإلهاماً، غير أن المؤلف نجومان أحد كتاب الهندوكية يقول عن حكمائها: "إن هؤلاء الملهمين قد رأوا الحقيقة بنور البصيرة وشفافية الروح لأنهم هم العارفون للحق وهم الطاهرون الأنقياء، فأخرجوا مشاهداتهم الوجدانية في صورة كتب هي كتب الويدا، ولهذا فإن كتب الويدا قد أُلحقت بأسماء هؤلاء الملهمين"(١). هذا النص لا يعني أن الهندوكية قد نزلت وحياً، وإن اعتقد بعض أتباعها ذلك ، بل بمجهود صوفى من حكمائها الأطهار؛ ولقد قرر الشهرستانى أن البراهمة [الهندوكيين] " هم المخصوصون بنفى النبوات أصلا ورأسا "(٢).

ومع ذلك فلا يمنع هذا أن يكون بعض الحكماء من أى شعب من الشعوب قد أُوحِى لهم رغم أنهم لم يُذكَروا بالكتب السماوية، فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: (ولقد أرسلنا رسلا من قبلِك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصصْ عليك) (غافر-٧٨) . غير أنه لم يتناه إلينا أن حكيما هندوكيا ، أو حتى أىَّ حكيمٍ من شعب من الشعوب التى قدمناها قال مثلا : إن اللهَ قد أرسلنى لأقول لكم كذا ، أو إن اللهَ قد أوحى إلىَّ بكذا،مع أنه مكلف بهذا الإبلاغ حتى يحيى من حَيِىَ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. هكذا قال فقهاء الإسلام من المعتزلة . ولذلك فقد اعتبرنا أن الهندوكية وسائر الأديان التى قدمناها فى هذا الكتاب من الأديان الإنسانية كما جاء بمقدمة الطبعة الثانية.

---

(١) رؤوف ١٠٠ (٢) الشهر ستاني ٤٠٣



خريطة حديثة للهند

ظهور المبادئ الخلقية في الديانة الهندوكية:

إن أول ظهـور للمـبادئ الخـلقية عند الهندوس، يقابلنا في الأصل الديني للعقيدة الهندوكية ذاتها، فسانج هيانج هو "الله" وله صفة السلطان والقدرة، وهو الخالق المبدع والحافظ والمنعم، وهو الله الواحد المتعدد الصفات وهو:

براهما Brahma - فشنو Wisnu- سيفا Ciwa

فـبرهما هـو نفسـه سانج هيانج Sang Hyang ووظيفته أنه الخالق، وفشنو هو الحافظ والرحيم والعطوف أما سيفا فهو المهلك للعالم[٣].

وهـنا نلاحـظ أن (فشنو) وهو أحد صفات الله قد وجد من أجل الرحمة والعطف، وهما فضيلتان خلقيتان.

ثم تقابلنا فضيلتا "الحق والعدل" بعد ذلك عند تفسير المؤلف باج واداجيتا Bhag Wadagita لظهور (الحق) أي الله. يقول المؤلف: "عندما كان الحق في حاجـة إلى الظهـور عمـت الفوضى والسيئات ونزل الإله من أجل إقامة العدل والحق"[٤].

ولا شـك أن إقامـة العـدل والحق هو من أهم الفضائل، ثم ظهرت لنا فضـيلة أخـرى للإلـه فشـنو، فهـو الذي جاء لتحطيم الفساد الذي يظهر في المجتمعات، ويحافظ على الخير. وهناك عشرة آلهة أخرى [صغرى] منها:

كريشنا Krishna
راما Rama
بودا Budha
كاليكي Kaliki

وكريشنا فقد جاء من أجل إحلال السلام، أما بودا وهو آخر الآلهة،

---

(٣) رؤوف ١٠٤ (٤) رؤوف ١٠٦

فقد جاء ليعلم الناس الخير والطمأنينة[٥].

وهكـــذا تكـــون بذور الفضائل عندهم قد ظهرت في البشرية من كائنات ســماوية، وليســت من خلق الإنسان، وإن كانت في الأصل من وضع المبشرين بهذه الديانة من البشر.

ومن الملاحظ أن السعادة. وهي هدف أصيل للهندوس لا يُتحصل عليها إلا بـــالعمل المضـــني الشاق، ولا تظنن أن المقصود هنا هو العمل في المصانع والحقـــول، أو فـــي قضاء حوائجنا، ولكن المقصود به هو ممارسة اليوجا. وأما عن هذه اليوجا- كما يقول الدكتور رؤف شلبي:

أولاً: الاتصال بالله مع الوحدة معه.

ثانياً: العمل على الحصول على Jnana بأسلوب العبادة الخالصة وفعل الخيرات.

ثالثاً: أن يفعل المثل العليا دون انتظار شكر من الناس.

رابعاً: أن يعيش زاهداً Tapa آمناً خاشعاً متبتلاً، وهي بلغتهم راجا يوجا Raga Yoga. بعد ذلك يحدث الخلاص.

والآن لنـــتحدث عن فضائل الهندوس وقيمهم بشيء من التفصيل بعد أن تبين لنا ارتباط الفضائل والقيم لدى الهندوس بعقيدتهم الدينية.

الفضيلة:

مـــن اللافـــت للنظر في العقيدة الهندوكية أنه من فرط اهتمامها بالفضيلة والشـــرف، خصصـــت طـــبقة من طبقات المجتمع هي طبقة الكاستريا Kastria وهـــي طـــبقة المحـــبين للوطن، المدافعين عن الزمار العاملين من أجل الرخاء، المجـــاهدين مـــن أجل الشرف وحماية الفضينة وإشاعة الوئام، إنهم القادة للأمة

---

(٥) رؤوف ١٠٦

والـــرعية"[٦] ويلاحظ أن "الفضيلة" هنا هدف عام في حد ذاته تندرج تحته فضائل أخرى سوف تتضح لنا تباعاً.

الفكر الصالح مدخل لعدد من الفضائل:

يمثل الفكر الصالح في الهندوكية مدخلاً هاماً للفضائل والقيم، والحقيقة أن فضـــيلة "الفكر الصالح" هي فضيلة عامة أيضاً، تترك للمريد مهمة تحديد هذا الفكر، وتلقي بالمسئولية الخلقية على عاتقه، وهذا يعني مسئوليته الأخلاقية، وأنه حـــر مسئول عن أعماله، كما تعني ضمناً أن الإنسان يمتلك حاسة خلقية اكتسبها من المجتمع.

والفكر الصالح له أسس ثلاثة تجعله أكثر تحديداً هي:

١- " لا تؤجل [لا تؤمل] ولا ترغب في أي شيء ليس حلالا.

٢- لا نفكر بسوء أو بشر نحو أي من البشر.

٣- لا ننكر الثواب الذي يدخره الله للصالحين "[٧].

ولكـــن الفكـــر قـــد يؤدي إلى الحديث بعد ذلك، فينبغي عندئذ أن يكون الحديث صالحاً أيضاً وأسسه هي:

١- "عدم محبة الشتائم.

٢- عدم محبة الألفاظ النابية.

٣- عدم محبة الفتنة.

٤- لا ينكر الوعد ولا يخلفه"[٨].

---

(٦) رؤوف ١٢٥

(٧) رؤوف ١٣٣ (٨) رؤوف ١٣٣

العمل الصالح

ومـــن الفضائل في الهندوكية "العمل الصالح"، إذ من العقيدة الهندوكية أن الله قــد أودع في كل امرئ نفساً أوروحا تسمي (آتما) Atma ، وهذه النفس من الــبدن بمنزلة السائق من العربة، وأصل هذه النفس من براهما Sang Hayang لذلــك لا يعــتريها الفســاد. وطبقاً لعقيدة كارما فإنه عند الموت يجب أن يحرق الجســد مــع الــروح، أما الروح فهي أبدية باقية، وحسب أعمال صاحبها تنال الجزاء، فهي إما في الجنة وإما في النار[٩].

وبعــد أن تــنال الروح نصيبها من النار أو من النعيم لا تستقر هناك بل تولــد من جديد، وتظل هكذا مراراً حتى تعرف حقيقتها فتتفرد بذاتها لإلهها، وهنا تتخــلص من مسئولياتها الدنيوية وتعود إلى ربها في عالم البهجة والسعادة حيث تتحد مع الإله وهذا هو المأرب الأخير للروح[١٠].

فالأعمال الخيرة جزاؤها لابد أن يكون خيراً وخلوداً، والأعمال الشريرة لا بــد وأن يكــون جــزاؤها مثلها شراً ومقتاً. ولهذا فكما يقول الدكتور رؤوف شــلبي، فإن فكرة الخير والشر هذه تدفع الإنسان الهندوكي إلى أن يحرص دائماً عــلى أن يــربط كــل تصــرفاته بفعل الخير وأن يبعد على كل ما يفسد الخلق والسلوك والحياة[١١].

الوفاء والطهارة والرقة في معاملة النساء:

وأول مـــا يوجد الوفاء في العقيدة الهندوكية هو أن يوجه هذا الوفاء إلى الله الخالق، فالله قد أحب البشر ولذلك خلقهم، ولكنه لم يتركهم هكذا بل أرسل لهم

---

(٩) رؤوف ١٠٨-١٠٩ (١٠) رؤوف ١٠٩-١١٠

(١١) ورؤف ١١٢

الرســل مــزودين بالمعرفة، والتعاليم التي جاءت في كتبه: الويدات. وعلى ذلك فعلى الناس الاعتراف بهذا الجميل، فنرد للإله الشكر لنعمته في صورة تكريم ورعايــة المقدســات والأطهــار من القديسين والملهمين، ولن ندخل في تفاصيل الوســائل المتــبعة لرد الجميل لأنها وسائل عبادية، غير أن إحدى هذه الوسائل، احــتوت عــلى بعــض الفضائل وهي تلك التي تدعوا إلى "الثناء على الأرواح الطاهــرة والعمــل على طهارة النفس وحفظ العرض والنسل، والتمسك بنصائح هؤلاء الملهمين مع الإخلاص والتضرع والخشوع"(١٢).

والــذي يهمنا هنا هو وجود فكرة الوفاء، وإن كان هذا الوفاء موجه للإله الخالق وليس للإنسان.

أما بالنسبة للنساء، فقد كان لهن عند الهندوس مكانة خاصة، إذ أن تشريع مــانو- كمــا يقــول ديورانت- يحتوي على فقرات توحي بالرفق المستنير في معامــلة النساء: " فلا يجوز ضربهن حتى بزهرة"(١٣). وبإزاء شريعة مانو هذه، أرجــو أن يأذن لي القارئ في التحرر قليلاً من قيود المنهج الوصفي لأعبر عن بــالغ تقديــري واحترامي لتلك القيمة الرفيعة، التي بلغت درجة عالية في رقتها ونبلها.

التسامح والبر بالفقراء والعدل والرحمة :

ومن فضائل الهندوس أيضاً كالتسامح والإحسان والبر بالفقراء وغير ذلــك، مــا يرويه لنا يوان تشوانج، وهو من أشهر البوذيين الصينيين، إن هارشا أحــد مــلوك الهند كان يعلن كل خمسة أعوام عن حفل عظيم لأعمال البر، كان يدعــو إليــه كــل أصــحاب الديانات على اختلافها، كما يدعو إليه كل الفقراء والمعوزيــن في مملكته، وكانت عادته في هذا الاجتماع أن يُحسن على ملأ من

---

(١٢) رؤوف ١٢١-١٢٢

(١٣) ديورانت ٣/١٨٠

الـناس بكل الفائض عن حاجته في خزانة الدولة منذ الاحتفال الخمسي الماضي، ولكـم دهـش يوانج لما رأى مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والنقود والجواهر والأثـواب الدقيقة النسيج، والغلالات الموشاة، مكدساً أكواماً في ميدان مكشوف يحيـط به عشرات من الأروقة يضم كل منها ألف شخص، وكانت الأيام الثلاثة الأولى تخصص للطقوس الدينية، ثم يبدأ توزيع الصدقات في اليوم الرابع، وكانوا فـي ذلـك الحفل يطعمون عشرة آلاف من الرهبان البوذيين، ويقدمون لكل منهم لؤلـؤة وثياباً وأزهاراً وعطوراً ومائة قطعة من الذهب، وبعدئذ يعطون البراهمة مـن الصـدقات مـا يكاد يبلغ هذا المقدار، ثم يعطون الجانتبين [إحدى الطوائف المعارضـة للهـندوكية] صدقاتهم وبعد ذلك يحسنون على الفقراء واليتامى الذين جاءوا من كل ركن من أركان المملكة من غير رجال الدين(١٤).

وإذا كـان ديورانت يشك بعض الشك في هذا الخبر وله الحق في ذلك، فـإن ذلـك لا يعـني أنه عارٍ تماماً من الصحة، بل يعني أنه قد يتسم بشيء من المـبالغة ولا بـأس أن يقوم القارئ بمجهود إضافي في تقدير ماهية هذه المبالغة وموضعها.

وإذا كانت القسوةُ صفةً لبعض شعوب وملوك العصور القديمة، ومع ذلك فـإن المـلك كرشنا رايا الهندي، كان من الملوك الذين خرجوا عن هذه القاعدة، لأنـك- كمـا يقـول ديورانت- سترى فيه ملكاً أنفق حياته في العدل والرحمة، وبسـط كفـه بالإحسـان الغزير، وتسامح إزاء الديانات الهندية، وكان له شغف بالآداب والفنون فأيدها، وكان كريماً مع من سقط في يديه من أعدائه، فعفا عنهم ولـم يمـس مدنهم بسوء، وانصرف بجهده كله حتى الإفراط، إلى شئون الحكم، حتى أن مبشراً برتغالياً هو دومنجو سبيز يكتب عنه عام ١٥٢٢ م فيقول أنه بلغ

---

(١٤) ديورانت ١١٣/٣

أقصى ما يمكن لملك أن يبلغه من الهيبة والكمال. . وهو لا يألو جهداً في تكريم الأجانب وفي الحفاوة بهم .. إنه حاكم عظيم ورجل يغلب على أخلاقه العدل[١٥].

فنحن هنا بإزاء رجل لا يحث على الفضائل، وإنما يمارسها بنفسه، وهو ليس رجلاً عادياً من عامة الشعب، بل ملك ذو نفوذ وسلطان، فيكون بذلك مثلاً أعلى لشعبه كي يمارس فضائل العدل والرحمة والإحسان وإكرام الضيف، والتسامح تجاه الديانات الأخرى.

المسالمة والأمانة والاعتدال في شرب الخمر:

ومن فضائل الهنود- بل الصينيين أيضاً كما سوف نرى- أنهم لا يحبون النزاع أو الشجار، وأنهم كثيراما يقومون بتسوية مشاكلهم دون اللجوء للقضاء يقول ديورانت: "إن المؤرخ اليوناني الذي أرخ لحملات الإسكندر، يصف الهنود بأنهم يستوقفون النظر باستقامتهم، وأنهم بلغوا من سداد الرأي حداً يجعل التجاءهم إلى القضاء نادراً، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم، وعن العهود المكتوبة تسجيلاً لما اتفقوا عليه، فهم صادقون إلى أبعد الحدود"[١٦].

ومما يؤيد ذلك أيضاً ما رواه المجسطي الذي كان سفيراً في باتاليبوترا عن سلوكس نكتار ملك سوريا وذلك في عهد قريب من تحرير الهند من حكم الإسكندر الأكبر، فلقد أعجب هذا السفير بالمدنية في الهند، والتي اعتقد أنها أكثر رقياً من مدنية اليونان خاصة أنها كانت تخلو من الرق، فهم في سلوكهم يتصفون بالبساطة وهم كذلك مقتصدون فهم لا يشربون الخمر قط إلا في الاحتفال بتقديم القرابين، والدليل على بساطة قوانينهم ومواثيقهم هو أنهم قلما

---

(١٥) ديورانت ٣/١٢٠-١٢١ (١٦) ديورانت ٣/٢٧

يـلجأون إلى محـاكمهم بقضـايا مـن خرق العهود أو نهب الودائع بل هم لا يحـتاجون إلى أخـتام أو شـهود، ولكـنهم يودعون أشياءهم على ثقة بعضهم ببعض..إنهم يقدرون الحق والفضيلة قدراً عظيماً"(١٧). كل ما سبق من الفضائل.

التسامح الديني والحرية الاجتماعية والإحسان

كانت الديانة الهندوسية منتشرة في الهند على نحو ما هو معروف، غير أن طائفة كبيرة من الهنود اعتنقت البوذية لا الهندوسية، ونظراً لما بين الديانتين من خلاف حيث أن إحداهما روحية وهي الهندوسية، والأخرى سلوكية لا علاقة لهـا بالروح، نظراً لكل ذلك فقد كان من المتوقع أن ينشأ الخلاف بين الديانتين، ومع ذلك كان السلام- فيما يبدو- سائداً بينهما.

فكـثير مـن المرسومات التي أصدرها أشوكا فارذانا الذي تولى العرش سـنة ٢٧٣ ق.م هـي مرسـومات بوذية، لا تنى تذكر مرة بعد مرة ضرورة التسـامح الديني، فعلى المرء أن يحسن إلى كهنة البراهمة، كما يحسن إلى كهنة الـبوذيين سواء بسواء، ولا ينبغي لأحد أن يسيء بالقول إلى عقيدة من العقائد. ويعـلن المـلك أن كل أفراد شعبه بمثابة أبنائه الذين يحنو عليهم، فهو لن يفرق بيـنهم بسبب اختلافهم في العقيدة (١٨). وواضح أن التسامح الديني والإحسان من الفضائل الأخلاقية.

وهـاهو حـاج صيني آخر هو فارهين الذي جاء من الصين إلى الهند بغرض الحج في مستهل القرن الخامس الميلادي، يصف رحلته إلى الهند وكيف كـان طوال الرحلة، فلم يتعرض للإيذاء أو السرقة، على عكس ما حدث له في الصـين وطـنه حيث تعرض لبعض المتاعب ثم يصف إعجابه بما كان للشعب الهـندي من ازدهار وفضيلة وسعادة، ومن حرية دينية واجتماعية، وقد أدهشته

---

(١٧) ديورانت ٩٣/٣

(١٨) ديورانت ١٠٣/٣

المـــدن الكبرى بكثرتها وحجمها وعدد سكانها، كما أدهشته المستشفيات المجانية وغيـــرها مـــن مؤسســـات الإحسان التي امتلأت بها أرجاء البلاد، وعجب لعدد الطـــلاب الذي يختلفون إلى الجامعات والأديرة، والقصور الملكية الهائلة بعظمتها وفخامـــتها، وإنك لتقرأ وصفه فلا تجد فيها إلا مدينة فاضلة (يوتوبيا) إذا استثنيت عاداتهم من قطع الأيدي لبعض الآثمين[١٩].

وواضـــح أن الحرية الدينية والعطف على المرضى الفقراء كل ذلك من الفضائل.

النظافة وآداب السلوك الطيب:

للـــنظافة منزلة رفيعة لدى الهندوس، وهي مرتبطة بالعبادة برباط وثيق، إذ تـــأتي في منزلة بعد العبادة مباشرة . . بل هي عندهم جزء حيوي من العبادة، ولقـــد ســـنّ مانو منذ عدة قرون تشريعاً يستلزم تهذيب البدن، ففي تعليماته مثلاً: يجـــب عـــلى الـــبرهمي أن يستحم في الصباح الباكر، وأن يزين جسده وينظف أســـنانه ويغســـل عيـــنيه ويعبد الآلهة، والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد في بـــرامجها آداب الســـلوك الطيـــب والنظافة الشخصية، فعلى الهندي ذي المكانة المحـــترمة، أن يغسل جسده كل يوم، وأن يغسل ثوبه الذي سيرتديه، وإنه ليقشعر تقززاً إذا ما لبس الثوب- بغير غسيل- أكثر من يوم واحد![٢٠]

وقد يبالغون في النظافة فلا تستعمل أوعية الطعام أكثر من أكلة واحدة، فمـــا كان منها مصنوعاً من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله وأما مـــا كـــان مصنوعاً من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد وجب إعادة صقله، ولا يلـــبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكوا مساويكهم لتنظيف أسنانهم، ولا

---

(١٩) ديورانت ٣/١١٠-١١١

(٢٠) ديورانت ٣/١٨٦

يـلمس أحدٌ منهم أحدًا إلا إذا اغتسلوا متوضئين[٢١]. فلقد ارتبطت العقائد الهندية بالعديد من الفضائل.

وهـا قد انتهيا من عرض بعض الفضائل والقيم لدى الهندوس، وقد رأينا أنهـا مرتـبطة ارتـباطاً وثيقـاً بالديانة الهندوكية، ورأينا أنهم اهتموا بالفضيلة والشـرف في عمومها، كما اهتموا "بالفكر الصالح" والذي حددوا أسسه بألا نأمل أو نرغب في أي شيء ليس حلالاً، وأن لا نفكر بسوء أو بشر نحو أي من البشر وعـدم إخـلاف الوعـد، وأنهم كما اهتموا "بالفكر الصالح" اهتموا أيضاً "بالعمل الصالح"، ولقد اهتموا اهتماماً خاصاً "بالوفاء"، الوفاء للإله الذي خلقنا، ولم يتركنا سـدى، بـل أرسل لنا الحكماء والأتقياء الهندوس لهدايتنا. أما بالنسبة للنساء، فقد حفـلت الهـندوكية بإحدى القيم الفريدة في الثقافات التي عرضنا لها، فقد حث تشـريع مـانو عـلى الـرفق المستتير في معاملتهن إذ "لا يجوز ضربهن حتى بزهـرة". وقـد رأينا كيف أن الملك هارشا كان يعطف على الفقراء والمعوزين، وأنـه كان يكرم رجال الدين البوذيين وهو الهندوسي، قبل رجال الدين الهندوس رغـم مـا بين العقيدتين من اختلاف، بل لقد وصل في تسامحه إلى درجة تكريم الجانـتيين، وهـي طائفة معارضة للهندوكية، ولقد رأينا أن الملك كرشنا رايا قد فعـل نفـس الشيء أيضاً- وإن كان ذلك في عصر متأخر، وأغلب هذه الفضائل والقيـم جاءت قبل نزول الأديان الإلهيـة أو بعيداً عن مكان نزولها، وإن كانت تكاد تتفق مع نظيرتها بتلك الأديان على النحو الذي نعرفه. ولننتقل الآن لكى نرى الفضائل والقيم لدى البوذيين •

---

(٢١) ديورانت ١٨٦/٣

الفصل السادس

الفضائل والقيم لدى البوذيين

مقدمة:

تعتـــبر الـــبوذية ديـــناً ســـلوكياً أكثر منها عقيدة، بمعنى أنك تجدها غنية بمعاييـــر الســـلوك وقيمه، ولا تجد فيها من المعتقدات الغيبية إلا النذر اليسير، إذ أنهـــا كانت تعتقد في البعث ويوم القيامة وفي وجود الجنة والنار، وإن استبعدت الغيب من صميم العقيدة، ومع ذلك فقد لجأت إليه في بعض الأحيان.

هذا ولقد تحدث بوذا عن الخير والشر كثيراً فقد كانا محورين هامين من محـــاور اهـــتمامه إلى جانب اهتمامه بالخلاص والسلام النفسي للبوذي، فقد كان يحـــث عـــلى اتباع السلوك الذي يؤدي إلى الخير وتجنب السلوك الذي يؤدي إلى الشـــر دون أن يحـــدد في كل مرة ما هو هذا الخير وذلك الشر، فقد وضع مهمة هذا التحديد في أحيان كثيرة على عاتق البوذي، فالإنسان عند بوذا هو الذي يحدد القيـــم والفضائل على خلاف حكماء المصريين القدماء الذين كانوا يحددون القيم والفضـــائل تحديـــداً دقيقـــاً، ويجعلنا هذا نستنتج أن بوذا كان يؤمن ضمناً بوجود حاسة خلقية عند الإنسان يمكن أن توجهه لإدراك ما هية هذه القيم والفضائل التي تـــؤدي ممارستها إلى تحقق الخير، بل إن بوذا كان يضمن ذلك طالما كان هدف الإنســـان هـــو الفضـــيلة "فـــالذين يفكرون دائماً بمنطق الفضيلة في كل غاياتهم ومقاصدهم يزدادون قوة على قوة في سلامة منطقهم فلا يتقيدون برباط دنيوي أو شهواني وهم الذين سوف يصلون إلى (نيبانا) في هذه الحياة"[١].

---

(١) رؤوف ١٦٦

وفـــي موضــــع آخر يقول بوذا "واجب على البشرية أن تجاهد للحصول عـــلى الفضائل.إن البشرية مطالبة بأن تعدل فكرها من الاتجاه السيئ إلى الاتجاه الحســـن"[٢] وكـــان بوذا يرى – مثلما رأى معظم الأخلاقيين فيما عدا اللاهوتيين والمـــثاليين– أن مصدر الإلزام الخلقي كامن في الإنسان ذاته وليس خارجاً عنه؛ فقـــد كان يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى المجهول، وفي ذلك يقول "إنه لمن الحمـــق أن تظـــن أن ســـواك يستطيع أن يكون سبباً في سعادتك أو شقائك، لأن الســـعادة والشـــقاء دائمـــاً نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن. وهو يأبى أن يبني تشـــريعه الخـــلقي عـــلى عقوبـــة تفرضها قوة وراء الطبيعة كائنة ما كانت هذه العقوبـــات، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنةً ولا مطهراً ولا جحيماً، وهو أرهف حساسية للألم والقتل الذيينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوجية في الحياة مـــن أن يفـــرض أن هـــذا القـــتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادةً عَمد وتدبيـــر"[٣]. أي أن الالتزام بالفضائل عند بوذا لا يكون خوفاً من النار أو طمعاً فـــي الجنة، فأخلاقه إنسانية، وإن كان قد لجأ إلى التلويح بالجنة والنار في أحيان قليلة كما سوف نرى.

ولقـــد انتشـــرت البوذية، ومن بعدها الكونفوشيوسية في الصين، ثم انتقلتا بعـــد ذلك إلى الهند واليابان، غير أن البوذية كانت أكثر تفوقاً من الكونفوشيوسية فـــي هـــاتين النقلـــتين، وإلى جانب هاتين الديانتين الكبيرتين، كان هناك حكماء وفلاســـفة ومفكرون داخل هاتين الديانتين، يتفقون مع بوذا وكونفوشيوس أحياناً، ويختـــلفون معهما أحياناً أخرى. وسوف نتحدث أولاً عن الفضائل والقيم البوذية في الصين.

---

(٢) رؤوف ١٧١

(٣) ديورانت ٣/٨٢



خريطة حديثة للصين واليابان

أولاً: الفضائل والقيم لدى البوذيين الصينيين

كبح الجماح ومحاسبة الذات ووأد الشهوات:

نستطيع أن نقول- مع قليل من المغامرة- أن كبح الجماح، هو قمة الفضائل البوذية، وسوف يرى القارئ بنفسه أن فضيلة كبح الجماح سوف تتردد كثيراً في كتاب البوذية؛ وهاهو بوذا يشترط للرجل الفاضل أن يسيطر على نفسه "فمن يعد قنوات المياه يتسبب في جريان الماء كيفما يشاء، وصانع السهام يعدلها ويجعلها مستقيمة، وصانع الخشب يهندس أبعاده، فكذلك الرجل الفاضل فإنه يقود نفسه ويحاسبها"(٤). فالرجل الفاضل في نظر بوذا هو الذي يوجه نفسه ويسيطر على أفعاله وهو الذي يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون.

ولقد أكد بوذا كثيراً على محاسبة الذات، بل وتهذيبها فيقول "فإذا فرضنا أن هناك شخصاً يحب نفسه ويعطف عليها، دعه دائماً يلحظ ذاته ويسعدها، لكن الرجل الحكيم العاقل هو الذي يهذب نفسه في كل لحظة وكل حين"(٥). وهو إن فعل ذلك فسوف يكون مثلاً لغيره من الذوات "فإذا استطاع أن يربط ذاته بالخُلق الفاضل فإنه يستطيع أن يقود غيره [إلى] مثل هذا الخُلق، وذلك لأن بناء الذات صعب مراسه"(٦). غير أن محاسبة النفس وكبح جماحها يوجب المكافأة "فعندما يستطيع المرء أن يسيطر على نفسه، ففي هذه اللحظة يلتقي بالأستاذ الذي يصعب الحصول عليه كثيراً"(٧)

وكنتيجة لكبح الجماح تأتي فضيلة احتقار الدنيا ووأد الشهوات والملذات،

---

(٤) رؤوف ١٧٥

(٥) رؤوف ١٧٨

(٦) رؤوف ١٧٨

(٧) رؤوف ١٧٨

وقد ألح بوذا على ذلك في مناسبات عديدة، فيقول مثلاً "انظر إلى الحياة على أنها زبد يذهب جفاءاً، اعتقد أن الحياة مثل الظل أو الخيال. إن من يصدق هذه التعاليم ســوف لا يقــابل ملك الموت"(٨). وهو يقصد بذلك أنه طالما احتقر الدنيا فإنه لن يخشى الانتقال إلى الحياة الأخرى. ثم يقول بعد ذلك تنبيهاً على أن الحياة زخرف زائــل "تعــالوا نعــتقد أن هذه الدنيا مثل عربة الملك جميلة الزينة والزخارف، المغفــلون هم الذين يقعون في شراك هذه الزخارف، أما العقلاء والحكماء، فإنهم لا يقعون في هذه الشراك"(٩).

ومــن مظاهر كبح جماح النفس عدم التأثر لا للمدح ولا للذم، أي لا فرح ولا غضب. يقول بوذا "ولكن الذي يستطيع أن يتغلب على المدح والثناء فلا يتأثر به، يكون مثل اليوم الصافي الذي لا سحابة فيه ولا غيوم"(١٠)(*).

أمــا الوسيلة لكبح الجماح عند البوذيين، فهي لا شك السيطرة على البدن ومطالــبه. يقــول بوذا "فلتكن إرادة الناس جميعاً يقظة دائماً تجاه ما يثير شهوات الجســم، فليــنظفوا أبدانهم، وليحافظوا عليها، وليفعلوا بأبدانهم خيراً"(١١). ولكي يحققــوا ذلــك فعليهم أن يحذروا "من المثيرات التي تهيج مطالب الجسد واللسان والكــلام لينتخــبوا الألفاظ والكلمات بعد ما يطهرون نفوسهم من الذنوب والآثام. وعــندما يعمــلون صــالحاً عليهم أن يقرنوه بالكلام الطيب"(١٢)، والصالحون هم "الذيــن يسوســون دائماً أبدانهم وكلماتهم وأفكارهم، هم الذين – بحق – سيطروا على أبدانهم بأسلوب واضح ومتين"(١٣).

---

(٨) رؤوف ١٨٠ (٩) رؤوف ١٨٠

(*) في الأصل: "ولكن الذي لا يستطيع . . والصحيح عدم وجود (لا)

(١٠) رؤوف ١٩٠ (١١) رؤوف ١٩٠

(١٢) رؤوف ١٩٠ (١٣) رؤوف ١٩١

الطهارة والعفة والأمانة:

ومن القيم البوذية الطهر والعفة، فلا ينبغي أن ينظر الرجل لزوجة رجل آخـر، ومـن يفعل ذلك سوف يعاني "من العيب والقلق وسوء التصرف وأخيراً يدخـل النار. .، إنها لذة قصيرة تلك التي يعاقرها المذنب الزاني. . ولذلك ينبغي أن لا تفكـر فـي زوجة رجل آخر"[١٤]، ونلاحظ هنا أن العقاب بالحرق هو من المرات القليلة التي يلجأ فيها بوذا إلى وازع خارجي.

غيـر أن الـتطهر عند بوذا ليس هو الزهد فحسب، بل لابد من الإيمان واليقيـن الخالص "ليس فقط من أجل الملابس والضفائر، ولا من أجل ما يوسخ بـه الإنسان نفسه، ولا من أجل الصوم أو النوم على الأرض أو لأنه يدلك جسمه بالـتراب، وليـس لطريقة جلسته دون حركة، ليس لكل هذا يحصل الإنسان على الـتطهر، ما دام يحمل في طيات نفسه الشك والريب، الذين يمتدحون ويحفظون فكـرهم مـتزناً هادئـاً، هم الذين يعيشون الحياة الطاهرة لأنهم لا يؤذون مخلوقاً سواء كان ذلك المخلوق براهما او بتابا Petapa أو بيهكو Bihku"[١٥]

ومـن الطهـر والعفة أن لا نمارس الحرام ليس فقط بأيدينا، بل أيضاً لا نمارسـه بحواسنا؛ وهذه الحواس التي لا تمارس الحرام هي حواس عفيفة فاضلة "فـالعين الـتي تصان عن الحرام فاضلة، وهكذا الأذن التي تصان والأنف الذي يصان، كلها فاضلة، ومثل هذا أيضاً اللسان الذي يصان، يكون فاضلاً"[١٦]

غير أن الطهر الذي يعنيه بوذا ليس الطهر الذي يبدو للناس من أفعالنا، بل المهم أن يكون ذلك الطهر من الباطن[١٧]، إنه طهر الضمير .

ومما يرتـبط بالطهـر والعفـة، الأمانة؛ ومن النصائح التي تؤدي إلى الفضيلة، هو أن لا تبحث عن الثروة أو الولد أو الجاه عن طريق غير أمين،

---

(١٤) رؤوف ٢٠٤

(١٥) رؤوف ١٧٤

(١٦) رؤوف ٢١٤

(١٧) رؤوف ١٥١

فالذين لا يفعلون ذلك هم حقاً الحكماء السالكون طريق الحق المنير."[١٨]

ومــن التعفف أيضاً أن لا تبحث عن عيوب الآخرين، "والشخص الذي يــبحث عــن عورات الآخرين دائماً ويراقب أعمالهم، سوف تكبر أهواء نفسه، ويصعب عليه بعد ذلك التغلب على شهواته".[١٩]

وممــا يــلفت الــنظر فــإن الطهارة عند البوذيين لها مرتبة سامية بين الفضــائل، فهي أفضل من السلطة- وهذا أمر مفهوم- ولكنها أفضل من دخول الجــنة، وهذا ما يحتاج منا للتأمل. يقول بوذا "الأفضل والأعظم من السلطة في هــذه الدنيــا، والأفضل من دخول الجنة، والأفضل من السيادة فوق الدنيا كلها، الأفضــل مــن كــل هذا الشخص الذي حصل على المرتبة الأولى في الطهارة والــنقاء"[٢٠]. ونستنتج من ذلك أن هناك عند بوذا مرتبةً للجزاء أعلى من الجنة يمكن الوصول إليها على الأرض عن طريق الطهارة.

الصدق وعدم النفاق والعفة ووضوح المعاني:

وتحتل فضيلة الصدق مكانة مرموقة في الديانة البوذية وهو موضع آخر من المواضع النادرة التي يزع فيها بوذا أتباعه بتخويفهم بالنار " فكل من يتحدث بغيــر صدق سوف يدخل النار، وكل من يعمل شيئاً ثم ينكره. فإنه بعد الموت يدخــل مــع صاحبه الأول كمن فعل شراً وكلاهما يدخل النار"[٢١]. ولقد وصل طلب الصدق عند بوذا إلى درجة أنه جعله آية للبرهماني؛ يقول بوذا "إنني اسميه برهمانياً ذلك الذي إذا تحدث كان صادقاً وحديثه خال من الألفاظ النابية، ومعانيه واضحة مفهومة ولا تسبب آلاماً للسامعين"[٢٢]. ولا شك أن وضوح المعاني

---

(١٨) رؤوف ١٦٥

(١٩) رؤوف ١٩٤

(٢٠) رؤوف ١٨١

(٢١) رؤوف ٢٠٤

(٢٢) رؤف ٢٢١

أحـــد معاييـــر الصـــدق، وهو من المرات القلائل التي نجد فيها وضوح المعنى فضيلة.

ومـــن الصـــدق أيضاً ألا نكون منافقين، فبرغم [أن] الزهر الجميل عديم الرائحة أو غير زكي الرائحة يشبه الكلمات اللطيفة التي تخرج من الفم ولكنها لا تطـــابق العمل، غير أن الزهر جميل المنظر وجميل اللون وزكي الرائحة فيشبه الكـــلمات اللطيفة التي تخرج من فم الرجل الذي يطابق سلوكه أقواله(٢٣)، فمهما كانت ألفاظنا جميلة ومنمقة ولكنها لا تخرج من القلب، فإنها مجرد ضجيج.

ومن الصدق أيضاً أن نخضع للحقيقة، أما "الذين يقلبون الحقائق فيجعلون غيـــر الحق حقاً ويجعلون الحق باطلاً سوف ينتهون على أن يحصدوا العبث، أما الذيـــن يقـــرون الحـــق حقـــاً، والـــباطل باطلاً، فإنهم سوف يصلون إلى الحقيقة ويحصدون الغاية النبيلة التي ينشدونها"(٢٤).

ومن ارتباط الصدق بالحق، يقول بوذا "كل من يقيم شخصيته على الحق والصـــدق والعمل الفاضل بدون تعسف أو قهر، فإن نفسه تتهذب وتُقاد إلى الخير ويســـيطر عـــليها الشخص غير المعيب وهو حكيم، إنه الشخص الذي يصح أن يطلق عليه حقاً إنه شخص أو إنسان"(٢٥).

وإذا كـــان الكـــذب هـــو المدخل تقريباً لكل الشرور، فلابد إذن أن تحتل فضـــيلة الصـــدق مكانة ممتازة في كافة الأديان والعقائد، يقول بوذا "كل من يقتل هـــو دائمـــاً يكـــذب، ويغتصب الودائع [أي الأمانات]، ويخالل زوجات الآخرين، والذيـــن يستسلمون للمسكرات يعيشون في الدنيا كأنهم يحفرون قبورهم بأنفسهم، ولتعـــلم أيهـــا الأخ الشـــقيق أن فاعل المعاصي ليس من السهل أن يحبه إنسان،

---

(٢٣) رؤوف ١٥٩

(٢٤) رؤوف ١٥١

(٢٥) رؤوف ١٩٥

فأحذر أن تترك نفسك تضللها أفعال الشر فتلقي بك على وجهك في التعاسة وخيبة الرجاء"(٢٦).

الرحمة والتعاطف ورقة الحاشية:

كل شخص وصل إلى قمة الفضيلة هو براهماني، وبوذا يطلق هذا اللقب على الشخص إذا حافظ على أرواح الضعفاء، وكان رحيماً بهم. يقول بوذا "إنني اسميه برهمانياً ذلك الذي لا يعذب مخلوقاً من المخلوقات الضعيفة، والقوى الذي لا يستخدم قوته في القتل، أو لا يتسبب في قتل أي مخلوق"(٢٧)، ونلاحظ هنا أن بوذا لم يقصر رحمته على الإنسان، بل على كل المخلوقات الضعيفة "وجماعة تلاميذ السيد بوذا دائماً في يقظة بالليل والنهار، ويفكرون في العطف والشفقة، والإحسان"(٢٨).

ولقد حث بوذا أتباعه- بالإضافة إلى الرحمة والتعاطف- على رقة الحاشية ولين الطبع، فعليك أن تكون مهذباً في اختيار ألفاظك. فإذا كان الذي أمامك إنساناً رقيقاً فقد تسيء إلى قلبه، وإذا كان إنساناً شرساً فسوف يرد لك الإساءة، لذلك ينبغي عليك "أن تحذر أن تتلفظ بكلمة تسيء إلى القلب مهما كان المخاطَب الذي أمامك، ولتعلم أنه يمثل أسلوبك في الحديث وسوف يرد عليك، فإن الألفاظ النابية تقلق القلب والرد سيكون أقسى"(٢٩).

---

(٢٦) رؤوف ١٩٣

(٢٧) رؤوف ٢٢١

(٢٨) رؤوف ٢٠٢

(٢٩) رؤوف ١٧٣

حب الآخرين وعدم الحقد عليهم:

رأينا في مقدمة الكتاب أن " الحب " هو واحد من المحركات الأساسية لممارسة الفضائل. "والحب" خبرة أخلاقية أو عاطفية- ومع ذلك- يمكن أن نعتبره مع جانكليفتش في نفس الوقت فضيلة كسائر الفضائل(٣٠).

بل إن بعض فلاسفة الأخلاق يذهبون أبعد من ذلك فيعتبرونه فضيلة الفضائل لأنه ينطوي في صميمه على قيمة أخلاقية كبرى ألا وهي " الإرادة الخيرة"(٣١). وأياً كانت طبيعة الحب فهو لدينا أحد منابع الأخلاق.

وحب الآخرين وعدم الأنانية من الفضائل البوذية. فإذا عرفنا أن الهدف الأساسي للبوذية هو الحصول على السلام النفسي عرفنا كيف تكون أهمية فضيلة الحب والتسامح وعدم الحقد على الآخرين عند البوذي.

فحب الآخرين هو الطريق للسعادة، على عكس حب النفس؛ يقول بوذا: "إذا أحببت نفسك فلن تقابلك السعادة"(٣٢)، ومن الطبيعي ما دام الأمر كذلك أن تطالبنا البوذية بعدم الحصول على السعادة عن طريق شقاء الآخرين، ومن يفعل ذلك "سوف يقع فيما دبره لغيره من الشقاوة، ثم لن يتخلص مما هو فيه من الكراهية"(٣٣).

ولم يحض بوذا على الحب فقط، بل أيضاً على عدم معاشرة الحاقدين الكارهين أي الذين لا يمارسون الحب. يقول بوذا " نحن نعيش في سعادة طالما لا نكره أحداً من الناس، ولا يعيش معنا أحد يكره أحداً من الناس، نحن نعيش أحراراً من عاطفة البغض التي توجد بين الذين يتبادلون الكراهية"(٣٤)، وفي نص آخر يقول بوذا "الذين يحطمون في داخل أنفسهم الحسد والكراهية، هم الذين

---

(٣٠) زكريا [ب] ١٢٧
(٣١) زكريا [أ] ٢٩٠
(٣٢) رؤوف ٢٠٣
(٣٣) رؤوف ٢٠١
(٣٤) رؤوف ١٨٥

يقضـــون الليل والنهار في نعمة الراحة والطمأنينة"(٣٥)، وفي نص ثالث يشيد بوذا بالتســـامح وعـــدم الحقد حتى أنه يستحق أن يسمى براهمانياً "الذي لا يحمل حقداً لأحد بينما هو وسط قوم يحقدون عليه"(٣٦).

الوفاء بالعهد وعدم التهرب من الواجب:

والوفـــاء بـــالعهد من الفضائل عند البوذيين، ولقد أضاف بوذا إلى الوفاء بـــالعهد إتقـــان العمل، فهو نوع من الوفاء. يقول بوذا "العمل الذي يؤدّى بطريقة فاســـدة أو طائشـــة، والوعد الذي لم يوف به فإنه يكون خارجاً عن الصدق ولا يستحق ثواباً"(٣٧). لقد وحّد بوذا هنا بين فضيلتين هما اتقان العمل والوفاء بالعهد، وجعلهما معياراً للصدق.

وقيـــام الإنسان بأداء واجبه هو نوع من الوفاء، وعلى الإنسان أن يؤديّ بنفســـه ما عليه من تكاليف لا أن يتركها لغيره "فليس هناك إنسان يؤدي واجباته مـــن أجل قضاء عمل واجب على إنسان آخر، فما أجمل وما أعظم أن يفهم المرأ واجباته وأن يقدم نفسه عبداً لوظيفته"(٣٨).

القناعة والكرم:

مـــن الطـــبيعي بالنسبة لعقيدة تتخذ من كبح الجماح عموداً لها، أن تكون القـــناعة فضـــيلة هامة بها، حقاً لم يقابلنا لفظ "القناعة" صراحة، ولكن هناك من التراكيب اللغوية العديدة التي تقوم مقامه "فالموت هو الذي يجذب الطامعين الذين يجمعـــون حطـــام الدنيـــا بأية وسيلة، سوف يرسل على هؤلاء الفياضانات التي تغـــرقهم في غرف نومهم، والموت هو الذي يجذب أولئك الذين يحرصون على

---

(٣٥) رؤوف ١٩٤
(٣٦) رؤوف ٢٢١
(٣٧) رؤوف ٢٠٤-٢٠٥
(٣٨) رؤوف ١٧٩

جمـــع مطامع النفس وشهواتهم، وأولئك هم أصحاب الفكر المشوش، إنهم سوف يمرتون قبل أن يقنعوا بما تنعموا به مما جمعوه"[٣٩].

ومن الطبيعي أن الدعوة لفضيلة القناعة، سيتلوها مباشرة دعوة أخرى للبعد عن الطمع والشره. يقول بوذا "نحن نعيش في سعادة إذا تخلصنا من الشره والطمع اللذين يعيشان بين الطماعين والشرهين"[٤٠].

"والطمع مرض شديد الخطورة، والميل مع هوى النفس ورغائبها، هو في الحقيقـــة ألـــم ومتاعب جمة، وعلى هذا فكل من يفعل هذا البيان فعليه أن يحصل على (نيبانا) لأنها السعادة العليا"[٤١].

غيـــر أن القـــناعة يجب أن لا تدعونا إلى الكسل، بل لابد من أن يكون الإنســـان نشـــطاً مجتهداً إلى جانب القناعة " فعندما يتحول الإنسان إلى كسول أو طماع، ويحب دائماً النوم في أي مكان، هذا الشخص مثله مثل الخنزير الشره"[٤٢]. إن محاولة تجنب هاتين الرذيلتين في نفس الوقت ليحتاج إلى ضبط كبير للنفس.

إذا كانت القناعة الاكتفاء بالقليل، فإن ذلك سوف يمهد بالضرورة لفضيلة أخـــرى هـــي "الكرم"، وذلك أن يتقدم الإنسان الفاضل بخطوة أخرى فيجود بما عنده إلى المحتاج إيثاراً له على الذات، ولكن قد يقف البخل حائلاً دون ذلك، لهذا يحذر بوذا البخيل من أ نه سوف يحرم من مصاحبة الملأ الأعلى؛ يقول بوذا "في الحقيقـــة، الـــرجل البخيل سوف لا يستطيع أن يصعد إلى عالم الألوهية، وكذلك الشـــخص الغبي لا يحب أن يقدم تبرعاً أو إحساناً، ولكن الرجل المحسن الحكيم هـــو الـــذي يعمل الخير ويحبه، وذلك له عاقبة طيبة في العالم الآخر"[٤٣]، وهو

---

(٣٩) رؤوف ١٥٨-١٥٩

(٤٠) رؤوف ١٨٥

(٤١) رؤوف ١٨٦

(٤٢) رؤوف ٢٠٦

(٤٣) رؤوف ١٨١

موضـــع من المواضع التي يشير فيها بوذا إلى العالم الآخر ويتخذه ذريعة للحث على الفضيلة.

الحق والخير والعدل:

إن مـــن يفكـــر فـــي " الحـــق والخير" تفكيراً عميقاً يعتبر براهمانياً، أي فاضـــلاً، ولا تُؤتـــى هذه الفضيلة أبداً لجمال المظهر أو النسب. يقول بوذا "ليس لأن شعره ممشطٌ وليس من أجل نسبه ولا من أجل طبقته Kasta يكون الإنسان براهمانياً، إنما يكون براهمانياً عندما يجلس وحيداً يفكر في الحق والخير"(٤٤).

ومـــن الفضـــائل التي ترتبط بالحق والخير برباط وثيق: العدل، فالقضاة الذيـــن يحكمـــون بين الناس لابد أن يكونوا عادلين، أما القضاة الظالمون فسوف تحيـــق بهم سلسلة من المصائب التي تنتهي بدخولهم النار. يقول بوذا "إن الأحكام الظالمـــة التي تصدر علىً الأبرياء غير المخطئين، سوف يلحق قضاتها أثر هذه الأحكـــام بالعواقب العشرة التالية: إنه سوف يلحق القاضي بها هَمٌّ نفسي ثقيل أو تضـــيع أموالـــه، أو يجرح، أو يمرض، أو يفقد وعيه، أو يسقط عليه عذاب من المـــلك، أو يُـــتهم، أو يفقـــد أصحابه أو أقرباءه، أو تنفد نهائياً جميع ممتلكاته، أو يحرق بيته، وعندما تنتهي هذه البلايا يدخل هذا المغفل نار جهنم"(٤٥).

التواضع والحلم والزهد والصبر:

في عقيدة مثل البوذية حيث لا يكون الإنسان براهمانياً لشعره المضفر أو لسمو مظهره، وحيث يطرح الإنسان ملذاته ظهرياً، يكون لفضيلة التواضع وعدم الكـــبرياء قيمـــة كبيرة، وهم يحثون على هذه الفضيلة بشتى الطرق، ومن أهمها تذكيـــر الإنســـان بـــالموت، فالجســـم بعد الشيخوخة "سوف ينتهي" وتهجم عليه

---

(٤٤) رؤوف ٢١٩

(٤٥) رؤوف ١٧٤

الأمــراض، وسوف تضعف كل عناصر المقاومة حتى تتفتت إلى أشلاء متناثرة، وفــي الحقيقــة أن هــذه الحيــاة سوف تنتهي بالموت . فهذه الجيف مكونة من مجموعــة عظــام ولحم ودم، ولها عمر مقدر، إذن الشعور بالكبرياء هو شعور زائــف، إن عــربة الملك الفخمة سوف تفنى وتتحطم، وهكذا هو الجسد سوف يفنيه العمر الطويل، ولكن ثمار الأعمال الطيبة سوف لا يأكلها الزمان، فالذي يقــدم خيــراً لابد أن يلقي خيراً"(٤٦). فالتواضع فضيلة بوذية، بل "إن البرهماني الأصيل سوف يسير في طريقه بعيداً عن المضايقات بعدما يطهر نفسه من ١- الكبرياء، ٢- أهواء النفس"(٤٧).

وقــد يرتبط الحلم مع التواضع والزهد يقول بوذا "لتكن رغبة الإنسان في أن لا يغضــب، ولــتكن رغبته في التخلص من الكبرياء، ولتكن كذلك في قطع علاقــته بالدنيا"(٤٨). ويقرن بوذا ذلك ببعض القيم الأخرى فيقول: "فليحاول الناس أن يســيطروا على الغضب بالصبر، فليحاول الناس التغلب على الشرور بالعمل الفاضــل، فليحاول الناس على التغلب على البخل بأسلوب الكرم، فليحاول الناس التصدي للكذب بالتحلي بالصدق"(٤٩).

وإذا غضب الإنسان فيجب عليه أن يسيطر على ثورة غضبه، يقول بوذا "كما يجب على كل فرد إذا تحدث أن يكون صادقاً وألا يضعف أمام ثورة غضبه إذا مــا أريــد منه شيء ولو كان صغيراً، وبهذا يكون الفرد قد اتخذ طريقه إلى الأعالي"(٥٠).

---

(٤٦) رؤوف ١٧٦

(٤٧) رؤوف ١٨٩

(٤٨) رؤوف ١٨٩

(٤٩) رؤوف ١٨٩

(٥٠) رؤوف ١٨٩

الخير وكراهية الشر:

تحـــدث بوذا عن الخير والشر كثيراً، فقد كانا محورين هامين من محاور اهــتمامه، غير أنه لم يكن في كل مرة يحدد الأعمال الخيرة والأعمال الشريرة، وهذا- كما جاء بالمقدمة- سوف يلقي عبئاً كبيراً على البوذي، إذ عليه وحده أن يضع معايير ما يعتبره خيراً وما يعتبره شراً.

ونرى بوذا ينبه على أن " كل الأعمال غير الصالحة تحمل في عواقبها الســوء والأحــزان والأسف الأسيف الذي يجعل صاحبه ينوح وينتحب ويبكي ويستغيث، أما الأعمال الطيبة النافعة فإن عواقبها تكون حسنة وطيبة وسعيدة"(٥١) وبصـــفة عامة، فإنه "واجب على البشرية أن تجاهد للحصول على الفضائل، إن البشرية مطالبة بأن تعدل فكرها من الاتجاه السيئ إلى الاتجاه الحسن"(٥٢).

عــلى أن بــوذا طـــلب من الإنسان أن يمارس الخير بقلب صادق ونية خالصـــة، وليس بطريقة آلية لأن العادة جرت على ذلك، بل لابد أن يفعله بوعي وبإدراك "لأن من يفعل الخير وهو عازف عنه وفكره مخدر، سوف تنتهي حالته إلى السوء والشر"(٥٣).

ومـــع ذلك فلو ارتكب الإنسان الشر مسوقاً بضعفه البشري. ذلك الضعف الــذي يدركـــه بـــوذا جيداً، فإن بوذا لا يغلق الباب أمام أمل التوبة، بل إنه يحثه عليها. يقول بوذا "ليعزم ذلك الذي يفعل الشر مرة، ألا يكرر فعله مرة ثانية، فإن عاقبة أفعال الشر شر مثله، وثمار الشر الحسرة والندم والفقر"(٥٤).

فإن فعلت الخير لا يهمك أن كان ضئيلاً "إذ لا ينبغي للمرء أن يقلل من قيمة أفعال الخير لأن الحوض تملأه كذلك قطرات الماء التي تترى تتساقط عليه،

---

(٥١) رؤوف ١٦٢

(٥٢) رؤوف ١٧١

(٥٣) رؤوف ١٧١

(٥٤) رؤوف ١٧١

والإنسان الفاضل الكريم هو الذي يجمع الفضائل رويداً رويداً كذلك"(٥٥).

ولا شك أن في ذلك دعوة لأن لا يتقاعس غير القادرين، فهو تشجيع للجميع على فعل الخير كل على قدر طاقته.

ومن شرور الحياة عند بوذا "اللذات" و"الهوى" وكثيراً ما تراه يهاجمهما حتى في أثناء حثه على فضائل أخرى، فيجب أن لا نرتبط بلذات الحياة، وأن لا نجعل الهوى يسيطر علينا، بل نجعل الجنة هدفنا "فكم من الناس يولدون من جديد، وأفعال الشر إلى جهنم، والشخص الصالح يدخل الجنة، أما الذين تخلصوا من هوى النفس وقيود الحياة، فهم الذين وصلوا إلى نيبانا Nibbana (٥٦)" وواضح هنا تلويح بوذا بالجنة.

ولن يفلت الشرير وصاحب المعصية أبداً "فليست في السماء وليست في عرض البحر ولا هي في الغار وليست في مكان يمكن أن تختفي فيه كل ذات لم تستطع أن تتجنب فعل المعاصي"(٥٧).

التفكير والتعقل والحكمة:

تُعلي البوذية من شأن الفكر فتجعله هو المسئول عن كافة أعمالنا سواء كانت خيراً أم شراً، وهذا يعني أن بوذا من أهل الاختيار وليس من أهل الجبر، فالإنسان إذن عند بوذا مسئول تماماً عن أفعاله، فلا عجب إذن أن نرى بوذا كثيراً ما يحذر أتباعه من "الغفلة" و"المغفلين"، "فالذين يعملون الصالحات ولا يغفلون هم الذين يحصلون على المعرفة الكاملة، وسوف لا تصادفهم غوايات الشيطان وأخطار وسوسته"(٥٨).

---

(٥٥) رؤوف ١٧٢

(٥٦) رؤوف ١٧٢

(٥٧) رؤوف ١٧٢

(٥٨) رؤوف ١٦٠

وبمـــا أن "الـــتعقل "هو تفكير خيِّر فلا عجب إذن إذا رأينا بوذا يشيد به "فالـــتعقل هو الطريق إلى الخلود، وعدم التعقل هو طريق الفناء والموت، والذين يتعقلون فهم الذين لا يموتون،أما الذين لا يتعقلون فهم في أقل تقدير الذين ماتوا"(٥٩).

والذيـــن يتعقلون سوف يتصرفون بحكمة بطبيعة الحال"والذي يتصرف بحكمة سوف يعرف حقيقة نفسه وسوف يشعر بالسعادة في حركة تفكيره وقدرته على التصرف الميسر للأمور، إنه سوف يكون من عداد النبلاء"(٦٠)، ولا يغيبن عـــن البال أن معنى النبالة عند بوذا سوف يختلف بطبيعة الحال عن معناه عند غير البوذيين.

ويرشد بوذا أتباعه عن الطريق الذي يؤدي إلى التصرف بحكمة؛ " الذين يتصرفون بحكمة هم المركزون للتفكير بصورة قوية تجاه الأعمال التي يقومون بهـــا باســـتمرار، ولهذا فهم يملكون الإرادة القوية والعزم الصحيح للوصول إلى الغاية المنشودة وهم الحاصلون على السعادة الأبدية التي لا تنتهي"(٦١).

طالمـــا أن التفكير المركز والتصرف بحكمة يؤديان إلى السعادة الأبدية، فـــلا بد أن يكون التفكير – وهو أداة الحكمة– فضيلة عند البوذيين شريطة أن لا نتوقف عنه، يقول بوذا "إن الذين يفكرون باستمرار هم الذين يعيشون في وعي كـــامل، فهم دائماً. . متيقظون، وأفعالهم دائماً نظيفة، وتصرفاتهم دائماً. . مبنية على أساس من التوازن الدقيق والتساهل المحمود، وهم منظمون، وسلوكهم قائم على التعاليم الصحيحة، ولذا فإن شرفهم ونبلهم دائماً في زيادة مطردة"(٦٢).

طالمـــا أن التفكير له مثل هذه النتائج، فإننا نتوقع أن تتفاضل النتائج إذا تفاضـــل الـــتفكير، وكما أن التفكير يقود إلى الخير والحكمة، فقد يقود أيضاً إلى الشـــر، وهـــنا تصبح السيطرة على التفكير عملاً صعباً. يقول بوذا إن " احتواء

---

(٥٩) رؤوف ١٥٣
(٦٠) رؤوف ١٥٣
(٦١) رؤوف ١٥٣
(٦٢) رؤوف ١٥٣

الفكـــر الذي يصعب قيادته عمل فاضل، والفكر الذي يروض ويوّجّه للخير ينتهي بصـــاحبه إلى الـــبهجة والسعادة، والرجل الحكيم في تصرفاته قمين به أن يحافظ عـــلى أســـلوب تفكيره في الأمور الدقيقة وخاصة تلك الأفكار التي تموج حسب الهوى والشهوة، إن الفكر الذي يحافظ عليه يحمل صاحبه إلى مستقبل السعادة"[٦٣].

وبطـــبيعة الحـــال، فإنـــنا بعد أن نفكر، تتكون لدينا وجهات نظر، ومن الفضـــائل فـــي الـــبوذية أن تكون لك وجهة نظر في شتى الأمور على أن تكون وجهة النظر هذه واضحة جلية، "ومن بين كل الناس الذين يملكون وجهات نظر، الأفضـــل فيهـــم من تكون وجهة نظره واضحة نيرة وهذا هو الطريق لا طريق سواه الذي يوصل إلى النقاء والصفاء في الرأي"[٦٤].

غيـــر أن الـــرجل الحكيم له صفات تميزه عن غيره "فالشخص لا يكون حكيمـــاً إذا كـــان كـــثير الكلام، أما الشخص المتزن الهادئ السعيد المتحرر من الشـــعور بالـــبغض وبـــالخوف فهو الشخص الذي يوصف بالحكيم أو العابد أو المنصف"[٦٥].

العمل الطيب:

إن سلوك الرجل الطيب لا يمكن أن يخفى، بل سيذيع على الجميع وهو أقـــوى من رائحة الزهر الجميلة "فرائحة الزهور الجميلة لا تنتشر في الجو عن طريق مخالفة اتجاه الهواء، ولكن صفة الرجل الطيب تنتشر في كل الاتجاهات"[٦٦].

فـــرائحة الأزهار لا تنتشر إلا في اتجاه الرياح ولا يمكن أن تنتشر ضد اتجـــاه الرياح، أما صفة الرجل الطيب فتنتشر في كل الاتجاهات سواء مع اتجاه الـــريح أو ضـــد اتجاه الريح، كما يجب أن لا نغتر بالروائح العطرية مهما كان

---

(٦٣) رؤوف ١٥٦
(٦٤) رؤوف ١٩٨
(٦٥) رؤوف ١٩٥
(٦٦) رؤوف ١٥٩

زكاؤهــا، فهــناك مــا هو أكثر منها زكاءاً وإن لم يكن عطراً. يقول بوذا "ليست بــذات قيمة كبيرة تلك الروائح العطرية التي تنبعث من أعواد العطور والبخور، إنما ذات القيمة العليا الممتدة إلى يوم القيامة هي روائح الطيبات من الأعمال"(٦٧).

مصاحبة الصالحين:

بعد أن حصلُ البوذي على الطهارة والمرتبة العالية، أصبح معداً لمرافقة الصالحين أمثاله، بل يجب أن يختارهم أكثر منه فضلاً؛ فمن "النصائح التي تقرب إلى حــد الفضــيلة والعقيــدة في البوذية، أن يكون للإنسان إمام يأتَمُّ به، أو حتى رفيــق يــرافقه فــي الحياة، بيد أن هذا الرفيق أو الإمام لابد أن يكون هو الآخر فاضــلاً ذكياً. يقول بوذا "وعلى افتراض أن الرجل الجوّال الباحث عن هدف لم يقــابل رجــلاً فاضلاً أحسن منه أو رجلاً يساويه، وعليه أن يستمر في الطريق وحــده ولا يصــاحب غبياً أو مغفلاً"(٦٨). وهو من المواضع التي يهاجم فيها بوذا الغــباء والغفــلة فإذا وجد الإنسان مثل ذلك الرجل فعليه أن "يتخلى عن الصفات المشــينة وذلــك من أجل أن يأتم بذلك الرجل الحكيم العاقل، عليه أن يتخلى عن أمــوال مــثل أمــوال قــارون(؟) من أجل أن يتبع طريقة الرجل الصالح الحكيم المنصــف، ومهمــا كان أمر هذا الرجل الصالح الحكيم، أكان موجّهاً أم مرشداً، ناهيــاً أو آمــراً، فإنه سو ف يكون محبوباً لدى الإنسان الفاضل الطيب، ولو أنه سوف يكون مكروهاً من كل إنسان وحشي أثيم، واحذر أن تصادق رجلاً فاحشاً مجــرماً، أو رجــلاً معيباً فاسقاً، وعليك أن تصادق الإنسان الذي يفعل الخيرات، وأن تصاحب الإنسان الطاهر النقي"(٦٩).

---

(٦٧) رؤوف ١٥٩-١٦٠

(٦٨) رؤوف ١٦١

(٦٩) رؤوف ١٦٤

فضيلة العفة:

العفـــة تعـــد مـــن الفضائل السامية لدى الصينيين ولابد أن هذه الفضيلة كانت بتأثير البوذية التي دعت إلى وأد الشهوات، فلقد كان الآباء يحرصون عليها أشـــد الحـــرص مع بناتهم، وقد نجحوا في غرس هذه الفضيلة في البنات نجاحاً مـــنقطع الـــنظير، يـــدل عليه أن البنات الصينيات- كما يقول ديورانت- كُنَّ في بعـــض الأحيـــان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصـادفة[٧٠].

حفظ حياة الآخرين والأمانة والصدق والشفقة والمحبة:

لما طلب تلاميذ بوذا من أستاذهم أن يحدد معنى الحياة السليمة في رأيه، ولكـــي يزيد الأمر وضوحاً، فقد صاغ لهم قواعد خلقية خمساً يهتدون بها، وهي بمثابة الوصايا ولكنها بسيطة مختصرة، وأما هذه الوصايا الخمس فهي:

١. لا يقتلن أحد كائناً حياً.
٢. لا يأخذن أحدٌ ما لم يُعْطه.
٣. لا يقولن أحد كذباً.
٤. لا يشربن أحد مُسْكِراً.
٥. لا يقيمن أحدٌ على دنس.[٧١]

وكـــانت هـــذه الوصايا في نظر بوذا كافية في حد ذاتها لطهارة الإنسان، فقـــد كـــانت فكرته عن الدين- كما يقول ديورانت- خلقية خالصة، فكان كل ما يعـــنيه هـــو ســـلوك الـــناس، وأمـــا الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهـــوت، فكـــلها عنده لا تستحق النظر، وإن كان قد اعتمد أحياناً على مفاهيم غيـــبية كالجـــنة والـــنار والملأ الأعلى كما رأينا سابقاً. وحدث ذات يوم أن هَمَّ

---

(٧٠) ديورانت ٢٦٧/٤

(٧١) ديورانت ٧٧/٣

برهمى بتطهير نفسه من خطاياه باستحمامه في جايا [مدينة]، فقال له بوذا استحم هـنا نعـم هاهنا ولا حاجة بك للسفر إلى جايا. كن رحيماً بالكائنات جميعاً، فإذا أنـت لـم تـنطق كذباً، وإذا أنت لم تقتل روحاً، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يُعط لك، ولبثت آمناً في حدود إنكارك لذاتك، فماذا تجني من الذهاب إلى جايا؟(٧٢).

وبعـد أن قـدم بـوذا وصاياه الخمس، نراه يضيف في مواضع أخرى عناصـر يتسـلّف بها- كما يقول ديورانت- تعاليم المسيح عليه السلام، قبل أن يوجـد، عـلى نحو يدعو إلى العجب، وتشتمل هذه الوصايا على الحلم والشفقة والحـب. يقول بوذا "على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة، وأن يزيل الشر بالخير، إن النصر يولد المقت، لأن المهزوم في شقاء، إن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها، إنما تزول الكراهية بالحب"(٧٣).

الشورى:

إن تشاور المجتمع لحل مشكلاته فضيلة، إذ أنها تؤدي إلى الوصول إلى أفضـل الآراء لمـا فيـه خيـر الجماعة بأقصر السبل، بل لن نغالي إذا قلنا إن التشاور فضيلة أيضاً على المستوى الفردي. "ويروى عن بوذا أنه قال في سؤال لمـن كـان له بمثابة القديس يوحنا: " هل سمعت يا آنندا أن الفاجيين [آريون من المـنطقة القزوينية هاجروا إلى شمال الهند قبل عصر بوذا بكثير] يجتمعون عادة ليتشـاوروا فـي الأمر قبل الحسم فيه، وأنهم يرتادون الاجتماعات العامة، التي تعقدهـا قبائـلهم؟ فمـا دام الفـاجيون يـا آنندا يجتمعون هكذا عادة، ويرتادون الاجـتماعات العامـة الـتي تعقدها قبائلهم، فتوقع منهم ألا يصيبهم انحلال، بل يصيبهم النجاح"(٧٤).

---

(٧٢) ديورانت ٧٨/٣ (٧٣) ديورانت ٧٧/٣

(٧٤) ديورانت ٢١/٣-٢٢

ونســـتطيع أن نستخلص من هذا تضميناً أن بوذا يدعو أصحابه إلى اتباع فضيلة الشورى حتى لا يتطرق الانحلال إلى مجتمعهم.

المساواة بين البشر:

كان بوذا- على عكس العقيدة البراهمية- ينكر تقسيم المجتمع إلى طبقات عــليا وأخرى أقل منها إلى أن نصل إلى أدنى الطبقات أو المنبوذين، فكان يقول لــتلاميذه فـــي وضوح وجلاء " انتشروا في الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة، قولوا للناس إن الفقراء والمساكين والأغنياء والأعين كلهم سواء، وكل الطبقات في رأي هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار، تصب كلها في البحر"(٧٥).

الرحمة والتقوى والخير والصدق:

لقـــد بلغت فضيلة الرحمة عند بوذا حداً جعله يخالف العادات المتبعة في معظـــم الشـــرائع من حيث ذبح الحيوان وتقديمه قرباناً للآلهة؛ "فقد كان يرفض الأخذ بفكرة التضحية في سبيل الآلهة، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيمـــوا أمثال هذه الطقوس، ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة كائنات أعلى في هذه الطبيعة"(٧٦). فلا عجب أن نرى عند البوذيين معاملة خاصة للحيوان.

إن فضـــيلة الـــتقوى تعتـــبر من أمهات الفضائل التي تؤدي إلى فضائل أخـــرى، وفـــي هذا الجو المفعم بالفضيلة التي أشاعها بوذا وحث عليها، فإنك لو خيرت الملك أشوكا- وهو أحد ملوك الصين- بين التقوى والخير، لاختار الاثنين معـــاً. ففي أحد مرسوماته- أمر تابعيه قائلاً: "إن قانون التقوى شيء جميل. لكن مما يتكون قانون التقوى؟ يتكون من هذه الأشياء:قليل من عدم التقوى [أي الكثير مـــنها]، وكـــثير من الأفعال الخيرة والرحمة والإحسان والصدق والصفاء، ولكي

---

(٧٥) ديورانت ٨١/٣

(٧٦) ديورانت ٨١/٣

يضـــرب أشوكا المثال لما يريد، أمر موظفيه في كل مكان أن ينظروا إلى الناس نظرتهم إلى أبنائهم، وأن يعاملوهم بالصبر والحسنى، فلا يعذبونهم ولا يسجنونهم بغيـــر مبرر معقول، وأمر موظفيه أن يقرؤوا هذه الإرشادات قراءة دورية على الشعب"(٧٧).

وكـــان بـــناءاً على دعوة هذا الملك الصالح للتقوى، أن زاد التراحم بين الـــناس والـــناس، وبيـــن الناس والحيوانات "فقد امتنع الناس اليوم بفضل قانون الـــتقوى الذي سنه صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك عن ذبح الكائنات الحية ليقدموهـــا فـــي قرابيـــنهم، أكثر من امتناعهم عن ذلك من قبل، امتنعوا عن قتل الأحيـــاء، وســـلكوا إزاء أقربائهم سلوكاً فاضلاً وكذلك إزاء البراهمة [وهم بمثابة أعدائهـــم]، وأصبحوا يستمعون لما يأمرهم به آباؤهم وأمهاتهم ومن هم أكبر منهم سناً"(٧٨).

ولقـــد بـــلغت التقوى بهذا الملك الصالح، " أن جعل نفسه رئيساً للطائفة الـــبوذية وأجـــزل لها العطايا، وشيد لها ثمانية وأربعين ألفاً من الأديرة لرجالها وبـــنى باســـمها فـــي أرجـــاء مملكته كلها مستشفيات للإنسان والحيوان، وأرسل مبشـــرين بـــالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً، وإلى جزيرة سيلان بل أرسل هـــاتيك الـــبعوث إلى ســـوريا ومصـــر واليونان حيث يحتمل أن تكون قد هيأت الطريق هناك للأخلاق المسيحية(٧٩).

---

(٧٧) ديورانت ٣/١٠٤

(٧٨) ديورانت ٣/١٠٥

(٧٩) ديورانت ٣/١٠٥

ثانياً: الفضائل والقيم
لدى البوذيين اليابانيين

مقدمة:

لــم تَدِنْ اليابان بالبوذية في بداية تاريخها المعروف، فقد كانت تدين بدين آخــر غير البوذية، دين روحي طوطمي سلفي، فلقد كانت العاطفة عند اليابانيين الأولين تجد ما يشبعها في العقيدة بأن لكل كائن روحاً في الطوطمية، وفي عبادة الأســلاف، وعبادة العلاقة الجنسية، فعندهم أن الأرواح سارية في كل شيء: في كواكــب الســماء ونجومها وفي نباتات الحقل وحشراته، في الأشجار والحيوان والإنســان. ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم حول الدار وساكنيها، ويــرقص مع ضوء المصباح ووهجه إذا رقص، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة . . . وكانوا يخافون الموتى ويعبدونهم(٨٠). وبصـــفة عامـــة، كان اليابانيون يتصفون في هذه الفترة بفضائل عديدة لعل أهمها الأمانة إذ تروي المدونات اليابانية القديمة عن أهل اليابان "أنه لا يقع بينهم سرقة وقــلما يشــكو أحدهم إلى القضاء"(٨١). فهم يشبهون في ذلك جيرانهم من الهنود والصينيين الذي يسوون خلافاتهم دون اللجوء إلى القضاء.

وفــي عــام ٥٢٢ ق.م جاءت البوذية، وكانت قد دخلت الصين قبل ذلك بخمســمائة عام، وقد دخلت اليابان خلال قارة آسيا، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً ســريعاً، وقد تآمر عاملان فكتب لهما النصر وهما: الحاجات الدينية عند الشعب، والحاجات السياسية عند الدولة، لأنه لم تكن بوذية بوذا هي التي جاءت إلى

---

(٨٠) ديورانت ٥/١٢-١٣

(٨١) ديورانت ٥/١٢

اليابان بما عُرفت به تلك البوذية من لا أدرية وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انمحاء الفرد في الكل، بل جاءتها بوذية ياماهنا بآلهتها الدينية الوديعة، واعترافها ببوذيين منتظرين يخلصون البشر، وبخلود الروح الإنسانية(٨٢).

وفي عصر متأخر ، دخلت الكونفوشيوسية اليابان، ولكنها كانت محدودة الأثر، ولم يكن لها ما للبوذية من سلطان- والآن لنتحدث عن الفضائل والقيم لدى البوذيين اليابانيين.

الزهد والرحمة والحرية:

عرفت اليابان كثيراً من الفضائل التي بدت لنا في تاريخها المكتوب، وكان من ضمن هذه الفضائل فضيلة الزهد والرحمة التي يتصف بها طغاتها، والحرية التي وصلت في عصر الإمبراطور بوشيموني، إلى حد أن أطلق العنان للشعب لكي يعبر عن شكواه، فلقد جند بوشيموني نفسه، "للغاية التي ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين، وهي محو الفقر. وكان ذلك في نفس الوقت الذي كانت ميزانية حكومته تعاني فيه عجزاً جاوز المألوف، فاستقرض من طبقة التجار قرضاً طائلاً، وهاجم إسراف الأغنياء، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقي، الذي ذهب إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللائي كن أجمل السيدات واكتفى في ثيابه بلبس القطن، وفي نومه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون، وفي طعامه بأبسط ألوان الطعام ووضع صندوقاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكاواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفي الحكومة على أي نحو شاءوا، فلما قدّم رجل يدعى باماشيتا عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها، أمر

---

(٨٢) ديورانت ١٤/٥

(٨٣) ديورانت ٣٣/٥

بوشيموني بالاتهام فقُرِئ على مسمع من الملأ وكافأ كاتبها على صراحته بأجزل العطاء"[٨٣].

النزاهة والشهامة والطاعة والوفاء :

كـــان السيافون اليابانيون، الذين يطلق عليهم الساموراي (الفرسان) في عهـــد الإقطاع، لهم أخلاقيات يتحلون بها للدفاع عن سادتهم، ومن هذه الأخلاق الـــتي تهمـــنا في هذا المقام "أنهم كانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية، ويأبون أن يُقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم، وكانوا لا يترددون في المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة، وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة مقترة، فلا يأكلون في اليوم إلا وجبة واحدة[٨٤].

وكان هؤلاء السيافون يكنون الولاء لسادتهم الإقطاعيين لدرجة تزيد على حبهم لآبائهم أو أبنائهم فكان من مألوف الأمر عند الساموراي، أن ينتحر الرجل مـــنهم إذا مات سيده لكي يخدمه ويحميه في الحياة الأخرى[٨٥]. فنحن نرى هنا جملة من الفضائل منها النزاهة والترفع عن المادية، والوفاء بالوعد والشهامة.

ومن الطبيعي والأمر كذلك، أن نجد أن طاعة الأبناء للآباء هي الفضيلة العـــليا الأساســـية عند اليابانيين بل إن علاقة الياباني بالإمبراطور كانت علاقة الحـــب والطاعـــة مـــن ولد إلى والده، ولبثت هذه الفضيلة الرئيسية في التشريع الخلقي كله تقريباً عند عامة الناس في اليابان حتى جاء الغرب بأفكاره الثورية- كما يقول ديورانت- التي تنادي بحرية الأفراد[٨٦] (*).

---

(٨٤) ديورانت ٣٩/٥ (٨٥) ديورانت ٣٩/٥

(٨٦) ديورانت ٦٥/٥

(*) لاشك أنّ هذه الفضيلة مازالت موجودة حتى يومنا هذا رغم انتشار الحضارة الغربية في اليابـــان، بـــل إنها لتعلل لنا كيف يفنى العامل الياباني في خدمة المؤسسة التي يعمل بها، حتى أنهـــم قد اعترضوا مرة عندما قررت الحكومة زيادة أيام العطلات، ولعل ذلك يفسر سر تقدم=

العفة والطهارة:

كـــانت العفة والطهارة من الفضائل التي يوليها اليابانيات اهتمامهن حتى لقد قتلت بعض النساء الطبقة العالية أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر، لكن كـــبوة واحـــدة- كمـــا يقول ديورانت- لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاءاً كاملاً(٨٧).

الرحمة:

لقـــد أضـــافت البوذية اليابانية في عقيدتهم بعض المشاعر الرحيمة التي يفيـــض بها الإنسان خلال عودته للحياة مرات ومرات عن طريق التناسخ. ولكن إلى جـــانب هـــذا كلـــه كانت عقيدة البوذية اليابانية تدفع كثيراً من البوذيين لأن يعـــتقدوا أنهـــم على استعداد أن يخلعوا على بني الإنسان جزءاً من الرحمة التي جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة، وفي كل مرة يقضـــون حيـــاتهم فـــي فضيلة، وكانت هناك عقيدة في آلهة رحيمة مثل مولاتنا كوانـــون ومـــثل جيزو الذي يشبه المسيح وفي أمثال هؤلاء تجد الرحمة الإلهية بأدق معانيها(٨٨).

وهـــا نحـــن قـــد انتهيـــنا من عرض بعض الفضائل والقيم عند البوذيين ورأيـــنا كيف أن كبح الجماح ومحاســـبة الذات ووأد الشهوات كانت من الفضائل عـــنـــد بـــوذا، ومن فضائلهم أيضـــاً احترام الجســـد وحفظه من تأثير الشهوات وذلك بالطهر والعـــفة، ومن الطهر والعفة أيضاً أن لا نمارس الحرام بجوارحنا،

=اليابان وازدهارها في عصرها الراهن، ومن تحولها من دولة محطمة ومنهزمة عسكرياً إلى دولة منتصرة اقتصادياً وحضارياً.

(٨٧) ديورانت ٦٥/٥

(٨٨) ديورانت ٧٠/٥

أو حواسـنا، وأن نمـارس الأمانـة، ومن التعفف أيضاً عدم البحث عن عيوب الآخـرين، أما فضيلة الطهارة والنقاء فلها عند البوذيين مرتبة سامية، فهي أفضل من السيادة على الدنيا كلها، بل أفضل من دخول الجنة.

أما الصدق فلقد وصل عند بوذا إلى درجة أنه جعله آية للبرهماني. ومن الصـدق أيضـاً عـدم النفاق وأن يطابق سلوكنا أفعالنا، و"الصدق" هو الطريق لـتهذيب الـنفس، ولقد حث بوذا إلى جانب كل ذلك على الرحمة والتعاطف، بل ورقـة الحاشية حتى لا تسئ إلى الآخر... وحب الآخر هو الطريق المؤدي إلى السـعادة "أمـا إذا أحببت نفسك فلن تقابلك السعادة"، ولم يحض بوذا على الحب فقط، بل أيضاً على عدم معاشرة الحاقدين الكارهين.

"والوفـاء بالعهد" من الفضائل عند البوذيين، ولقد أضاف بوذا إلى الوفاء اتقـان العمـل، بل إن قيام الإنسان بأداء واجبه هو نوع من الوفاء، فالملاحظ أن الفضائل عند بوذا متداخلة يؤدي كل منها إلى الآخر.

ومـن الفضـائل عند بوذا القناعة وعدم الطمع، غير أن القناعة يجب ألا تدعونـا إلى الكسـل، إنما تدعونا إلى الكرم، فالرجل البخيل لن يستطيع الصعود إلى الملأ الأعلى

ومـن الفضائل التي حث بوذا عليها "الحق والخير"، فمن يفكر في الحق والخيـر تفكيـراً عميقـاً يعتبر نفسه برهمانياً، ومن الفضائل التي ترتبط بالحق والخيـر بـرباط وثيق: العدل، فالقضاة الذين يحكمون بين الناس لابد أن يحكموا بالعدل، أما الذين يظلمون الأبرياء فسوف تحيق بهم المصائب.

وفـي عقيـدة مثل العقيدة البوذية، لابد أن يكون للتواضع وعدم الكبرياء قيمة كبيرة، فالشعور بالكبرياء شعور زائف.

ومـــن الفضـــائل الـــتي تمثل محوراً في عقيدة بوذا السلوكية، حثه على ممارســـة الخير وكراهية الشر، وأما إذا ارتكب الإنسان الشر، فباب التوبة مفتوح له.

ومن الفضائل التي تلفت النظر عند بوذا "التفكير والتعقل والحكمة"، وكل ذلك سوف يؤدي بالإنسان إلى السعادة، بل إنه يساعدنا على أن تكون لنا وجهات نظـــر، وأن يكون للإنسان وجهة نظر، هو فى حد ذاته فضيلة عند بوذا على أن تكون وجهة النظر واضحة جلية.

ومن الفضائل النادرة التي لم تتكرر كثيراً في الأديان الإنسانية "الشورى" فـــلقد اعتـــبرها بوذا فضيلة اجتماعية هامة، كما اهتم بوذا بفضيلة أخرى يعتبرها الأخلاقيـــون قاعدة أساسية في الأخلاق، وهي المساواة بين البشر، ولقد حث بوذا أتباعه صراحة أن يبشروا بين الناس بهذه الفضيلة.

ومن الفضائل النادرة أيضاً التي رأيناها، وإن كانت منتشرة في الهندوكية والزرادشـــتية، رحمة بوذا بالكائنات الحية غير الإنسان، فقد رأينا أنه كان يفزع من فكرة ذبح الحيوانات قرباناً للإله، بل إنه حرم قتل أي كائن حي بإطلاق.

ومـــع كل هذا رأينا أن بوذا لم ينس القيم التي وردت في معظم الشرائع، مـــثل الأمـــر بعـــدم الكذب، وأن لا يأخذ أحد شيئاً لم يعطَه، وعدم شرب الخمر، وأخيراً لا يقيمن أحد على دنس.

هذه هي بعض الفضائل والقيم التي قابلتناعند دراستنا للبوذية في الصين، ولقـــد رأينا أن الفضائل والقيم للبوذية في اليابان لا تختلف كثيراً عنها في الصين إلا فـــي بعـــض الخصائص التي تلفت النظر، فقد كان طغاتها يتصفون بالزهد والرحمة، وببروز النزاهة والشهامة و الطاعة كفضائل عند طائفة الساموراي أو الســـيافين، وطاعة الأبناء لآبائهم، وشدة ولاء الشعب للإمبراطور، وتقدير الناس

لكـبار السن بصفة عامة، ولعل هذه الصفة انحدرت إليهم من عقيدتهم القديمة فى عبادة الأسلاف، كل ذلك بالإضافة إلى الفضائل الموجودة عند البوذية الصينية.

وأياً كان الأمر، فكل هذه الفضائل والقيم التي وجدناها في الديانة البوذية فـي الصين واليابان، كل ذلك جاء بعيداً عن الوحي آلاف الأميال، وإن اتفقت مع الفضائل والقيم التي جاء بها الوحي على نحو ما نعرف، وهو دليل آخر على أن الإنسان قد حمل المسئولية الخلقية على عاتقه.

والآن ننتقل إلى فضائل الكنفشيوسيين وقيمهم •

الفصل السابع
الفضائل والقيم لدى الكونفوشيوسيين

مقدمة:

ولـــد كونج- فو- دزه، أوكونج المعلم كما كان تلاميذه يسمونه عام ٥٥١ ق.م في مدينة تشو-ني التي تقع الآن فيما يسمي ولاية شان تونج[١].

ولـــم يكـــن كونفوشيوس يختلف كثيراً عن سالفه بوذا من حيث اهتمامه بالســـلوك والحيـــاة الدنيويـــة، دون أدنى اهـــتمام بالحيـــاة بعـــد الموت، بيد أن كونفوشـــيوس لـــم يدعُ إلى الرهبانية كما دعى بوذا، وإن كان قد دعا إلى الزهد مـــثله، أمـــا الخـــلاف الآخـــر بيـــن كونفوشيوس وبوذا- على ما نرى- هو أن كونفوشـــيوس كـــان يعتـــنق الاشـــتراكية، بل نحن نظنه الواضع الأول للأسس الاشـــتراكية، ولقد داعبت خياله فكرة العالم الواحد "فإذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ الـــتماثل الأعظم)، أصبح العالم كله جمهورية واحدة، واختار الناس لحكمهم ذوي المواهب والفضائل والكفايات"[٢].

وفيمـــا عـــدا هذيـــن الخلافين، فإن كونفوشيوس يعتنق كثيراً من فضائل البوذية وقيمهـــا على النحو الذي سوف نراه، بحيث أننا نستطيع أن نقول أن كونفوشيوس كان حكيما بوذياً.

---

(١) ديورانت ٤/٤٠ (٢) ديورانت ٤/٦٣

أولاً: الكونفوشيوسية في الصين

الوضوح والأمانة في الرأي:

اشترك كونفوشيوس مع بوذا في الاهتمام بفضيلتي "الوضوح والأمانة في الرأي"، فلقد كان أول الدروس التي يلقيها المعلم يحث تلاميذه فيها على الاهتمام بهاتين الفضيلتين حيث يقول "كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوماً. فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه، وإذا لم تعرفه فأقر بأنك لا تعرفه وذلك في حد ذاته معرفة"[٣]، وهذا يذكرنا بقاعدة فقهية إسلامية تقول "من قال لا أعلم، فقد أفتى".

الحكمة وأداء الواجب :

لا عجب أن تكون الحكمة فضيلة هامة لدى مذهب كمذهب كونفوشيوس يهتم بالسلوك، ولقد سار كونفوشيوس، في نفس الدرب الذي سار فيه بوذا والهندوس من قبل، وهو طريق الحكمة، فلقد سأله أحد تابعيه أن يدله عليها فقال له كونفوشيوس "إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة"[٤].

وواضح جداً أن كونفوشيوس هنا ما زال يسير على درب البوذية والهندوسية في إجمال الفضيلة فهي "الواجب نحو الناس" وعليك أنت أن تحدد هذا الواجب وتفصّله. أما عن الحكمة في البعد عن الكائنات الروحية، فلقد تابع كونفوشيوس هنا البوذية والجانتية في البعد عن الغيبيات حتى لا ينشغل الإنسان

---

(٣) ديورانت ٥٢/٤

(٤) ديورانت ٥٣/٤

بشـــيء ســـوى السلوك مع احترام هذه الغيبيات، فالمسئولية الخلقية عندهم معلقة أولاً وأخيراً على رقبة الإنسان، وعليه شخصياً أن يعثر على فضائله وقيمه بنفسه لا أن يلتمسها من الخارج.

المعرفة هي المدخل للفضيلة:

يبدأ كونفوشيوس منهجه لإصلاح الأخلاق التي سادتها الفوضى بأن يتجه لـــلحكماء ليتبع طريقهم في نشر الفضائل، ذلك أن نشر الفضائل لا يمكن أن يبدأ إلا بالـــبحث عـــن حقـــائق الأشياء، أي أن المعرفة هي المدخل للفضيلة كما فعل اليونانيون بعد ذلك حين قالوا إن المعرفة خير والرذيلة جهل. يقول كونفوشيوس "إن القـــدامى الذيـــن أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدؤوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم، بدؤوا بتـــنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم، بدءوا بتهذيب نفوسهم ، ولما أرادوا أن يهذبـــوا نفوسهم، بدءوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، بدؤوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء.

فـــلما بحـــثوا عـــن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً، ولما كمل علمهم خلصـــت أفكـــارهم فطهـــرت قلوبهم، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم، ولما تهذبـــت نفوســـهم انتظمت شئون أسرهم، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم، ولما صلح حكم ولاياتهم أصبحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة"(٥).

فهـــدف كونفوشيوس إذن هو تحقيق أرقى الفضائل، والطريق إلى ذلك لا يكـــون إلا بممارســـة بعض الفضائل الأخرى مثل تنظيم المدينة، وتنظيم الأسرة، وتهذيب النفس وتطهير القلوب والإخلاص في التفكير والبحث عن حقائق الأشياء

---

(٥) ديورانت ٤/٥٤-٥٥

الشجاعة والذكاء وحب الخير والصدق والثقافة وسعة الفكر:

إن الرجل الفاضل في نظر كونفوشيوس لابد أن يتحلى بالثقافة فهو أولاً "يجب أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام"(٦). أما الإنسان الكامل في رأيه فيحوز على فضائل ثلاث كان سقراط ونتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال في كل واحدة منها بمفردها كما يقول ديورانت، تلك هي الذكاء والشجاعة وحب الخير، وهو يخشى أن لا يصل إلى الحقيقة، ولكنه لا يخشى أن يصيبه الفقر، واسع الفكر غير متشيع إلى فئة، وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح(٧). لقد أصبحت الثقافة فضيلة ربما لأول مرة في التاريخ.

وهنا يجب أن نشير إلى فضيلة "سعة الفكر وعدم التشيع إلى فئة" فإن ذلك سوف يؤدي بلا شك إلى أن يسود السلام والتواد بين الناس.

الطهارة

ومن ضمن الفضائل التي يهدف كونفوشيوس إليها، طهارة القلب والعقل، ولقد سلك إلى ذلك طريقاً فيزيقياً مضموناً سلكه اليونانيون فيما بعد؛ "فإذا أتقن الإنسان الموسيقى وقَوَّم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها، تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً سليماً رقيقاً، عامراً بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة. . فخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات أن توجه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلاد، والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب أن لا يهملهما الإنسان، فالخير شديد الصلة بالموسيقى، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام"(٨).

---

(٦) ديورانت ٤/٥٦

(٧) ديورانت ٤/٥٦-٥٧

(٨) ديورانت ٤/٦٢

الوقار والعطف والرحمة فضائل الحكام:

ذلك أن كونفوشيوس لم يهتم فقط بأخلاق العامة من الناس، بل اهتم أيضاً بـأخلاق الحكام، وما ينبغي عليهم أن يتحلوا به من فضائل. فلقد سأل كي كانج- أحـد تلاميذ كونفوشيوس- أستاذه يوما ما الذي يجعل الناس يحبون حاكمهم وأن يخلصـوا له وأن يلتزموا بالفضيلة ؟ فأجابه المعلم " فليرأسهم في وقار، يحـترموه، وليكن عطوفاً عليهم رحيماً بهم، يخلصوا له، وليقدم الصالحين ويعلم العاجزين يحرصوا على أن يكونوا فضلاء"(٩).

ومـن رحمـة الحكام بالمحكومين، يطلب كونفوشيوس منهم، تخفيف العقـاب لمن يستحق العقاب(١٠). فالوقار والعطف والرحمة والعدالة في تقديم من يستحق التقديم، كلها فضائل ينبغي على الحاكم الصالح أن يتحلى بها.

التفكير والقناعة والتواضع والعطف والوسطية :

رأينا فيما سبق أن " التفكير " و " المعرفة " هما من الفضائل عند كونفوشـيوس، وهو ما يزال يلح عليهما في تأديبه لتلاميذه؛ فمن أقواله "ما أشقى الـرجل الـذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء، لا يتواضـع فـي شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر، إن هذا الإنسان وباء"(١١).

وتمـثل القناعة ركناً هاماً في الأخلاق، وقلما تجد داعية للأخلاق لا يهتم بالقناعة اهتماماً خاصاً؛ يقول كونفوشيوس: إن الذي يبحث عنه الرجل الأعلى هو مـا فـي نفسه، أما الرجل المنحط فيبحث عما في غيره، والرجل الأعلى يحزنه نقـص كفايـته، ولا يحزنه ألا يعرفه الناس، ولكنه مع ذلك يكره أن يفكر في ألا

---

(٩) ديورانت ٦١/٤ (١٠) ديورانت ٦٢/٤

(١١)ديورانت ٤٣/٤

يذكــر اسمه بعد موته، وهو متواضع في حديثه، ولكنه متفوق في أعماله.. وهو معــتدل فــي قوله وفعله. والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط"[١٢]. فإلى جانب إعمــال الفكر والقناعة والتواضع، يضيف كونفوشيوس فضيلة أخرى هي التزام الطريق الوسط. ولقد ظهرت هذه الفضيلة بعد ذلك عند أرسطو.

أمــا قاعدته الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى فهي العطف الفيــاض عــلى الناس جميعاً[١٣] إنه الحب، تلك العاطفة التي اعتبرها كثير من الأخلاقييــن قمة القيم[١٤]، "والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس، فــإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم، وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره"[١٥].

وهو متسامح لا يبالي أن يفتري عليه الناس، أو يسلقوه بألسنة حداد، ولا يحقِّر من هم أقل منه[١٦].

الإخــلاص والعمل الجاد والصدق :

اهــتم كونفوشــيوس بــالحُكْم كما سبق أن رأينا، وهو ما زال يعالج هذه القضــية لأهميــتها، ففي هذه الفقرة يرى كونفوشيوس أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه الحُكْم، هو نفسه المبدأ الأول الذي تقوم عليه الأخلاق، ألا وهو "الإخلاص"، ولهــذا كــانت أداة الحكــم في نظره- كما يقول ديورانت- هي القدوة الصالحة، ومعــنى هــذا أن الحاكم يجب أن يكون هو المثل الأعلى في السلوك الحسن حتى يحذو الناس حذوه، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه[١٧].

ولكن "الإخلاص" حتى ولو كان كاملاً، لا يميز الرجل الأعلى ولكن

---

(١٢) ديورانت ٥٧/٤

(١٣) ديورانت ٥٨/٤

(١٤) زكريا [ب] ٣٢٠

(١٥) ديورانت ٥٨/٤

(١٦) ديورانت ٥٩/٤

(١٧) ديورانت ٦١/٤

العمل الجاد والصدق يجب أن يضافا إليه "إنه- أي الرجل الأعلى- يعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم وفق ما عمل"(١٨).

فالإخلاص والعمل الجاد والصدق، كلها فضائل لابد أن تسود المجتمع خاصة الرجل الأعلى.

حب لأخيك ما تحب لنفسك:

فكونفشيوس يتمسك هنا بالقاعدة الذهبية في الأخلاق، التي نص عليها هنا صراحة قبل هِلِل بأربعة قرون، وقبل المسيح بخمسة. فقد سأل جونج جنج المعلم عن الفضيلة الكاملة، فكان جوابه "الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك"(١٩). فالرجل الأعلى يتحرك حيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاماً، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاماً، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ، وهذا يعني أنه سبق قانون الأخلاق الإلزامي لكانط في كتاب ميتا فيزيقا الأخلاق وهو "لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قانوناً عاماً شاملاً"(٢٠).

ثم يضع كونفوشيوس بعد ذلك قاعدة أخلاقية عامة أخرى، والتي هي في الواقع العامود الفقري للاجتماع البشري، ذلك أن تزه جونج سأله مرة: أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته؟ فأجابه المعلم: أليست هذه الكلمة هي المبادلة؟(٢١)، فمن المعروف أن القوة المحركة للاجتماع البشري هي "التبادل"، والتبادل قانون أخلاقي أيضاً، فمن أحسن إليك وقدم إليك الود والإخلاص. . الخ، لابد أن تبادله نفس هذه الخيرات على الأقل.

(١٨) ديورانت ٥٧/٤
(١٩) ديورانت ٥٨/٤
(٢٠) ديورانت ٥٨/٤ وكانط ٧٩ ، ١١٠
(٢١) ديورانت ٥٨/٤

إن لم يكن أكثر منها.

الرحمة بالمسنين والأرامل واليتامى

مـــن حســـن حظ المسنين- وأنا منهم- أن الذين يضعون قواعد الأخلاق يكونون من المسنين غالباً، ولذلك فإنهم يتعاطفون معهم، على الأقل بحكم التجربة ولقد قلنا فيما سبق، أن كونفوشيوس كان صاحب دين سلوكي عالمي، وكان يظن أنـــه يمكـــن بتطبيق الاشتراكية والمبادئ الفاضلة أن يتوحد العالم أجمع في دولة واحـــدة. وكان من ضمن الفضائل التي دعا إليها داخل جمهوريته التراحم بكبار الســـن؛ فالآباء ليسوا بالضرورة هم الذين ولدونا، فأي كبير للسن هو أب لنا، كما أن أي طفـــل هو بالتالي ابن لنا. ولذا ينبغي على هؤلاء المواطنين أن يهيئوا سبل العيـــش للمســـنين حـــتى يستوفوا آجالهم، ويهيئوا العمل للكهول، ووسائل النماء للصـــغار ويكفـــلوا الحياة للأرامل من الرجال والنساء واليتامى وعديمي الأبناء، ومـــن أقعدهـــم المـــرض عن العمل، هنالك يكون لكل إنسان حقه، وهناك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها[٢٢].

القناعة للدولة بأكملها والعدالة في توزيع الثروة:

قلـــنا إن كونفوشـــيوس كان يدعو إلى دولة عالمية، وإلى أن تتحقق هذه الجمهورية الفاضلة، فإنه يدعو دولته- أي الصين- إلى القناعة "وأن يعملوا على أن يكـــتفوا بغلّاتهم عن غلات غيرهم حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك، ويعملوا على توزيـــع الثروة في أوسع نطاق لأن تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته"[٢٣].

---

(٢٢) ديورانت ٦٣/٤

(٢٣) ديورانت ٦٢/٤

وبالطبع سوف تتقارب الطبقات في دخولها ويقل الحقد بين الطبقات الدنيا والطبقات الأعلى ويسود السلام الجميع. وهنا نرى الاشتراكية تتجلى بأوضح صورها.

هذا ولقد ظلت فضائل كونفوشيوس مثلاً أعلى في الصين إلى عصر قريب -وربما حتى الآن- فحين مات (أيياسو) في نفس العام الذي مات فيه شكسبير خلف هذا الحاكم العسكري القوي سلطانه إلى ابنه (ميديناما) مصحوباً بنصح بسيط وهو "ارعَ أبناء الشعب، وحاول أن تكون فاضلاً، ولا تهمل أبداً في حماية البلاد، وكذلك قدّمَ النصحَ إلى الأشراف الذين وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره، فكان نصحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عُرفت عند كونفوشيوس ومنشيوس، إذ قال لهم: لقد بلغ ابني الآن سن الرشد، ولست أشعر بأي قلق على مستقبل الدولة، ولكن إذا ما اقترف خلفي خطأ فادحاً في إدارة حكومته فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم، فليست البلاد ملكاً لرجل واحد، ولكنها وطن للأمة بأسرها، وإذا ما أضاع حفدتي سلطانهم بسبب أخطائهم، فلن آسف على ضياعه منهم"[٢٤].

وأخيراً، فإن كل هذه الفضائل التي دعى إليها كونفوشيوس، تنبع من داخل الإنسان لا خوفاً من عذاب في الآخرة، ولا طمعاً في ثواب عند الحساب ودخول الجنة، ولكنها تنبع من ضميره ذاته طالما أن كونفوشيوس نحّى الغيب جانباً عند وضع قواعده الأخلاقية، وأحل الضمير محله، وفي نطاق فضائل كونفوشيوس، ومن قبله بوذا، يمكن- بصفة عامة- القول بأن الصيني العادي كان مثالاً يحتذى في طاعة الأبناء للآباء، وإخلاصهم ووفائهم لهم، وفي احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضا واختيار[٢٥]، وأنه وإن كان يستطيع

---

(٢٤) ديورانت ٥/٣٢-٣٣

(٢٥) ديورانت ٤/٢٧٤

أحيانـــاً أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب، إذا توالت عليه المظالم، ولكنه في جميع أحوالـــه تقريـــباً، رجـــل مســـالم رحيم، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه، يحتقر المجـــرمين والمحاربين(*)، مقتصد مجد مثابر على عمله، وإن كان لا يعجل فيه بســـيط فـــي أســـلوب حياته، لا يحب التظاهر والتصنع.شريف إلى حد كبير في معاملاتـــه التجارية، وكان من عاداته الصبر على النوائب(٢٦). كافة هذه الفضائل جاءت بعيداً عن موضع نزول الوحي وإن اتفقت معه على النحو الذي نعرفه.

والآن ننتقل إلى الفضائل والقيم لدى بعض حكماء الصين واليابان •

(*) عـــلى عكـــس الهنود، الذين كانوا يمجدون المحاربين ويجعلونهم طبقة عليا كما رأينا في الفصل الخاص بالهندوس.

(٢٦) ديورانت ٤/٢٧٥.

الفصل الثامن

الفضائل والقيم لدى بعض حكماء الصين واليابان

أولاً: حكماء الصين

تناولنا فيما سبق الأخلاق عند الصينيين البوذيين والكونفوشيوسيين. غير أن البحث في الأخلاق لم يكن وقفاً على بوذا أو كونفوشيوس ، بل لقد تناوله بعض الحكماء وفيما يلي عرض لآرائهم:

أ- دوق جذ: (~ ٨٤٥ ق.م)

حرية الرأي:

جاء هذا الحكيم بعد عصر بوذا بحوالي ١٥٠ عاماً، ولقد اهتم هذا الحكيم بحرية الناس بصفة خاصة، وكانت له آراء عملية في الحرية أعلنها في خطبة ألقاها بين يدي الملك لي- وانج حوالي عام ٨٤٥ ق.م فحدد المعايير التي تحدد مدى نجاح الملك في حكم بلاده. ومما جاء في هذه الخطبة "يَعرِفُ الإمبراطور كيف يحكم، إذا كان الشعراء أحراراً في قرض الشعر، والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات، والمؤرخون أحراراً في قول الحق، والوزراء أحراراً في اسداء النصح، والفقراء أحراراً في التذمر من الضرائب، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرة، والعمال أحراراً في مدح مهارتهم وفي السعي إلى العمل، والشعب حراً في أن يتحدث عن كل شيء، والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء"[1]، فهذه المعايير تدور حول فضيلة واحدة هي "حرية الرأي"، ومن المعروف أن حرية الرأي عمود من عُمد الديمقراطية.

---

(١) ديورانت ٣/٤

ب- منشيس:

الحرية والسلام والصلاح:

كان منشيس الذي جاء بعد كونفوشيوس يمجد الحرية تمجيداً كبيراً لدرجة أنـــه كان ينادي بحق الشعوب في الثورة، وينادي بهذا المبدأ في حضرة الملوك، وكـــان يـــندد بالحرب ويراها جريمة، ولشد ما صُدِم عُبادُ الأبطال في أيامه حين كتب يقول " من الناس من يقول إني بارع في تنظيم الجند، وإني ما هر في إدارة المعارك، أولئك هم كبار المجرمين"[٢].

وقال في موضع آخر "ليس ثمة حرب عادلة"[٣]، وكان يندد بترف حاشية الملوك، ويوجه أشد اللوم لذلك الذي يطعم كلابه وخنازيره، ويترك الناس يموتون جوعـــاً. "ولمـــا قال أحد الملوك أنه لا يستطيع منع المجاعة، أجابه منشيس بأنه ينبغي له أن يعتزل المُلك"[٤].

وكان من شدة صراحته وتقديسه لحرية الرأي، أن سأله الملك شوان مرة عـــن مـــن هـــم الوزراء العظام، فأجابه منشيس: " إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة، وجب عليهم أن يعارضوه، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة، وجب عليهم أن يخلعوه"[٥].

وكان منشيس وهو يعظ الحكام، يدعو إلى الصلاح وكان همه أن يرسم طريقة للحياة الصالحة، وتولى خيار الناس مقاليد الحكم، وكان مبدؤه الأساسي أن الـــناس أخيار بطبيعتهم- على عكس ما قال هوبز فيما بعد[*] وأن منشأ المشاكل الاجـــتماعية ليـــس طـــبيعة الناس، بل منشأها فساد الحكومات، ومن ثم يجب أن

---

(٢) ديورانت ٨٢/٤

(٣) ديورانت ٨٢/٤

(٤) ديورانت ٨٢/٤

(٥) ديورانت ٨٢/٤

(*) أحد فلاسفة الاجتماع[٩]

(٩)انظر الطويل ١٧٨

يصـــبح الفلاسفة ملوكاً، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة[٦]، والحاكم الصالح فـــي رأيـــه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية، بل يشنها على العدو المشترك وهـــو الفقـــر، لأن الفقر والجهل، هما منشأ الجرائم، واضطراب النظام، وعقاب الـــناس عـــلى ما يرتكبونه من الجرائم لأنه لا تتاح لهم فرص للعمل شَرَكٌ دنئ ينصب للإيقاع بالناس[٧].

مودى الفيرى(~ ٤٥٠ ق.م)

المحبة للناس جميعاً والتراحم:

أما مودى الفيري الذي ولد بعد كونفوشيوس بقليل، فقد كان مسيحياً قبل مجـــيء المســـيحية، فلقد كان "يحب الناس جميعاً، وكان يود لو يستطيع أن يبلى جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه إذا كان في هذا خيرٌ لبني الإنسان"[٨] فكأنه- كما يقول ديورانت- يبشر بالمسيح قبل مجيئه بما يزيد عن أربعة قرون، ولقد تحدثنا في المقدمة عن أهمية الحب باعتباره محركاً أخلاقياً هاماً.

ولقد رفض مودى تفكير كونفوشيوس- كما يقول ديورانت- لأنه في ظنه تفكيـــر خيـــالي غير عملي، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً، "فالحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية، فإذا ما عَـــمَّ الحـــبُّ العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التي يحب الـــناس فيهـــا كـــلهم بعضهم بعضاً، ولا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم، ولا تنهب كـــثرتهم قلتهم، ولا يزدري أغنياؤهم فقراءهم، ولا يسفه عظماؤهم صغارَهم، ولا يخدع الماكرون منهم السذج"[١٠].

---

(٦) ديورانت ٤/٨٠

(٧) ديورانت ٤/٨٠-٨١

(٨) ديورانت ٤/٧٠

(١٠) ديورانت ٤/٧١

ثانياً: حكماء اليابان

رأينا فيما سبق طرفاً من الفضائل والقيم عند اليابانيين البوذيين، غير أنه كـــان هناك- بطبيعة الحال- حكماء يابانيون لهم وجهة نظرهم في الأخلاق التي لا تتفق مع وجهة النظر البوذية، ولكنها تتفق مع تصور هؤلاء الفلاسفة للوجود.

أ- نا كايي

الضمير:

فهـــا هـــو الفيلســـوف نا كايي الذي يشبه اسبينورا يعتقد بوجود ضمير كَوْنِـــي، وهي نظرة من نظرات وحدة الوجود التي كانت تظهر في الفكر الفلسفي والصـــوفي ثـــم تختفي. كان هذا الفيلسوف يقرر وجود عالَمين، عالم المادة، أي عـــالم الأشـــياء، وعالم الضمير "إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذي يخضع في ســـيره لمنطق العقل، لكن هناك عقلاً آخر يسمى بالضمير، وهذا هو الجانب الذي لا ينتمي إلى عالم الأشياء، بل هو لا نهائي وأبدي، لأنه لما كان الضمير فينا هو العقل الإلهي أو الكوني، كان بغير بداية أو نهاية، فإذا ما سلكنا في أفعالنا مهتدين بهـــذا الجـــانب مـــن العقـــل، أي الضمير، كنا بمثابة التجسيد اللانهائي والأبدي، وكـــانت لنا حياة خالدة إلى الأبد"[١١]. المهم في كل ذلك أن الفيلسوف نا كايي قد بحـــث فـــي الضـــمير وهو العنصر الرئيسي في الأخلاق، وبشر بأن الذي يتبع الضمير فسوف يخلد أبد الدهر.

---

(١١) ديورانت ٨١/٥

ب- أوجيو سوراي

الضمير:

إذا كـنا في الفقرة السابقة رأينا أن ضمير الإنسان هو جزء من الضمير الإلهـي أو الكونـي، فإن من فلاسفة اليابان من لا يرى ذلك على الإطلاق، بل يرى أن " الضمير" من صنع الإنسان، اخترعه لحاجة عملية بحت، فهو عمل من عمل العقل الإنساني. فهذا المفكر وهو أوجيو سوراي يرى- كما رأى الفيلسوف هوبـز فيمـا بعـد- أن الإنسان شرير بطبعه، ولا يجعل منه مواطناً مقبولاً إلا الأخلاق والقوانين التي يضعها الحكماء، فيقول سوراي "تثور في الإنسان شهواته بمجرد ولادته، فإذا عجزنا عن تحقيق تلك الشهوات في أنفسنا- وهي شهوات لا حد لها- ينشأ النزاع، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى، ولما كان الملوك القدامى يكـرهون الفوضى، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة في السلوك، واستطاعوا بهمـا أن يلجموا شهوات الناس، فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايـا الإمـبراطورية، فهي لم تنشأ مع الفطرة، ولا مع نزوات القلب الإنساني، لكـنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتازت بذكائها ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان"(١٢).

والحقيقة نحن لم نرفض أبداً في هذا البحث مصدراً معيناً للإلزام الخلقي فالذي يهمنا في هذا المقام هو وجود الأخلاق من أي مصدر إلزام حتى ولو كانت موضـوعة، بل إن "وضع" الأخلاق واستهدافها يلقي على الإنسان مسئولية أكبر في إدراكه للقيم.

ها قد رأينا أن حكماء الصين الذين كانوا يعيشون في ظل البوذية، كانت لهـم معالجـاتهم للأخـلاق، فاهـتم دوق جَدْ "بحرية الرأي" التي يتيحها الحاكم لمحكوميـه، وجعلها معياراً لمدى صلاحية هذا الحاكم، ولقد اهتم منشيس بالحرية

---

(١٢) ديورانت ٥/٨٥

والرحمة والسلام والصلاح، فأقر حقوق الشعوب في الثورة على حكامها الفاسدين، وأدان الحرب فهي دائماً غير عادلة، وكان يوجه أشد اللوم لأولئك الذين يطعمون كلابهم وخنازيرهم، ويتركون الناس يموتون جوعاً. أما مودى الفيرى فقد كان يحب الناس جميعاً. وكان يود لو يبلى جسمه كله من أجل خلاص الإنسان، ومن ثم فقد بشر بالحب بين الناس حتى تعم السعادة للجميع.

أما حكماء اليابان الذين عرضنا لهم، فقد اهتم نا كايي "بالضمير" واعتبره عنصراً إلهياً حل في البشر جميعاً، أما أوجيو سوراي فقد اهتم أيضاً بالضمير، وإن كان يعتبره من صنع الإنسان.

وأياً كان مدى اتفاق هؤلاء الحكماء أو اتفاقهم، فقد بحثوا جميعاً في الحياة الخلقية التي تحقق السعادة للإنسان، وكانوا جميعاً بعيدين عن مواطن الوحي، فحملوا بذلك المسئولية الأخلاقية على عاتقهم، خاصة أن فضائلهم وقيمهم لم تخرج عما جاء بالوحي إلا قليلا ، كالثورة على الحكام وخلعهم إذا فشلوا فى حكم البلاد كما رأينا عند منشيس ، فلا أظن أن الأديان **الإلهيـــة قد احتوت على** شيء من ذلك. **ولننتقل بعد ذلك لليونان لنرى ما هى قيمهم وفضائلهم .**

الفصل التاسع

الفضائل والقيم لدى اليونان القديم

مقدمة

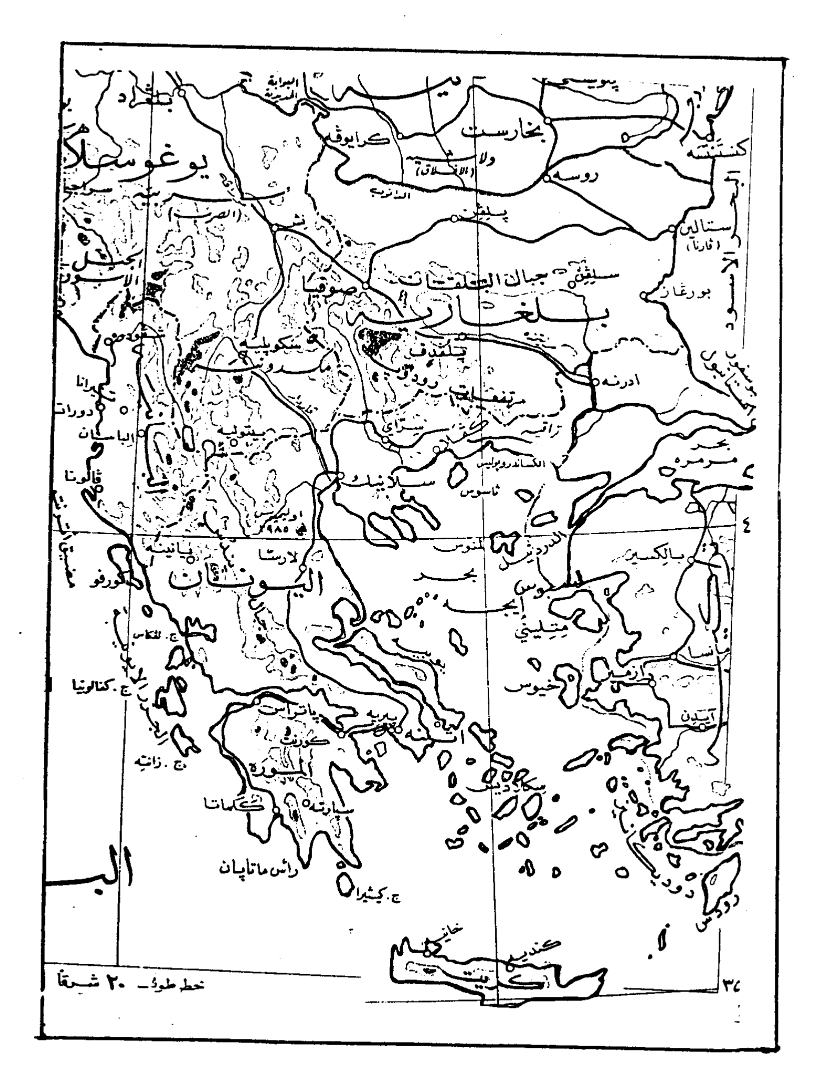
لـــليونانيين القدمـــاء ديانـــة ككـــل الشعوب الوثنية، فهناك آلهة عديدة قد يصـــعب حصـــرها، ولكن كبير الآلهة هو الإله زيوس، أما الآلهة الأخـرى فأقل منه شأناً، وقد رأينا أن الآلهة الصغرى في البنية اللاهوتية ألوثنية، تقابل الملائكة فـــي البنية اللاهوتية الإلهية ، وكانت كل مدينة لها آلهتها الخاصة بها على حدة، ولها معتقداتها التي تختلف قليلاً أو كثيرا عن سائر المدن الأخرى. فالكريتي مثلاً (٣٥٠٠ ق.م- ١٠٠٠ ق.م) ربمـــا كان وحشياً قاسياً، ولكنه كان بلاشك متديناً [بديـــن] يتركب من مزيج بشري من كل من الفتشية والخرافة من جهة، والمثالية وتعظـيم الأربـــب [أي الأربـــاب] من جهة أخرى، "فهو يعبد الجبال والمغارات والعـــدد ٣ والأشـــجار والأعمـــدة، والشـــمس والقمر، والمعز والأفاعي واليمام والـــثيران، وقـــلما يســـلم شيءٌ من عبادته، والهواء في اعتقاده مملوء بالأرواح الطيـــب منها والخبيث، وتنتقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفافة من جن الحراج [الأحراج]، منها الذكور ومنها الإناث"[١].

غيـــر أنه في الفترة ما بين عام ١٠٠٠ ق.م إلى عام ٤٨٠ ق.م[٢] أصبح في وسعنا أن نلقي شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيماً مصطنعاً إلى سبع مجموعات: آلهة السماء وآلهة الأرض،

---

(١) ديورانت ٢٨/٦

(٢) ديورانت ١٢٣/٦



خريطة حديثة لليونان

وآلهـــة الخصب والآلهة الحيوانية وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطـــال، والآلهة الأوليمبية. أما أسماؤها فمما يشق على الإنسان ذكرها كما يقول هزيود[٣].

وكـــانت الأرض لا السماء موطن معظم الآلهة اليونانية، فكانت الأرض نفســـها فـــي بـــادئ الأمر، هي الإلهة جي Ge أو Gaea الأم الصابرة السمحة الجزيـــلة العطـــاء[٤]. وليـــس فـــي أساطير اليونان ذكر لخلق العالم. فقد وُجدت الأرض قـــبل أن توجـــد الآلهة. ولم تَخلق الآلهة الإنسان من حمأ، بل خلقته من تـــزاوج الذكور منها بالإناث، أو بتزاوجها بأبنائها غير الخالدين، و(الله) في دين اليونان ليس إلا والداً، كما أن الآلهة الأوليمبية ليست قادرة على كل شيء عارفة بكـــل شـــيء، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً[*] وكلها بمـــا فيهـــا زيوس نفسه يمكن أن تخدع، غير أنها عن بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها، وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ومُنزِل المطر الذي لا غنى للناس عـــنه، ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر الهادئ القوي الجالس فوق أُليمبس الملـــتحي الوقـــور، رأس الـــنظام الأخلاقي ومصدره في العالم كله، يعاقب غير الـــبررة مـــن الأبـــناء، ويحمي أملاك الأسرة، ويوثق الإيمان، ويعاقب الخائنين، ويحفظ الحدود والمساكن والمتضرعين والأضياف[٥].

ومـــع هـــذه الكثرة من الآلهة ذات الاختصاصات المتباينة، لم يكن للدولة دين رسمي يستمسك به جميع أفرادها، أو عقائد ثابتة مقررة، ولم يكن قوام الدين

---

(٣) ديورانت ٣٢١/٦ (٤) ديورانت ٣٢٢/٦

(*) يمكنـــنا أن نظـــن- مـــع قليل من المغامرة- أن ذلك يعتبر أصلاً بعيداً لمبدأ الفصل بين الســـلطات، ورقابة بعضها على الآخر المطبق في نظم الحكم الديمقراطية، بل ربما كان هو الأصل الديني لفكرة الديمقراطية اليونانية.

(٥) ديورانت ٣٢٩/٦

هــو الإقــرار بعقائد معينة، بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية، وكان في وسع أي إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد، على شريطة ألا يكفر بآلهة المدينة أو يسبها، ومِلاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً في بلاد اليونان[٦]!

مــن كــل ما سبق، فإنه يَبين لأول وهلة- كما يقول ديورانت- أن الدين اليونـــاني لــم يكن ذا أثر كبير في الأخلاق، فقد كان في أصله طائفةٌ من قواعد الســحر لا مــن قواعد الأخلاق القويمة، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخــر أيــام اليونــان، وكــان لصحة المراسم والطقوس في هذا الدين شأن أكبر للســلوك القويم، ولم تكن الآلهة نفسها الأولمبية، والأرضية مثلاً طيباً في الأمانة والعفــاف ودماثة الأخلاق، وحتى الشعائر الألوسينية الخفية كانت تجعل التطهير بالمراســم والطقــوس لا طهــارة النفس[*]، وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر في الــنجاة مــن العذاب، وإن كنا لا ننكر- كما يقول ديورانت- أنها كانت تبعث في الــنفوس آمالاً كباراً، لكن الدين اليوناني رغم هذا كان عوناً خفياً للشعب وللدولة فــي أكثر الشئون الأخلاقية حيوية، من ذلك أن مراسم التطهير، وإن كانت كلها مظاهــر خارجيــة، ترمــز إلى الأخــلاق القويمة، كذلك كانت الآلهة تعين على الفضــيلة، وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة، وغامضة وغير مطردة، ذلك أنهــا كانت تغضب على الشرير، وتنتقم من المتكبر، وتحمي الغريب، وتستجيب لمــن يتوســل إليهــا، وتحمي بجبروتها قدسية الإيمان، فهم يقولون لنا إن ديكي Dike كــانت تعــاقب على كل ظلم، وإن يومنيدس Eumenides الرهيب كان يقتــني أثر القاتل كما يفعل أرستيز حتى يُجَن أو يموت، وكان الدين يخلع القدسية

(٦) ديورانت ٣٤٨/٦-٣٤٩

(*) لا شك أن طهارة النفس هي بذرة الضمير.

والكــرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها كالمولد والزواج والأسرة والعشيرة والدولة، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة[٧].

ومــن وجــود بصــيص من الحث على الفضيلة في الدين اليوناني، هو شــيوع اعتقاد جديد- بعد عصر هومر- بين الطبقات الفقيرة مضمونه أن الجحيم مكــان يُكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم، ويصور اسكلس زيوس [كبير الآلهة] وهو يحاســب الموتى في ذلك المكان، فيعاقب المذنبين، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عــن إثابــة الصــالحين، غير أنه كانت هناك بعض الأقوال القليلة عن الجزائر المــباركة، أو الحقول الأليزية مواطن السعادة الأبدية، التي ينعم فيها عدد قليل من أ رواح الأبطال[٨].

غيــر أنه مما يحمد لليونان، أن يكون منشئ الفلسفة الخلقية هو فيلسوف من أعظم فلاسفتهم وهو سقراط (-٣٩٩ ق.م)[٩]، وهذا دليل آخر على أن الدين لــم يكن ذا صلة وثيقة بالأخلاق عند اليونان بالذات، فلقد كان سقراط ملحداً لدين أثينا.

والملاحــظ فــي الفضائل والقيم عند اليونان، أن حكماءهم وفلاسفتهم قد اهــتموا اهتماماً كبيراً بتعريفها. يقول الدكتور توفيق الطويل " كانت المحاورات الــتي كتــبها أفلاطون في بدء حياته- وهي التي تغلب عليها النزعة السقراطية- يشــيع فيهــا الــبحث فــي تعــريف المفهومات الأخلاقية، فمحاورة شارميدس Charmides تتوخى تعريف العفة أو الاعتدال temperance or modiration ومحــاورة ليسس Lysis تهتم بتعريف الصداقة، ومحاورة لاخس تُعني بتعريف الشجاعة... الخ"[١٠].

---

(٧) ديورانت ٦/٣٦٥-٣٦٦

(٨) ديورانت ٧/١٣١

(٩) الطويل ٢٩

(١٠) الطويل ٣٣

ومن الغريب في الأمر أن هؤلاء الفلاسفة رغم اهتمامهم الكبير بالفضائل والقيـم والتـنظير لهـا، فـإنهم لم يحثوا علبها مثلما رأينا عند قدماء المصريين وفراعنتهم مثلاً، أو كما رأينا عند الهندوس والبوذيين والزرادشتين وغيرهم.

أي أن فلاسـفة اليونـان- فـي غالب الأمر- حين تحدثوا عن الفضائل والقيـم، لـم يتحدثوا عنها من جانب عملي أي من جانب ممارستهم لها، بل من جـانب عقلي تحليلي، فلقد طبقوا عليها منهجهم الإبستمومولوجي. يقول الدكتور توفيـق الطويل "وكما اهتدى سقراط بالعقل إلى الحقائق الثابتة في مجال المعرفة، توصـل عن طريقه إلى القيم المطلقة في مجال الأخلاق، وبدت الطبيعة البشرية فـي نظـره جسماً وعقلاً يسيطر على دوافع الحس ونزواته، وليست مجرد حشد مـن الشهوات كما تصورها السوفسطائية وإذا كانت قوانين الأخلاق تتعارض مع الجـانب الحيواني، فإنها تتمشى مع طبيعتها الإنسانية العاقلة، وهي شريعة العقل، ومـن هـنا كانت عادلة، وطاعتها احترام العقل، وعصيانها خليق بالعقاب إن لم يكن في دنيا الحاضر، ففي حياتنا الأخرى"[١١].

أمـا الوجـه الآخـر للأخـلاق عـند فلاسفة اليونان، فهو ما نراه عند السوفسطائيين الذين كانوا يرون الإنسان مقياساً لكل شيء، وإذا كان الأمر كذلك فلابـد مـن إرضـاء الإنسان. يقول الدكتور توفيق الطويل "وكان السوفسطائية يقولـون باللذة غاية لأفعال الإنسان اعتقاداً منهم بأن الطبيعة البشرية لا تعدو أن تكـون شـهوة وهوى، فقالوا لن تكون سعيداً متى خضعت لقانون، فمن حقك أن تسـتخدم ذكائك في إشباع شهواتك وتحقيق سعادتك، وإن اقتضاك الحرص على مصـلحتك أن تـتخفى وتـتظاهر بالتقوى والاستقامة، أما سقراط فقد رفض هذا الموقـف برُمّـتِه ونفر من القول باللذة غاية لأفعالنا، وطالب بالسعادة التي تقوم عنده في سيطرة العقل على دوافع الشهوة ونوازع الهوى، ورد الإنسان إلى حياة

---

(١١) الطويل ٣٣-٣٤

الاعتدال، ومتى عرف الإنسان ماهيته وأدرك خيره؛ أتاه لا محالة، لأن الفضيلة وليـدة المعـرفة، فمـتى عرفت الخير حرصت على فعله، ومتى أدركت الشر توخيت أن تتجنبه، ولا يأتي الشر إلا من جهله، وهكذا بدت العلاقة وثيقة بين الفضـيلة والمعرفة، وهي علاقة ميزت سقراط وأفلاطون وكادت تشيع في الفكر اليوناني كله"(١٢).

بعد هذه المقدمة الطويلة شيئاً ما نتحدث على الفضائل والقيم عند اليونان بشيء من التحديد.

الخداع والقسوة:

نـبدأ فـي هذه الفقرة بعرض فضائل منتشرة، كانت موجودة في عصر الآخييـن (١٣٠٠- ١١٠٠ ق•م) ، ولكنها لم تستمر في العصور التالية، فلقد أدت وظيفـتها في عصرها، وهجرها أهلوها بعد أن كانت من الفضائل لديهم، ونعني بهـا الغدر والكذب والقسوة فالآخيون- كما يقول ديورانت- يتصفون فضلاً عن حـبهم للـنهب والقتل دون أن يخشوا في ذلك تأنيب الضمير، يشتهرون بالكذب والخـداع دون حياء، فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه، أو يعمل عملاً دون أن يشوبه الغدر، ومن لا يمارس ذلك من الآخيين يحسدون أديسيوس ويعجـبون بـه، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب، وحتى الإلهة أثينا نفسها [كما جـاء في الإلياذة] تثنى عليه لكذبه وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التي تحببه إليها(١٣).

ويعـتذر ديورانـت عن هذه الأخلاق قائلاً: " والحق أن المعايير الخلقية عـند الآخييـن تختـلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم، فالـرجلُ الآخيُّ يعيش في عالم مضطرب، كدراً جوعانا، على كل إنسان فيه أن

(١٢) الطويل ٣٤ (١٣) ديورانت ٦/٩٥

يُعنى بحراسة نفسه، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه، قادراً على أن ينظر في هدوء إلى الدم المراق... وإذا كان الآخي لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة في بلاده، فإنه لا يرعى شيئاً منهما في خارجها، ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف، وأسمى الفضائل في رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة، ولفظ الفضيلة في لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares المريخ(١٤).

وهذا يدل من جهة أخرى على أن الفضائل اجتماعية، تنشأ في المجتمع لتؤدى دوراً اجتماعياً، وحين يتعرض هذا المجتمع للتغير ويصبح في غير حاجة إلى بعض فضائله، يتخلى عن هذه الفضائل ويهجرها، بل إنها حين تتلكأ في الرحيل تصبح من الرذائل المكروهة والتي يعاقب من يرتكبها إما بزجر المجتمع له، أو بإقامة الحد عليه بعد أن كان يثاب عليها، ونستطيع القول إن الفضائل والقيم بنيوية أي توجد في بنيات اجتماعية، وأنها مرتبطة بسائر عناصر البيئة، ولا يمكن فصل فضيلة ما من مجتمع معين للحكم عليها منعزلة، بل لابد من الحكم عليها داخل هذا المجتمع بالذات بظروفه الجغرافية والإكولوجية والتاريخية، وعلى أي حال فإن الأمر لم يستمر في اليونان بهذه الصورة، ولكننا سوف نرى فيما يلي تغيراً هائلاً في الفضائل والقيم عند اليونانيين في العصر التالي لعصر الآخيين، بل إن هذا العصر لم يكن يخلو من الفضائل والقيم طبقاً لمعاييرنا نحن كما سوف نرى في الفقرة التالية.

التعاطف والكرم:

وعن اليونان في عصر الآخيين أيضاً (أي عصر الأبطال كما جاء في أشعار هوميروس)، كانت الحياة الهوميرية فقيرة في الفنون غنية في النشاط العمل، وهي ثقافة ينقصها التفكير والتأمل، وهي أصغر سناً وأصلب عوداً من

---

(١٤) ديورانت ٦/٩٦

أن تهـتم بالأخلاق أو الفلسفة، وهذا يؤيد الرأي القائل بأن الفضائل والقيم لا تنشأ دفعـة واحـدة، ومع ذلك فكما يقول ديورانت "لسنا ننكر أننا نشهد في هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كـراماً يعطف بعضهم على بعض، كما ترى بين الأب والابن حباً به من العمق قـدر ما به من السكون والصمت، فها هو ذا أديسيوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكـتافهم حيـن يعرفونه بعد غيابه الطويل، وهاهم أولاء يقبلونه كما يقبلهم وحين يعـلم منيـلوس وتعـلم هلن أن تليمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذي حـارب من أجلهم حرب الأبطال يبكيان ويتحسران ... وهم شديدو السخاء على الأضـياف لأن الغرباء والمتسولين أبناء زيوس. والعذارى يغسلن قدمي الضيف أو جسـمه ويدهـنه بالأدهان، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه، وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان في حاجة إليهما"(١٥).

ويعـلق ديورانت على ذلك بأن هذه الصورة تكشف عن الحنو الإنساني والشعور اللذين يختفيان حتماً في الألياذة بين نقع الحرب وقعقعة السلاح(١٦).

العطف على الموتى:

كان الكريتي يبجل موتاه إلى درجة عبادتهم مثل معظم الشعوب القديمة، ولكـنها عبادة لا تسمو إلى عبادة الآلهة، فكان يضع معهم في قبورهم قدراً غير كـثير مـن الطعام وأدوات الزينة ودمى صغيرة من الصلصال في صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر، أو وضع بعض الأشياء التي كان يحـبها صاحب القبر. وهذا السلوك- كما يرى ديورانت- دليل على العطف على الأموات(١٧).

---

(١٥) ديورانت ٩٣/٦ (١٦) ديورانت ٩٣/٦
(١٧) ديورانت ٣١/٦

ونستنتج من ذلك أن الكريتيين- رغم ميلهم إلى القسوة مثل بعض الشعوب القديمة- كانوا مع ذلك يمارسون فضيلة العطف على موتاهم على الأقل.

تقديس النفس البشرية:

من المعروف لدى الشعوب القديمة أن آلهتها كانت تفضل الأضاحي البشرية، ولكن لما تقدمت البشرية، تقدمت آلهتها أيضاً وأصبحت لا تطلب الأضاحي البشرية، وإنما تكتفي بالأضاحي الحيوانية من البقر والخراف وغير ذلك، ولم تختلف اليونان عن ذلك، إذ يحكي ديورانت كيف وُضِعت بذرة عدم التضحية بالإنسان عند اليونان فيقول :"لما رأى بلُبيداس Belopidas أحد القواد في الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق.م) حلما ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر نصحه بعض مشيريه أن يلبي الطلب، وعارضه البعض الآخر وقالوا له: إن هذا العمل الهمجي المجرد من كل معاني التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أياً كانت، وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلْق عامة، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين"[١٨].

ونحن نعتبر أن ذلك يعتبر نقلة كبيرة للأخلاق لدى الإنسان في طريقه الشاق نحو رقة الشعور تتفق مع ما جاء بالأديان الإلهيـة ، غير أن هناك من يعتقد أن الإنسان ما زال أمامه طريق طويل في مسألة إراقة الدماء.

---

(١٨) ديورانت ٣٥١/٦

العفة والطهارة والفضيلة من أجل الخلاص:

ما لبث أمر الأخلاق في اليونان أن تأثر تأثراً كبيراً عن طريق انتقال أفكار التناسخ لدى الهنود إلى اليونان عن طريق أورفيوس الأسيوي صاحب النحلة المسماة باسمه، وهي النحلة الأورفيه، وربما كان الفيلسوف الرياضي فيثاغورس هو من أوائل من اعتنق هذه النحلة من اليونانيين، حيث كَوَّن مجتمعاً يدين بها، ومن الطبيعي أن تكون هذه العقيدة سرية لأنها تختلف عن دين اليونان، ومع ذلك فقد اعتنقها فلاسفة كبار بعد ذلك سراً، والذي يهمنا من هذه النحلة هو فضيلة الطهارة والعفة، وغير ذلك من الفضائل التي حثت عليها، "فلقد كان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغوري يتطلب، فضلاً عن تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات، تطهير العقل بدراسة العلم"[١٩].

وهنا نلاحظ أن العفة أصبحت ليست مجرد طقوس كما هو في ديانة اليونان أو في بعض الديانات الأخرى، أما عن كيف يحدث التطهير في النحلة الأورفية، فإن النفس تمر بعد الموت بفترة من التطهير في الجحيم Hadis وتعود بعدها إلى الأرض وتدخل في جسم جديد، ثم في جسم آخر، وتمر في سلسلة من التناسخ لا تنتهي إلا إذا كان صاحبها قد حَيِيَ حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها[٢٠].

إن التطهير هنا هو وسيلة للخلاص، وواضح جداً العلاقة الوثيقة بين هذه العقيدة وعقيدة التناسخ عند الهندوس.

أما فيثاغورس فقد اشتق عقيدة من هذه النحلة واختصر الطريق، فبدلاً من التطهر عن طريق التناسخ والمرور على الجحيم، فإن ذلك ممكن عن طريق السلوك. يقول ديورانت "القصد من الحياة في النظام الفيثاغوري أن نَخَلَّصَ من

---

(١٩) ديورانت ٦/٢٩٦

(٢٠) ديورانت ٦/٢٩٩

المــتقمص والســبيل إلى ذلك هو الفضيلة، والفضيلة هي ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله"(٢١).

أمــا كيف نحصل على هذا التآلف فإن ذلك يكون بالحصول على الحكمة "وهــي فهم الحقائق التي يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئاً، وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال"(٢٢).

الكرم والعطف على العاجزين:

كــان أغــنياء اليونــان أسخياء في عطائهم وكانت عادة العطف على الإنســانية عــادة يونانية اسماً وفعلاً، واللفظ الذي يطلق عليها **Philianthropy** من أصل يوناني، وكان التصدق Cathritas أي الحب من طباعهم، وكانت لهم هيـئات [أي مؤسسات] للعناية بالغرباء والمرضى والفقراء والطاعنين في السن، وكــانت الحكومــة تقرر معاشات للجرحى من الجنود، وتربي أيتام الحرب على نفقــة الدولة، ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد، قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل(٢٣).

الضمير:

يعتــبر علماء الأخلاق أن "الضمير" هو العامود الفقري للفضائل والقيم، ولــن نــناقش بالطــبع وجهات النظر في الضمير، ولكننا سوف نعرض فقط هنا لظهــور "الضمير" صراحة عند اليونان، وإن كنا لا ننكر وجوده ضمناً في كافة فضائلهم التي تحدثنا عنها أو التي سوف نتحدث عنها. وفيما نعتقد أنه إشارة إلى الضــمير، يقول ديموقريطس: قوة الجسم لا تكون من أسباب النبل إلا في دواب الــنقل، أمــا قوة الخلق فهي سبب النبل في الإنسان " والأعمال الحسية يجب أن

---

(٢١) ديورانت ٣٠٠/٦

(٢٢) ديورانت ٣٠٠/٦

(٢٣) ديورانت ٩٤/٧

تصــدر عن عقيدة لا عن قسر، ويجب أن يفعلها الإنسان للرغبة فيها لا أملاً فيما ينــاله عــليها من جزاء.. ومن واجب الإنسان أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله"[٢٤].

أليــس ما يتحدث عنه ديموقريطس من شعور بالعار أمام النفس، هو نفسه ما نشعر به من وخز أمام الضمير، وإن كان ديموقريطس لم يذكر لفظ الضمير؟ ولقد جاء سقراط بعد ذلك و أعلّت نزعته الفردية- كما يقول ديورانت- من شأن الضــمير وجعلته أعلى من القانون، وهو ما أصبح فيما بعد من العقائد الجوهرية في المسيحية[٢٥]

ولابــد أن المــرء قــد لاحظ هنا هذه النظرة الوجدانية للضمير رغم أن سقراط قد نظر للأخلاق نظرة عقلانية كما سوف نرى.

العدالة وكراهية الفساد والرشوة:

مــن المعروف أن أول ديموقراطية في العالم نشأت في أثينا التي تمتعت بأعلى درجة من الديموقراطية، ثم توزعت الديمقراطية بعد ذلك بدرجات متفاوتة على المدن اليونانية المختلفة. ومما لا شك فيه أن الديموقراطية تدعو إلى العدالة، إذ أن توزيــع الســلطة السياسية متساوية على الجميع سوف يستتبعه بالضرورة توزيــع الدخــل توزيعاً عادلاً كذلك. "فلقد كان كل مواطن- في عصر بركليز- يســتمتع، ويصــر أن يســتمتع بما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون، وفي الجمعيــة الوطنية. ولم يكن المواطن في نظر الأثيني هو الذي يقترع فحسب، بل كــان هو الذي يشغل بالقرعة- إذا جاء دوره على مر الأيام- منصبّ الحاكم أو

---

(٢٤) ديورانت ٢٠٤/٧

(٢٥) ديورانت ٢٣٧/٧

القاضـــي، ويجـــب أن يكون حراً مستعداً لخدمة الدولة حين تناديه **وقادراً** على خدمتها"(٢٦).

فالجميع متساوون في الحقوق والواجبات، وأعباء الحكم **والسلطان توزع** على الجميع بالتساوي، وهو من الفضائل التي تفوقت بها أثينا.

وبطـــبيعة الحال طالما أن الناس أحرارٌ، أن يلجأ الجميع **إلى القضاء إذا** احـــتاج الأمـــر، ومـــن ثم فلا بد أن يكون القضاء عادلاً وكفئاً **للنظر في القضايا** المختـــلفة. يقـــول ديورانت "إصلاح القضاء آخر ما تفعله الديمقراطية، **ولقد كان** أعظم إصلاح قام به افيلتيز وبركليز هو نقل الحقوق القضائية **التي كان يمارسها** الأركونـــون والأريويجـــوس(*) إلى الهيلية، أي المحاكم الشعبية، **وكان إنشاء هذه** المحـــاكم هـــو الذي وهب أثينا ذلك النظام القضائي الذي أخذت عنه **أوروبا نظام** المحلفين والذي عاد عليها بالخير العميم"(٢٧).

ولكـــن طالما أن الأمر كذلك، وطالما كان القضاء شعبياً **يعتمد على نظام** المحـــلفين، فإن ذلك لن يجعل هذا النظام بمنجاة من الظنون، **ولقد أدرك الأثنيون** ذلـــك، ولكـــي ينقصوا الرشوة والفساد في القضاء إلى الحد **الأدنى "كان أعضاء** المحكمة الذين يوكل إليهم النظر في قضية ما، يُختارون **بطريق القرعة في آخر** لحظـــة، وإذ كانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها **أكثر من يوم واحد، فإنا لا** نســـمع كـــثيراً عـــن الرشوة في المحاكم، وذلك أن الأثينيين **أنفسهم كانوا** يجدون صعوبة في إرشاء ثلاثمائة رجل في لحظة واحدة"(٢٨).

جمعٌ من الفضائل اليونانية:

---

(٢٦) ديورانت ٢١/٧

(*) لابد أن هذه ألقاب للمديرين والحكام

(٢٧) ديورانت ٣٠/٧

(٢٨) ديورانت ٣١/٧

وأخيـراً نقدم للقارئ مجموعة ضخمة من الفضائل اليونانية التي احتوى عـليها القَسَـم المعروف بقَسَم أبو قراط، فأبوقراط هذا- كما يعرف القارئ- هو طـبيب يوناني مشهور، وكان رجلاً فاضلاً، فأنشأ هذا القَسَم الذي نجتزئ بعضه، وحـتم على الطبيب الجديد أن يتلو هذا القَسَم قبل ممارسته مهنة الطب، لما لهذه المهنة من قداسة.

فـبعد القَسَـم بـأبولوا الطبيب وسائر الآلهة، يتعهد الطبيب بأن يبر بهذا القَسَم الذي يتضمن مجموعة من الفضائل وأولها أن يضع معلمه من هذا الفن في مـنزلة أبويـة، وأن يشركه في ماله الذي يعيش منه، فإذا احتاج معلمُه إلى مال اقتسـم ماله معه، كما يتعهد بأن يعلم أفراد أسرة أستاذه هذا الفن- إذا رغبوا في ذلك- دون أن يتقاضى أجراً.ويقول القسم أيضاً: " وسوف استخدم العلاج لأساعد المرضـى حسب مقدرتي وحكمتي، ولكن لا استخدمه للأذى أو لفعل الشر، ولن أسـقي أحـداً السم إذا طلب إلى أن أفعل هذا، أو أشير بسلوك هذا السبيل [وذلك للمرضـى الذي لا يرجى شفاؤهم] كذلك لن أعطيَ امرأة صوفة لإسقاط جنينها، ولكـني سأحتفظ بحياتي وفني كليهما طاهرين مقدسين... وإذا دخلت بيت إنسان أيـاً كـان فسأدخله لمساعدة المرضى، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة، أو أذى مـتعمد، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أي رجل أو أية امرأة، سواء كانا مـن الأحـرار أو من الأرقاء، ومهما رأيت أو سمعت في أثناء قيامي بفروض مهنـتي، وفي خارج مهنتي من خلال حديثي مع الناس مما لا يجب إذاعته، فلن أفشيّه، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة[٢٩].

ثـم يوصي أبو قراط بعد ذلك الطبيب ببعض الوصايا الهامة مثل النظافة وحسـن المظهـر، ولكنه يعود للجانب الأخلاقي مرة أخرى، فيوصيه قائلاً : ألا تقسـوَ على أهل المريض وأن تراعي بعناية حال مريضك المالية، وعليك أيضاً

---

(٢٩) ديورانت ١٩٢/٧-١٩٣

أن تقــدم خدمــاتك من غير أجر، وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدي خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال، فقدم له معونتك كاملة، ذلك أنه حيث يوجد حب الناس، يوجد أيضاً حب الفن"(٣٠).

ومن الجدير بالذكر، أن هذا القسم الذي أصدره أبو قراط (ت ٤٢٠ ق.م) مـنذ أكـثر من ٢٤ قرناً، ما زال صالحاً في أغلبه حتى اليوم، ومن الصعب أن يضيف إليه علماء الأخلاق فضيلة جديدة.

انتهيـنا الآن من عرض بعض الفضائل والقيم عند اليونانيين كما جاءت في ممارساتهم الشعبية والاجتماعية، وننتقل الآن لنرى كيف عالج فلاسفة اليونان هــذا الموضــوع.وبطبيعة الحال سوف نجد فرقاً كبيراً بين الحالين، فالفلاسفة لم يهتموا كثيراً بمفردات الأخلاق كالصدق والعدل والأمانة والإحسان، وإنما اهتموا أكــثر بالغايات القصوى، فكل ما سبق يمكن أن يوضع مثلاً تحت كلمة واحد هي "الخيــر" أو "الفضــيلة" أو غيــر ذلك من الحدود وفرق آخر، وهو أن الفلاسفة بطبيعــتهم قد اهتموا أكثر بالتنظير للأخلاق، فتراهم يتحدثون كثيراً عن الفضائل والقيــم دون أن يحــثوا عــليها، فالحث على السلوك جانب عملي، وهم معنيون بالجانب النظري لا غير.

الفضيلة عند سقراط :

المعرفة :

جــاء سقراط فى نهاية عصر السوفسطائيين ، ولقد أدرك.أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة ، وذلك بإضعاف أحد الأسس التى تقوم عــليها الأخــلاق ونعــنى به خوارق الطبيعة . ولقد وضع سقراط السؤال الهام الــتالى : هل يُستطاع وجود علم الأخلاق قائما على أساس من الطبيعة ؟ أى هل

---

(٣٠) ديورانت ١٩٣/٧

إذا صاغت الفلسفة قانونا أخلاقيا دنيويا غير دينى ، يكون فى مقدورها أن تنقذ الحضارة التى تهددها حريتها الفكرية من الانهيار والزوال ؟

ولقد كانت الإجابة أن كل ذلك ممكن ، بل لقد فَصَلَ سقراط الأخلاق عن الديـــن فصـــلا تاما حين قال " ليس الخير خيرا لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهـــة ترضى عن الخير لأنه خير ، وعلى ذلك فإن " الخير " فضيلة نصل إليها بـــالعقل ٠ ومـــادام الأمر كذلك ، فإن المعرفة عند سقراط هى أسمى الفضائل ، والرذيلة جميعها هى الجهل، والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة[٣١]. وهـــذا يعنى أن الفضيلة عمل من أعمال العقل ، ولا فضل للآلهة فى وجودها ، ولقد أثر هذا المبدأ على أفلاطون وأرسطو فيما بعد كما سوف نرى٠

الفضيلة عند أفلاطون :

تأثـــر أفلاطـــون كـــثيرا بآراء استاذه سقراط ، ونظر إلى الفضيلة نظرة عقـــلية ٠فالفضائل عند أفلاطون هى الحقائق العقلية الخالدة والمعانى المجردة ، وبطـــبيعة الحال لنا أن نتوقع أن تقع فضائل أفلاطون داخل عالم المُثُل لديه الذى يجمع كافة الحقائق فى العالم ٠

ولقـــد قضـــى بعض الوقت يحاول وضع قانون أخلاقى طبيعى يبعث فى نفـــوس الـــناس الرغبة فى الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمد على السماوات والمطهـــر والجحيم[٣٢]٠ومن ثم كان عليه أن يعتمد على العقل ، وما على العقل إلا أن يقـــوم بتحليل النفس البشرية إلى مركباتها ثم يرى ما يقابل هذه المركبات

---

(٣١) ديورانت ٧/ ٢٣٥

(٣٢) ديورانت ٧/٤٨٠

مـــن الفضائل ، ومن الواجب أن نربى فى الطفل عادة الاعتدال وإدراك الأوساط الذهبية للأمور خشية أن يأتى الذكاء متأخرا بعد فوات الوقت(٣٣) .

تتكون النفس أو أصل الحياة عند أفلاطون من ثلاث درجات أو أجزاء : الشـــهوة ، والإرادة ، والفكـــر · ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة· فالشـــهوة فضـــيلتها الاعـــتدال ، والإرادة فضيلتها الشجاعة ، أما الفكر ففضيلته الحكمـــة الـــتى يجب أن نضيف إليها التقوى والعدالة وأداء الإنسان الواجب نحو والديـــه وآلهـــته · ويمكن تعريف العدالة- كما يرى أفلاطون- بأنها هى تعاون الأجـــزاء [فى] الكـــل ، أو العناصـــر فى الأخـــلاق ، أو الأهلين فى الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق على الوجه الأكمل(٣٤).

هذه هى الفضائل والقيم عند أفلاطون الفيلسوف ، أما إذا جئنا لأفلاطون الإنســـان ، فكمـــا يقـــول ديورانت أنه كان متدينا وله قصائد دينية " ولكنه حرق قصـــائده الديـــنية وإن ظل شاعرا عابدا ، يغمر فكرته عن الخير إحساس قوى بالجمـــال ، وتقـــوى ممـــتزجة بالتعـــبد والتقشف ، توحدت فيه الفلسفة والدين ، وامـــتزجت فيه الأخلاق بحاسة الجمال ، ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة "(٣٥).

ولأفلاطـــون رأى فى الخير(*)، فقد كان سقراط يرى أن ماهيات الأشياء أى صـــفاتها ، مـــتحققة فى الأشياء نفسها ، وبما أن هذه الأشياء متغيرة أحيانا ، ويصـــيبها الفساد فى أحيان أخرى ، فإن الحقيقة التى نصل إليها عن طريق هذه الأشـــياء ، ســـوف تكـــون ظنية نسبية ؛ غير أن أفلاطون رفض ذلك وقرر أن

(*) عندما نتحدث عن " الخير" عند فلاسفة اليونان . لابد أن نتناسى مفهومه لدينا ، بل حتى فى معظم الثقافات، فهو لدينا كما قد يكون فى الثقافات الأخرى رديف للإحسان للآخر ، أما عند فلاسفة اليونان فإنه يعنى جماع الفضائل كلها ·

(٣٣) ديورانت ٧/ ٤٨١ (٣٤) ديورانت ٧/٤٨١ (٣٥) ديورانت ٧/٤٨١ - ٤٨٢

حقـائق الأشـياء أو ماهياتهـا ثابـتة لا يدركها التغير أو الفساد ، غير أن هذه الماهيـات لا توجـد فى الأشـياء ذاتهـا ، ولكنها توجد فى عالم مفارق ، وهذه الماهيـات هى "المُـثُل " ، وهى عنده مبادئ المعرفة ومعايير الأحكام ، والخير أسـمى المُثُل وهو مصدر الوجود والكمال ، فخالف سقراط من حيث أنه تجاوز الماهيـات المـتحققة فى المحسوسات إلى ماسماه بالمثل. وهكذا قضى أفلاطون عـلى نسـبية الحقائق فى مجال المعرفة ، كما قضى على نسبية القيم فى مجال الأخلاق ، وأبطل رد الخيرية إلى اللذة(٣٦).

وقـد بحـث أفلاطون فى الخير الأقصى ، وكان سقراط قد ذهب إلى أن الخيـر هو السعادة التى اعتبرها غاية كل فعل أخلاقى ، وجاء أفلاطون وشارك أسـتاذه فى رفض الموقف السوفسطائى فى التوحيد بين الفضيلة واللذة الفردية ، واعتناق فكرته عن السعادة ، وإن جاهر بأن السعادة تقترن بالعدالة(٣٧).

الفضيلة عند أرسطو :

لم يبتعد أرسطو كثيرا فى نظرته للفضيلة عن أستاذه أفلاطون ، فأرسطو يرى أن الثروة لا تُطلب لذاتها ، وإنما هى وسيلة لا أكثر ، فهى لا تُرضى غير الـبخيل ، وإذا كـانت الثروة نسبية ، فإنها لا ترضى إنسانا زمنا طويلا ، وسر السـعادة هو " العمل " أى بذل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه ، والفضـيلة هى حكمة عملية ، وهى تقدير الإنسان بعقله لما فيه من خير ، وهى فى العادة وسط بين نقيضين(٣٨).

والخيـر أيضا هو جوهر الفضائل والقيم عند أرسطو كما كان كذلك عند سـقراط وأفلاطـون . وكما يقول الدكتور توفيق الطويل " لقد سار أرسطو فى اتجـاه سقراط وأفلاطون ، فحارب اللذة غاية قصوى لأفعالنا الإنسانية ، واعتنق

---

(٣٦) الطويل ٥٥- ٥٦ (٣٧) الطويل ٥٧- ٥٨

(٣٨) ديورانت ٧/ ٥٠٨

الســـعادة واستوفى بحثها حتى بدت على يده لأول مرتمذهبا فلسفيا دقيقا منظما ، وصـــرح فى مستهل كتابه الأخلاق النيقوماخية ، بأن الخير ما يقصد إليه الكل. وبهـــذا أقر الغائية فى حياة الإنسان ، وجاهر بأن الإخلاق علم عملى يهدف إلى تحقيق غاية ، بغيرها يتعذر على الإنسان أن يقوم بفعل أو تصرف "(٣٩).

أمـــا عـــن علاقـــة الســـعادة بالفضيلة ، وعلاقة الحس بالعقل فى مذهب أرسطو فإن ذلك يبين لنا من نظريته فى التأمل ، وموجزها أنه "لما كان الإنسان يجمع بين الحيوانية والإنسانية ، كانت الفضائل صنفين ؛ صنف يتمثل فى التغذى والحـــس وصـــنف يتمـــثل فى حياة التأمل العقلى والنظر المجرد ، وتقوم فضيلة الصـــنف الأول فى إخضـــاع الشهوات والأهواء لسلطان العقل ، أما حياة التأمل فأسمى بكثير ، إنها ترتفع بالإنسان حتى تضعه تحت عرش الله "(٤٠).

فأمـــا الصـــنف الأول فيأتى بالتربية والتعود ، وينشأ الصنف الثانى عن طريق التعلم ، ومن أجل هذا وجب على المشرع أن يروض مواطنيه على تعود العـــادات الطيـــبة ، لأن الفضـــائل إنما تُكتسب بالمران والتعود ، وعندئذ تقترن مزاولـــتها بمتعة ، بل إن الفضيلة لا تكون فضيلة إلا متى أصبحت عادة تصدر عـــن صاحبها فى يسر وسهولة حتى يجدّ فى مزاولتها لذة، ومن وجد فى مباشرة الفضـــيلة مشـــقة أو عـــناءا ، دل بهـــذا عـــلى عدم استعداده لها ، فاللذة ترشد إلىالفضيلة وتقترن بها ، ومن هنا وجد العفيف فى ضبط نفسه لذةً(٤١).

ولكـــن كيـــف يتيســـر تحديد الفضائل الخلقية ؟ لأرسطو مذهب معروف يقتضـــى الأخذ بالوســـط الذهبى ومؤداه أن كل فضيلة وسط بين طرفين كلاهما رذيـــلة ؛ فالشـــجاعة وســـط بين التهور والجبن ، والكـــرم وسط بين الإسراف

---

(٣٩) الطويل ٦٥ (٤٠) الطويل ٦٨

(٤١) الطويل ٧٠

والتقتير ، والاعتداد وسط بين الغرور والمسكنة أو المذلة ، والتواضع وسط بين الخجل وانعدام الحياء٠٠٠ وهلم جرا(٤٢)٠

الفضائل والقيم عند الرواقيين :

اتخذ الكلبيون –احدى الفرق الأخلاقية – من " ضبط النفس " عند سقراط مبدأ سلوكيا لهم ، غير أن الرواقيين حولوه إلى " وأد للشهوات " لخدمة معتقداتهم التى تتلخص فى معتقدين اثنين " أولاهما أن العالم يخضع لقانون مطلق لا يبيح استثناءا ، ويرى ثانيهما أن طبيعة الإنسان التى تميزه عن سائر الكائنات تتمثل فى جانبه العاقل ، ولقد لخص هذين المبدأين شعارهم الذى يقول : عِشْ على وفاق الطبيعة (أى العقل) لأن لهذا الشعار وجهين ؛ فالناس مطالبون من ناحية أن يتشبهوا بالطبيعة بمعناها الواسع ، بمعنى أن يتصرفوا بمقتضى قوانين الوجود ، ثم هم من ناحية أخرى مطالبون بأن يُخضِعوا سلوكهم للطبيعة بمعناها الضيق وهو العقل "[٤٣]٠وهنا يعمل مبدأ وأد الشهوات عمله ٠وبذا تصبح الفضيلة " هى العيش وفاقا للعقل ، وترتد الأخلاقية إلىحكم العقل ، ويُستبعد الهوى كما تُستبعد إرادة الفرد باعثا على الأفعال الإنسانية ، والحكيم هو الذى يُخضع حياته واعيا لسنن الوجود كله ، ويعتبر نفسه مجرد ترس فى الآلة الكبرى يسير معها ولا يشذ عنها "[٤٤]٠

ولقد نظر الرواقيون إلى الفضائل والرذائل نظرة ضيقة ، " فأكدوا أن الفضيلة وحدها هى الخير ، والرذيلة وحدها هى الشر ، وكل ماعداهما يعتبر على الحياد تماما neutral ، وبهذا خرج من نطاق الشر الفقر والمرض والألم والموت ونحوه ،واستُبعِد من الخير الثراء والصحة واللذة والحياة ونحوها"[٤٥]٠

---

(٤٢) الطويل ٧٠ (٤٣) الطويل٨٧ (٤٤) الطويل ٨٨

(٤٥) الطويل ٨٩

ومضى الرواقيون فى نظرتهم الضيقة للأخلاق وكراهيتهم للذة ، ولكنهم أعلوا من شأن الواجب ، فقالوا إن من الحماقة أن ينشد الإنسان لذته.فليلتمس سعادته التى لا تتحقق إلا بمزاولة الفضيلة والإنسان لا يتوخى أن يكون فاضلا ابتغاء اللذة ، بل إنه يتمسك بالفضيلة من أجل الواجب(٤٦)٠فكانوا بذلك سابقين للفيلسوف كانط ، فيلسوف الواجب ٠ أما أساس الفضيلة عند الرواقيين فهو العقل كما ألمحنا ، أى أنها استندت إلى المعرفة ، فارتدوا بهذا إلى رأى سقراط فى التوحيد بين الفضيلة والمعرفة ، ولكنهم لم يكونوا عقلانيين بالمعنى الأتم ، إذ استخفوا بالنظر العقلى الخالص ، وربطوا التفكير بالعمل ، وكان من الطبيعى والأمر كذلك ، أن يصرحوا بأن رأس الفضائل الحكمة ، وأن الحكيم هو الذى تتمثل فيه أسمى آيات الكمال ، يُحْسِن كل ما يفعل ، ويلتزم الهدوء دوما ، ولا يحس ألما ولا حزنا ولا خوفا ولا ندما ، تحفل حياته بالخير والسعادة ، وعن الحكمة تصدر الفضائل الرئيسية الأربع :الاستبصار والشجاعة والعفة والعدالة ، ومن أجل هذا كان الحكيم جماع الفضائل(٤٧)٠وكافة مشاعر ضبط النفس هذه تذكرنا بما دعت إليه البوذية من قبل ٠

ونأتى إلى الملمح الأخير فى الأخلاق عند الرواقيين ؛ فلقد جاهروا بأن الوقوع فى الرذيلة اختيارى ، ولقد عزا كريسيبوس Chrysippus (ت٢٠٧ ق٠م) هذا الوقوع إلى المحيط الاجتماعى وما يوحى به للإنسان من أحكام خاطئة ومعتقدات باطلة ، وبذلك يكونون قد سبقوا جان جاك رُوسُو فى القول بأن الشر ليس أصيلا فى طبائع البشر كما زعم هوبز وأمثاله ، ومن الممكن فى رأيهم أن يتفادى الإنسان الوقوع فى الشر لو استفتى عقله واستجاب لحكمه ، ومن ثم كان الإنسان مسئولا عن أفعاله(٤٨)٠

---

(٤٦) الطويل ٨٩ (٤٧) الطويل ٩٠ (٤٨) الطويل ٩٦- ٩٧

الفضائل والقيم عند أبيقور :

أقـــام الأبيقوريـــة الأخلاقيـــة عـــلى وجـــدان اللذة كما فعل أسلافُهم من القورينائية ، غير أن كثيرين من غير المتخصصين يعتقدون خطأ أن أبيقور إنما هـــو فيلســـوف بوهيـــمى أى يدعو إلى اللذة ٠ وهو وهم كبير ، فلقد كان إنسانا فاضـــلا ؛ لقـــد قـــرر أبيقور مع سلفه أرستيبوس القورينائى أن اللذة هى الخير الأســـمى والألم هو الشر الأقصى ، وليس للفضيلة قيمة فى ذاتها ، ولكن قيمتها تســـتمد مـــن اللذات التى تقترن بها ، غير أن أبيقور رغم هذا كان متزهدا ، فلقد عدّل مدلول اللذة وجعله أرحب وأنبل مما كان عند سلفه(٤٩).

غيـــر أن أبيقـــور وإن اعترف أن الإنسان كالحيوان من حيث أنه يطلب لذتـــه منســـاقا بفطرته ، وهو أمر لا يمكن الاعتراض عليه طالما أن اللذة بحكم تعـــريفها مـــن الأمور الفطرية ، غير أن أبيقور عاد فسخّر العقل لتهيئة الوسائل المؤدية إلى اللذة ، واعتبر أن كل لذة خيرا ما لم تقترن بألم فتصبح من أجل هذا شرا ، بل رأى أن الألم إذا نتجت عنه لذة وجب طلبه [مما يتناقض مع ما سبق]، فـــتحول مذهب اللذة عنده إلى مذهب فى المنفعة ، ومن أجل هذا توخى اللذة التى تـــدوم طـــوال الحيـــاة ، أى أنه دعا إلى الحياة السعيدة ، ومن أجل هذا رأى أن يحرص الإنسان على ألا تستعبده رغبة شخصية أو لذة فردية ، وأوجب عليه أن يسيطر على شهواته ويتحكم فى أهوائه(٥٠).

أى أن أبيقور لم يَسِرْ فى طريق اللذة مغمض العينين ، بل طالب تلامذته بـــتحكيم العقل فى أهوائهم ، وطلّبِ اللذات التى تدوم طوال العمر والتى تعم أكبر عـــدد مـــن الأفـــراد ، وكمـــا يقول الدكتور توفيق الطويل٠٠٠" بهذا آثر اللذات

---

(٤٩) الطويل ١٠٩ (٥٠) الطويل ١٠٩

الـــروحية والعقـــلية عـــلى لذات الحس ٠٠٠ من أجل هذا وجب أن ننشد طمأنينة العقل ، وأن نذكر أن لذات الحس قصيرة الأمد ، ولذات الروح أبقى وأدوم "[٥١].

مما سبق يتبين لنا أن أبيقور لم يكن لذّيابوهيميا، ولكنه قيد اللذة بالعقل ، فأعـــلى من قيمة العقل ، وإن زاد فرفع الصداقة فوق جميع اللذات العقلية[٥٢]،بل إنـ نا نستطيع أن نقول أن أبيقور يكاد يكون عدوا للذة فقد صرح " أن الإكثار من المطـــالب يجعـــل إشـــباعها عســـير المنال ويسلب الحياة بساطتها ، ويباعد بين الإنسان وسعادته ، ومن هنا جاء ميل أبيقور إلى الزهد ، فجاهر بأن الحكيم الذى يعيـــش على حاجته من الطعام والشراب يعيش مع زيوس [كبير آلهة اليونان] فى نعيم مقيم ، فخير وسائل السعادة عنده البساطة والبشاشة والاعتدال والتعفف ، ومـــن هنا انتفت ضرورة الرغبات وإشباعها ، ووجب الابتعاد عن الطموح الذى يـــلازم الظمأ إلى الشهرة "[٥٣]، أما عن الإحسان فلقد قررت الأبيقورية أن فعل المعـــروف فى الآخرين أدعى إلى السرور من أن نتلقاه عنهم مما يعنى الاهتمام بفضيلة الكرامة[٥٤].

ونســـتطيع أن نقـــول أخيرا أن أبيقور كان مثالا عاليا للحكيم الأبيقورى الزاهدِ الورِع ، القادر على ضبط شهواته والسيطرة على أهوائه[٥٥].

الفضائل والقيم عند شُكاك اليونان :

بعـــد انهيـــار المديـــنة اليونانيـــة، وبعد انهيار أسوارها على يدى فيليب المقـــدونى ، وبعد أن بدأ الإسكندر فتوحه وواصلها إلى أن امتدت إلى الصين فى أقصـــى الشـــرق ، انقلبت حياة اليونانى رأسا على عقب ؛ فبعد أن كان اليونانى يعيش فى مدينة لها أسوارها لا يدخلها غريب إلا بتصريح ، فتحت المدن أبوابها

---

(٥١) الطويل ١٠٩ (٥٢) الطيل ١١٠

(٥٣) الطويل ١١١- ١١٢ (٥٤) الطويل ١١٢ (٥٥) الطويل ١١٢

للغرباء ، فقد بدأ عهد جديد هو عهد الإمبراطورية اليونانية حيث تلاشت الحدود بين الدول، فلم تتهاوَ فقط أسوار المدن ، بل تهاوت أيضا أسوار الدول – أى حدودها– لينصهر الجميع فى إمبراطورية واحدة هى الإمبراطورية اليونانية ، فانهارت القيم اليونانية العريقة ، وتدهورت الأخلاق ، وزالت الطمأنينة ،وشعر الإنسان اليونانى بالإغتراب alienation ، وكل ذلك مهَّد لنشأة مدارس الشُكاك اليونانية حيث أصبح الشك هو أحد الوسائل لمواجهة ذلك الواقع الأليم[*].

توفى أفلاطون وآلت الأكاديمية إلى أركسيلاوس واتجه القائد الجديد بالأكاديمية وجهة شكية ، فسميت من أجل ذلك بالأكاديمية الجديدة ، وكذلك كان موقف كارنيادس Carniades (ت ١١٨ ق٠م) الذى رفض المعرفة التى تجيء عن طريق الحس أو العقل ، وأنكر وجود مقياس للحقيقة ، غير أنه انتهى إلى نظرية فى الاحتمال والترجيح ، ومع ذلك ، ومع أن كارنيادس ينكر المعرفة اليقينية ، فإنه كان يعتنق أقوى يقين ممكن فى المبادئ الخلقية والحياة الاجتماعية ويعتبر اشباع الدوافع الطبيعية غايةً فى ذاته ، وكان يبيح للفيلسوف – مع اعتناقه مبادئ شكية – أن يعتقد فى مجال الأخلاق وأهدافها بيقين علمى لا خفاءَ فيه[٥٦].

(*) وهو حال يشبه ما يمر به العالم الآن من تحولات بسبب العولمة ، حيث انهارت فى واقع الأمر الحدود السياسية بين الدول ، وسهُلت المواصلات ، وتلاشت المسافات فاندمجت الدول فى مدينة واحدة كبيرة ، غير أنه إذا كان المواطن اليونانى القديم قد هرب إلى السعادة أو اللذة أو الشك أو غير ذلك ، فإن مواطن اليوم قد هرب إلى الدين فى الأغلب الأعم ، أو انغمس فى العلم ، أو طلب الثراء ، أو مجرد الجرى وراء لقمة العيش ، وآثر بعضهم الانغماس فى الإباحة٠ ولكنهم فى جميع الحالات لابد أن ينغمسوا فى شيء يهربون إليه٠ إنه عصر الانغماس٠ ويظل الحال كذلك إلى أن نتعود على العصر الجديد بتحولاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعقدة ، بعدئذ يعود سلوكنا طبيعيا مرة أخرى ، ونشفى من حالة الاغتراب التى نعانيها ٠

(٥٦) الطويل ١٢٤

أمـــا مـــن ناحية السلوك الشخصى ، فقد كان دعاة الشك القديم – فى كل صـــوره – على خلق حميد ، لا يبيحون لأنفسهم السلوك الشائن باحتمائهم بالشك الـــذى يســـاورهم بصـــدد مبادئ الأخلاق اليقينية وافتقارهم إلى الاقتناع الكامل بحقيقـــتها أو قيمـــتها ، بل قصروا شكهم على مجال المعرفة ، واستبعدوا الحياة الخـــلقية والعمـــلية مـــن نطـــاق الشـــك ، هذا ما فعله قدماء الشكاك ، بيرونيين تجريبيين، أو أكاديميين نظريين(٥٧).

ننـــتهى الآن مـــن كل ذلك إلى أن اليونانيين كانت لهم فضائلهم وقيمهم ، وكـــان زيـــوس الملتحى الوقور رأس النظام الأخلاقى فى العالم ، وكانت رابطة الديـــن بـــالأخلاق واهيـــة لـــلغاية ، وإن كانت هناك بعض الروابط مثل مراسم الـــتطهير ، وكـــانت الآلهة كذلك تُعين على الفضيلة وتغضب على الشرير وتنتقم مـــن المتكـــبر وتحمى الغريب وتستجيب لمن يتوسل إليها ، أى أن الآلهة تمارس بعض الفضائل ، كما وُجِد الجحيم الذى يُكَفِّرُ فيه الناس عن ذنوبهم بعد الحساب.

ورأيـــنا أن الكريتى كان يعطف على موتاه ، كما كان المحارب اليونانى فى عـــصر الآخـــيين يعطف على إخوانه المحاربين ، كما تُرى مظاهر الحب واضحة بين الأب وابنه وبين سائر أفراد العائلة ، وكانوا فى هذا العصر شديدى الســـخاء على الأضياف .كما رأينا فى نهاية هذا العصر كيف بدأ تقديس النفس البشـــرية فامتـــنعوا عن تقديمها قربانا للآلهة ، ثم ما لبثت أن انتقلت أفكار النحلة الأورفية إلى اليونان بما تأمر به من تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات وتطهير العقل بدراسة العلم ، والحصول على الخلاص من التناسخ بممارسة الفضيلة.

ومـــن ممارســـة اليونانيين للفضائل أيضا ، فقد رأينا أن أغنياءهم كانوا أســـخياء فى عطـــائهم ، وكانوا يعتزون بالصداقة والعطف على الفقراء ،ورأينا كيـــف تحدث ديموقريطس عن الضمير وأن من واجب الإنسان أن يشعر بالعار

(٥٧) الطويل ١٢٥

أمـــام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله ، ثم رأينا كيف عملت أثينا على تحقيق العدالة بين الجميع ، ورأينا كيف احتوى قَسَم أبوقراط على باقة مـــن القيم كالبر بالمُعلم والرحمة بالمرضى وصيانة أسرارهم ، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الفلاســفة : ســقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من المدارس ورأينا أنهم جميعا بحثوا فى السعادة والخير الأقصى والفضيلة ، كما بحثوا فى مصدر الإلزام الخــلقى ، أهو العقل أم اللذة أم السعادة أم الواجب • وأيا كانت آراؤهم فقد بحثوا المســألة الخلقية بصبر وأناة وجدية ، وكانت لهم المذاهب المختلفة التى مازالت تــتردد أصداؤها إلى يومنا هذا ، بحيث أنه يمكن القول بأن فلاسفة اليونان ، هم أســاتذة التــنظير لعلم الأخلاق بحق • كل ذلك حدث بعيدا عن الوحى الإلهــى وبمجهــود إنســانى بحت ، ولم تخرج فضائلهم وقيمهم فى أغلبها الأعم عن تلك التى جاء بها الوحي بعد ذلك ، فيما عدا القسوة والخداع والغدر التى ظهرت عند اليونان فى عصر الآخيين ثم اختفت فيما تلى من عصور • **والآن ننتقل إلى فضائل الرومان وقيمهم •**

الفصل العاشر

الفضائل والقيم لدى الرومان

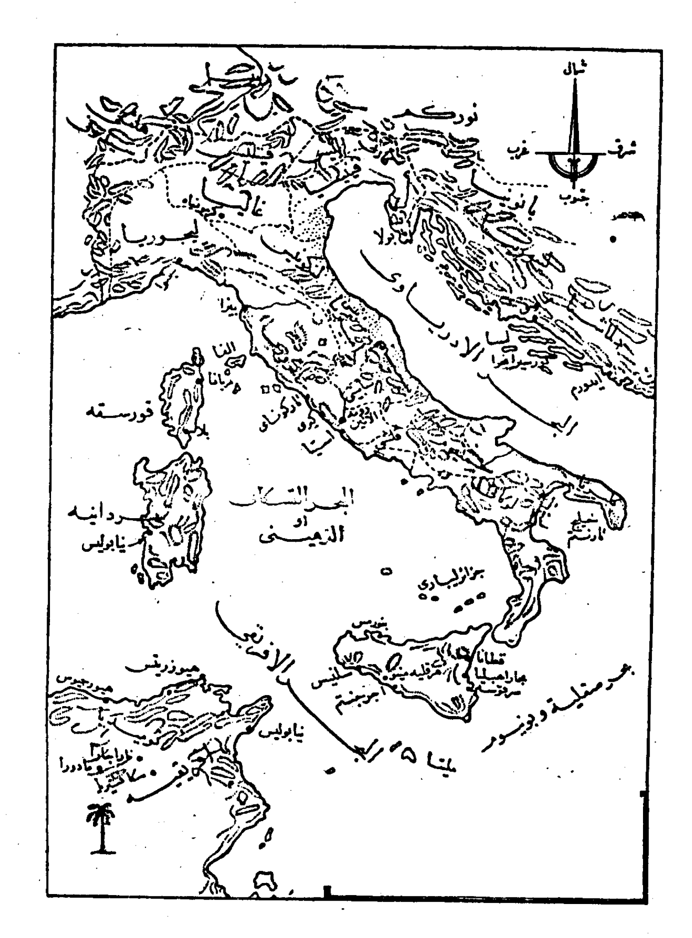
مقدمة

يــبدأ التاريخ الرومانى المكتوب من تسكانيا عام ٨٠٠ ق٠م٠ وبطبيعة الحال كــان للتوسكانيين دينهم القومى ، وكان فى هذا الدين - مثل كثير من الأديان - كل البواعث التى تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلع التوسكانيون على آلهتهم كل الصــفات التى تبعث الرهبة فى القلوب ، وتكبح جماح الفتيان والفتيات ، وتخفف أعـباء الآبــاء والأمهات ، وكان أعظم الآلهة هو (تينا) Tina المتصرف فى الــرعد والبرق ، وكانت حوله جماعة من الأرباب يأتمرون بأمره ، لاتأخذهم فى ذلــك رأفة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا حدا جَعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ٠٠٠ ولقد كان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هو(منتوس)Mentos٠ أمــا (مين) Mean إلهة الأقدار، فقد كانت تمسك بيدها سيفا أو أفعى تلوح بهما وتتسلح بقلم ومداد تستخدمهما فى الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بهما أوامرها الــتى لا تــتحول عــنها ، وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت فى صور صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور[1]٠

وكانت أهم مظاهر الدين التوسكانى الإيمان بوجود الجحيم فى الدار الآخرة ، فقــد كانت روح الميت كما نراها فى الصور والنقوش التى على القبور يسير بها الجــن إلى محكمــة الدار الآخرة حيث تتاح لها الفرصة فى يوم الحساب الأخير لــلدفاع عن أعمالها فى الحياة الدنيا ، فإذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال ، حُكِمَ عــليها بضروب مختلفة من التعذيب ٠٠٠ كما كان فى وسع الأحياء من أصدقاء الموتى أن يُقَصِّرُوا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرابين ، فإذا نجت

---

(١) ديورانت ١٦/٩



خريطة قديمة للدولة الرومانية

الــروح مــن هــذا العذاب ، انتقلت من العالم السفلى إلى صحبة الآلهة الأعلين لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التى صورتها آمال الأحياء على القبور[٢].

لمــا كــانت الأســرة عند الرومان هى المحور الذى يلتف الدين والأخلاق حولــه ،لذلك ينبغى أن نلقى نظرة عليها ؛ فلقد كانت حقوق الأسرة كبيرة إلى حد بعيــد ، غيــر أنه كانت نتيجة لهذه الحقوق " أن قويت وحدة الأسرة، فكانت هى الأســاس الذى قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدبت الرومان تأديبا بعــث فى أخلاقهــم صلابة و قوة ، خير ما توصف به أنها قوة رواقية ، وكانت قوانيــنهم فى حرفيــتها أشد منها صرامة فى تطبيقها ، وقلما كانوا يطبقون أقسى هــذه القوانيــن٠٠٠ فلم يكونوا يقفون فى سبيل حنان الآباء القوى الطبيعى على أبــنائهم ، أو تعظيم الأبناء لآبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور فى رومة تبلغ من الرقة ما بلغته فى بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن فى هذه الأيام "[٣].

وفى نطــاق هــذا المجتمع الذى يضم فى داخله وظائف الأسرة والكنيسة والمدرســة والنظم الصناعية والحكومة ، شب الطفل الرومانى و ترعرع على حــب الطاعة والتقوى فكان منه مواطن صلب العود فى دولة لا تُغلب (ديورانت٩/ ١٢).

ولقــد كانت الأسرة اليونانية رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة ، وبين الأشخاص والآلهة من جهة أخرى ، وكانت هى المركز الذى يلتف حوله الدين – كمــا سبق أن ذكرنا– " والخلق والنظام الاقتصادى وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هى المنبع الذى تستمد منه هذه المقومات كلها ، وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر ، وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطا وثيقا جديا بالعالم

---

(٢) ديورانت ١٧/٩ (٣) ديورانت ١٢٠/٩

الروحى ، فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التى لا تخمد ليست إلارمز الإلهة (فستا) Vesta ومادتها ، وأنها هى الشعلة المقدسة التى ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ، ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار وأن يُعنى بها العناية المقدسة "[٤].

ولقد تطور الأمر بعد ذلك تطورا بعيدا ، فدخل الرومان مع اليونان فى حروب طويلة انتهت بانتصار الرومان ، غير أنه يمكن القول أنه إذا كان الرومان هم المنتصرون على اليونان عسكريا ، ولكن اليونان – فى واقع الأمر – كانت هى المنتصرة على الرومان حضاريا ودينيا ، إذ لم يلبث الرومان بعد انتصارهم ، أن تأدبوا بآداب اليونان ، وواصل اليونانيون انتصارهم حيث انتقلت أربابهم إلى روما جنبا إلى جنب أرباب الرومان كما يقول ديورانت: " وارتفع جوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس غير زيوس اليونان ، فصار شاهد الإيمان الصارم وحارسها وقاضى الأخلاق الملتحى ، والقيم على القوانين، وإله الآلهة، وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية "[٥]. وقد انتقلت الرواقية اليونانية بعد ذلك إلى روما على يدى سنيكا الوزير ، وإبكتيتوس العبد وماركوس أوريلوس[٦].

غير أن الرومان – مع ذلك – كانوا أقل وثنية من اليونانيين فى تدينهم " ولم يكن الرومانى كما كان الإغريقى يفكر فى آلهته كأن لها صورا كصور الآدميين،ولم يكن يسميها إلا ممينا Mumina أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة فى بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة أو الشباب أو الذاكرة أو الحظ أو الشرف أو الخوف أو الفضيلة أو العفاف أو الوفاق[٧] [*].

---

(٤) ديورانت ٩ / ١٢٢ (٥) ديورانت ٩ / ١٣٠ (٦) أميرة ٤٠٣ (٧) ديورانت ٩ / ١٢٤

(*) وهو أمر يدعو على الدهشة ، أن يكون اليونانيون أصحاب الفلسفة والمنطق الصورى وهندسة إقليدس ، وكلها علوم تجريدية أكثر تجسيما ووثنية فى دينهم من الرومان الذين لم يكونوا يفقهون شيا من هذه العلوم.

ولنطلع الآن على بعض فضائل الرومان وقيمهم :

الاحترام والتقوى فى الأسرة :

بعد هذه المقدمة عن الدين عند الرومان ، يحق لنا أن نتساءل: ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ يجيب ديورانت على ذلك قائلا أنه بالرغم من أن الديـن كـان يهـتم بالطقوس والمراسم ، ما يوحى بأن الآلهة لا تجزى الشخص لصـلاحه ، بـل لمـا يقدمـه من الهدايا، وما يتلوه من الصيغ ، وهذا فى رأى ديورانـت – من بعض النواحى- يبعث على الفساد الخلقى ، ولكن الدين القديم[*] مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق، وإلى النظام والقوة فى الفرد والأسرة والدولـة،وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل قبل أن يتسرب إليه الشك ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة ،كذلك كان يجعل للأسرة حقوقا وضمانات ومعونـة مقدسـة ، فكان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتـبادل والتقوى، وجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسيا خاصا، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج[٨].

العفة والطهارة

العفـة والطهارة من الفضائل التى اهتمت بها شعوب وجماعات كثيرة خاصة بالنسـبة للإناث. يقول ديورانت " ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحـدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته ، ظلت خشنة طـليقة ، ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة ، وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن "[٩].

(*) أى قبل أن يتأثر الدين الرومانى بالدين اليونانى.

(٨) ديورانت ٩ / ١٣٩ (٩) ديورانت ٩ / ١٤١

أمـــا عـــن الدعـــارة بالذات فيبدو أنها كانت منتشرة عند الرومان كما كانت منتشـــرة عـــند اليونـــان ، ونستطيع أن نقول بدون كثير من المبالغة ، إنها كانت منتشـــرة لـــدى كافـــة الشعوب كثيرة الحروب ، غير أن الرومان كانوا يبررونه بشـــتى الوسائل ، ومع ذلك كانوا يزدرون العاهرات " ولم تكن العاهرات كثيرات فى روما فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات ، وهو شعار الـــزوجة المحـــترمة ، وكُـــنَّ محصـــورات فى الأركان المظلمة من روما ومن المجتمع الرومانى "(١٠).

الأمانة وعدم الغش :

رغـــم أن المـــؤرخ بولـــيبيوس من اليونان ، ورغم وجود عداء تاريخى بين اليونـــان والرومان ، ولكن هذا المؤرخ اليونانى يلتزم الحيدة مع ذلك حين يصف أخـــلاق الـــرجل الرومانى ، فبالرغم من أن الرومان كانوا يحبون المال ، إلا أن بوليبيوس يصفهم حوالى عام ١٦٧ ق٠ م بأنهم " رجال مجدون شرفاء " ثم يقارن بيـــنهم وبيـــن اليونانيين الذين كثر بينهم الاختلاس ويقول : " أما الرومان فكانوا يتصرفون فى مبالغ طائلة من الأموال العامة ، ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا فى حـــالات جد نادرة "، بل إن فضيلة الأمانة كانت هدفا للمجتمع الرومانى قبل ذلك بكثير ، حين اهتمت الدولة بنزاهة الانتخابات فى أوائل عهد الجمهورية فأصدرت قانونا عام٤٣٢ ق٠ م لمنع الغش فى الانتخابات(١١).

البر بالوعد والوفاء والنظام :

يـــبدو أن الـــرومانيين من هذه الناحية كانوا ذوى أخلاق صلبة راسخة ؛ ففى روايـــة أن هانيبال – القائد القرطاجنى- أرسل بعد معركة (كاتى) عشرة أسرى

---

(١٠) ديورانت ٩/ ١٤٢ (١١) ديورانت ٩ / ١٤٧- ١٤٨

مـن الـرومانيين إلى رومـا ليفاوضوها فى افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ، ووعـدوه هؤلاء العشرة بالعودة إليه ؛ وفوا كلهم عدا واحدا منهم بما وعدوه به ، فمـا كـان مـن مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر ، وصفده بـالأغلال ، وأعـادوه إلى هانيبال[١٢]، مما يدل على وجود فضيلة الوفاء والبر بـالوعد لدى الرومانيين والدولة على حد سواء ، ولا يهم أن شذ واحد منهم عن ذلك ٠

ومـن الفضائل الأخرى للرجل الرومانى بالإضافة إلى الوفاء ، أن الرومانى العـادى فى ذلك العهد ، كان محبا للنظام ، محافظا وفيا ، لا يُفرِط فى الشراب، وقـورا ، بخيلا ، قاسيا ، عمليا ، وكان يحب النظام ويسر منه ، ولا يستمع إلى مـا يقـال عن الحرية عند اليونان ، وكان مطيعا يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعـتياد الأمر والنهى ، وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تتثبت من أخلاقـه ، كمـا تتثـبت من إيراده ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه من خدمـات[١٣]٠وهى جميعـا فضـائل وقيم تحلى بها الرومانى ، فيما عدا القسوة والـبخل وازدراء الحـرية ، وهـو شيء مفهوم من مجتمع يعيش دائما فى حالة حرب مستمرة٠

العدالة :

اهـتم الرومان بالعدالة وتوزيعها على الناس اهتماما كبيرا ، حتى أنهم أنشأوا مـا يعرف حتى الآن بالقانون الرومانى ، الذى ما زال يدرس فى كليات الحقوق ربمـا فى جميـع أنحـاء العالم ، باعتباره مبحثا من أهم المباحث القانونية ، وقد جعـلوه دسـتورا للحكم ٠ يقول ديورانت عنه : " كان كبار الحكام يهيمنون على توزيـع العدالـة فى نطـاق هذا الدستور الفذ ، تطبيقا للألواح الإثنى عشر التى

---

(١٢) ديورانت ٩ /١٤٨ (١٣) ديورانت ٩ /١٤٨

ســـجلتها فيها لجنة العشرة ٠ ولقد كان القانون الرومانى قبل هذا التسجيل خليطا من العادات القبلية ، والمراسيم الملكية والأوامر الكهنوتية[١٤]٠

(١٤) ديورانت ٩ / ٦٧

الفضائل والقيم
لدى الرواقيين الرومان

سبق أن قلنا عند حديثنا عن الرواقية عند اليونان ، أن هذا المذهب يونانى الأصل ، ولكنه انتقل إلى روما بعد ذلك على يدى مجموعة من الفلاسفة ، منهم سنيكا وإبكتيتوس العبد وماركوس أوريلوس ·ونذكر بوجهة النظر الرواقية فى الفضيلة ، وهى أننا ينبغى أن نعيش وفقا للطبيعة أى وفقا للعقل ، وأن رأس الفضائل الحكمة ، والحكيم هو من يخضع لسنن الوجود كله ، ولقد هاجموا اللذة وأعلوا من شان الواجب ··· إلخ ·والآن لنر كيف تأثر الرومان بهذه الفضائل:

تغليب المحبة بين البشر :

أما عن سنيكا (٤-٦٥م) فقد ولد بقرطبة ، ثم قدم إلى روما وليس لدينا الكثير عن فضائله ، وقد كان مربيا لنيرون ،ولكنه لم يفلح فى تقويمه منذ أن كان صبيا ، وأهم فضائله أنه غلّب المحبة بين البشر ، وترى الدكتورة أميرة مطر أنه ربما كان متأثرا بروحانية معاصره بولس الرسول(١٥).

الرحمة فى معاملة المجرمين واحترام الإنسان والتسامح :

أما عن إبيكتيتوس Epictetus فقد ولد بآسيا الصغرى وعاش بين عامى ٥٠ -١٣٨ م ، وكان عبدا رقيقا ، ولكن العبيد فى المذهب الرواقى يتساوون مع سائر الناس لأنهم جميعا أبناء الله ، ولقد سبق المسيحية فى التنديد بالاسترقاق وتحريم عقوبة الإعدام ،والتبشير بمعاملة المجرمين على أنهم مرضى يفتقرون إلى العلاج ولا يُقوّمون بالعقاب ، وغير هذا مما نادى به الرواقية والكلبية معا وكان

(١٥) أميرة ٤٠٤

إبيكتيـــتوس يطالب الإنسان بأن يحاسب نفسه كل يوم وأن يرد الإساءة بالإحسان (١٦)

ومـــن فضائل إبيكتيتوس ما يروى عنه أنه كان يقول : " لو طلب منى طاغية أن أفشـــى ســـرا ، وهـــددنى بأن يقيدنى بالأصفاد ، قلت له إنك تقيد ساقى ، ولا يمكـــنك أن تمـــس إرادتى بسوء ، وإذا أرسلتنى إلى السجن أمكنك أن تتحكم فى جسدى دون أن تمتد قدرتك إلى نفسى ٠٠٠ وكان يقول كذلك : إن الجندى ليقسم أن لا يحـــترم أحـــدا غير قيصر أما نحن [أى الرواقيين] فإننا نحترم أنفسنا قبل كل شيء "(١٧).

حب السلام والأخوة بين البشر :

أمـــا مـــاركوس أوريـــلوس فقـــد ولـــد بروما عام (١٢١ – ١٨٠ م) وتبناه الإمـــبراطور أنطونيوس ، وصار إمبراطورا بعده ، وكان يكره الحروب ويعتقد فى أخـــوة البشـــر واتصـــال الألوهية بالعالم والبشر(١٨). وكان بعاطفته الدينية الأكـــثر عمقا من الرواقيين الآخرين ، يشعر بالصلة الطبيعية التى تربط الإنسان مـــع الكـــون فى وحدة عضوية ، وأن عناية مطلقة الخير قد وضعت فى الإنسان رقيـــبا إلاهيـــا وهـــو العقل ، ففى استطاعته إذن عن طريق تحقيقه لتلك الماهية الأخلاقية دون أن يشوبها شيء خارجى ، أن يوحد بين نفسه وبين الغاية العاقلة لـــلكون ، وهـــذا هو واجب الإنسان الفعال نحو نفسه باعتباره مواطنا فى ملكوت الله(١٩).

---

(١٦) أميرة ٤٠٤ والطويل ٩٧ (١٧) الطويل ٩٨ (١٨) أميرة ٤٠٤ (١٩) الموسوعة ، مادة ماركوس أوريلوس

انتهيـــنا من الحديث عن الفضائل والقيم عند الرومان ، ورأينا أن الأسرة هى المحـــور الذى يلتقى الدين والأخلاق حوله ، وأن هذه الأسرة بعثت فى الرومان قوة و صلابة ، غير أن هذه الصلابة لم تمنع الحنان بين الآباء والأبناء ، رأينا أن الآلهـــة عندهم كانت عبارة عن معنويات مجردة ، وأن بعضها كان رمزا للشرف أو الفضيلة أو العفاف ، وكل ذلك من الفضائل إلى جانب بعض الرموز الأخرى، وأن الدين القديم – قبل مجيء الدين اليونانى– كان يدعوا إلى فضائل الأخلاق ، وأنـــه كـــان يغـــرس فى قـــلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ، كما رأينا أن المجتمع الرومانى كان يطـــلب مـــن الفـــتيات المحافظـــة على بكارتهن قبل الزواج ، وأنه رغم وجود الدعارة، فإن العاهرات كُنّ محتقرات من المجتمع.

أمـــا عن الأمانة والنزاهة والبر بالوعد فقد شهد أحد المؤرخين اليونان بأنهم رجـــال مجدون شرفاء ، وبانهم لا يمسون المال العام ، وأن هذه الفضائل كانت هدفـــا للمجـــتمع الرومانى حين اهتمت الدولة بنزاهة الانتخابات ، وهو ما تفتقده كـــثير مـــن المجتمعات الحالية ، ولقد رأينا أن الرومانيين كانوا– من ناحية البر بـــالوعد– ذوى أخـــلاق صـــلبة ، حتى أنهم أعادوا الأسير الهارب إلى أعدائهم مصفدا بالأغلال لأنه لم يبر بوعده.

وأمـــا عـــن اهتمامهم بالعدالة ، فيكفى أنهم أصحاب القانون الرومانى الشهير الذى ما زال حتى اليوم يدرس فى معظم المعاهد القانونية فى العالم ، إن لم يكن فيهـــا جميعـــا ، باعتباره مبحثا قانونيا هاما .ولقد رأينا أيضا أن القيم الرواقية قد انتقلت من اليونان إلى روما عبر بعض الفلاسفة الرواقيين الذين انتقلوا إلى روما ودعـــوا إلى القيـــم والفضـــائل الـــرواقية ، وأن بعض هذه القيم كانت سباقة فى رفضـــها لـــلرق رفضا صريحا وكذا رفض عقوبة الإعدام ، ومطالبتهم معاملتهم المجـــرم عـــلى أنه مريض ، وهو ما ذهبت إليه كثير من النظريات الاجتماعية

والنفســية المعاصرة ٠وكافة هذه الفضائل والقيم ، كان الرومان يمارسونها بعيدا عن مكان نزول الوحي ، بل إن بعض هذه الفضائل والقيم قد مهدت فعلا لانتشار المســيحية فى أوربــا ، إذ أنها لم تختلف عن تلك التى جاءت بالوحى٠على أننا نحــترز مــن الــرواقية فى رومــا ، فقد تكون حقا متأثرة بالمسيحية التى كانت معاصــرة لها ، خاصة أن الفضائل التى بشرت بها كالتسامح ومحبة البشر ورد الإساءة بالإحسان ، لم تكن من مبادئ الرواقية الأولى التى جاءت قبل المسيحية، فى حين أنها من صلب الديانة المسيحية التى جاءت بعد الرواقية الأولى ٠

وأخيرا ننتقل إلى فضائل العرب وقيمهم فى عصرهم قبل الإسلام ٠

الفصل الحادى عشر
الفضائل والقيم لدى العرب

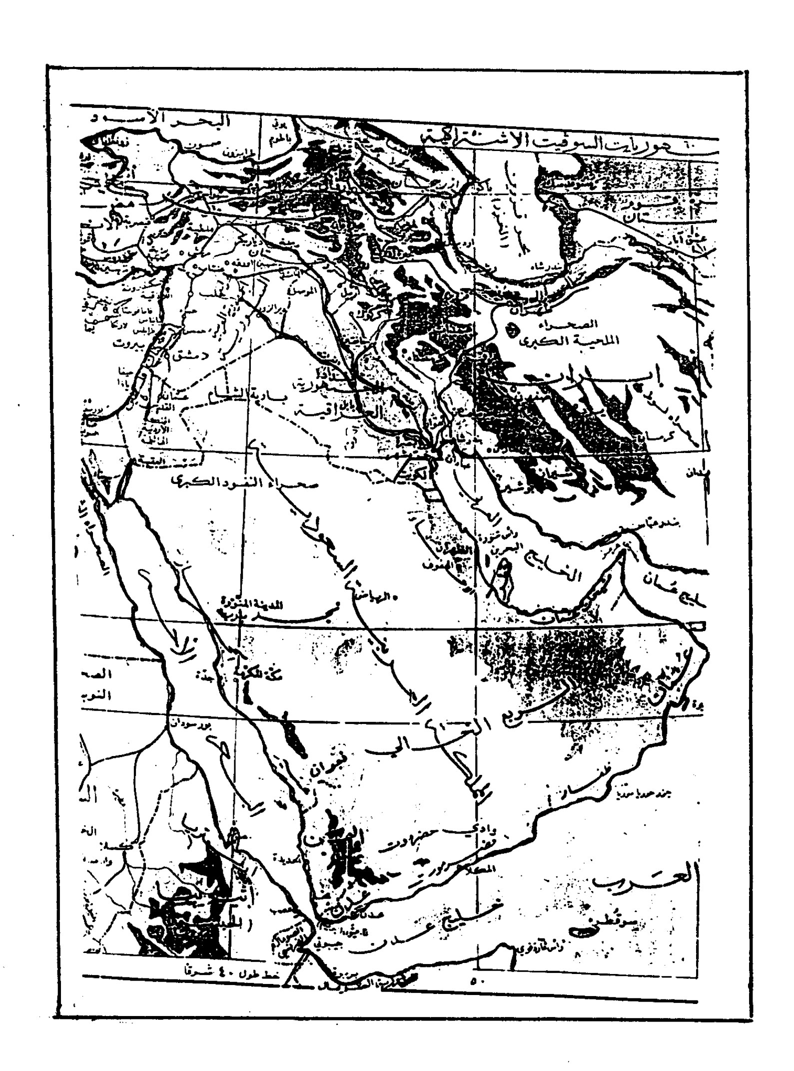
مقدمة :

رغم التأثير الكبير للعرب على العالم القديم ، بما قدموه من حضارة اسلامية رفيعة ، وفكر اسلامى خصيب ، إلا أن تاريخهم قبل الإسلام ، يكاد يكون مجهولا ، اللهم إلا فى المائتى سنة الأخيرة قبل ظهور الإسلام " إذ أن أخبار العرب فى الجاهلية ، التى وصلت إلينا فى المدونات التاريخية لا تعدو أن تكون أخبارا مضطربة ، تختلط فيها الحقائق التاريخية بالروايات الخرافية ، ويسودها بوجه عام الطابع الأسطورى والعنصر القصصى"(١)٠

وشبه جزيرة العرب- أو جزيرة العرب كما يقال عادة- هى مهد الجنس السامى ومرباه ، فمن هذا الصُقع الجدب حيث ينمو الإنسان شديدا عنيفا ، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق ، تدفقت موجة فى إثر موجة فى هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدى البأس ، لا يهابون الردى ، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكانوا لابد أن يقتحموا بسواعدهم مكانا خصبا ظليلا يعولهم ويقوم بأودهم (٢)٠أما من بقى من العرب فى بلادهم ، فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو وأنشأوا الأسرة الأبوية بما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة المضنية والشجاعة العمياء التى تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قربانا للآلهة ٠على أن الدين- كما يرى ديورانت- لم يكن أمرا جديا بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد (ص) بالإسلام(٣) .

---

(١) سالم ٥ (٢) ديورانت ٢/ ٣٠٩ (٣) ديورانت ٢/ ٣٠٩



خريطة حديثة للجزيرة العربية

هــناك مشكلتان بالنسبة لموضوع الدراسة ، يحسن أن نشرك القارئ معنا فى الوصول إلى حل لهما :

الأولى : عــدم وجود مجتمع متجانس فى شبه الجزيرة العربية التى تتسع اتساعا عظيمــا ، فالقحطانيون (اليمنيون) فى الجنوب ، والنزاريون فى الشمال ، ولكلٍ لغته[٤]. وسوف نختار دراسة أهل الشمال وهم أهل الحجاز ونَجْد وكافة المناطق الناطقة باللغة العربية أيا كانت لهجتها، لوجود مدونات مسجلة لدينا بهذه اللغة.

الــثانية : مــا هى المصادر التى نحصل منها على فضائل العرب وقيمهم ، فى الوقت الذى لا يوجد فيه تاريخ أو وثائق مكتوبة عن حياة العرب قبل الإسلام إلا الــنذر اليســير ؟ سوف نعتمد على هذا النذر اليسير ، ولكن ماهى المظان التى يمكن أن تخبرنا عن فضائل العرب وقيمهم ؟

إن أول هــذه المظان وأخطرها هو الدين ، إذ أن الدين عادة ما يكون مرتبطا بالفضائل والقيم برباط وثيق ، فهل كان للعرب دين معروف ؟

لــم يكــن العــرب فى الواقع يدينون بدين واحد ، بل كانوا يعتنقون معتقدات عديــدة ؛ فقد انتشرت اليهودية فى بعض اليمن ويثرب وخيبر ، وكانت لهم قبائل ذات أســماء عربية معروفة ، مثل بنى النضير وبنى القينقاع وبنى قريظة ، كما انتشرت المسيحية فى شمال اليمن عند عرب نجران ، وكان الغساسنة فى الشمال والــلخميون فى الشــمال الشرقى جميعا يدينون بالمسيحية . ويقول أليرى " إننا نســتطيع أن نقول إن التأثير النسطورى قد نفذ إلى العرب كلهم ، هذا فضلا عن أن الإرساليات النسطورية قد تغلغلت فى الجزيرة العربية "[٥] . غير أن هناك رأيــا آخــر لبروكلمان يرى فيه " أن من العرب من اعتقد قبل الإسلام بإله هو خــالق الكــون ، هــذا الإلــه هو (الله) الذى لم ينقل العرب فكرته عن اليهود

(٤) أمين ٥ (٥) الشحات ١٠٣

والنصـــارى كمـــا يظـــن كثير من الباحثين "[٦]، غير أن بروكلمان لم يبين لنا مصـــدر هـــذا الإيمان ،ثم ينتهى الدكتور الشحات زغلول إلى رأى تؤيده كافة الشواهد التاريخية إبان ظهور الإسلام حيث يقول " والواقع أن العرب كانوا على ديـــن إبراهيم ، ثم غيَّر عمرو بن لحى هذا الدين وبعثهم على عبادة الأصنام التى جلـــبها من الشام والتى صنعها لهم "[٧]، ولقد سبق الشهرستانى فى الملل والنحل إلى رأى ممـــاثل لهـــذا (٨)،وســـوف نأخذ بهذا الرأى وهو أن العرب -فيما عدا المسيحيين واليهود منهم-كانوا يدينون بدين ابراهيم ثم هجروه إلى عبادة الأوثان وأصـــبح لهـــم دين آخر صنعوه بأيديهم ،ونستنتج أنه كان دينا بسيطا ساذجا لم يتغلغل داخل نفوسهم حتى أنه لم ينعكس على حياتهم الأدبية، كما هو معروف.

عـــلى أنه فى جميع الحالات وحتى بالنسبة لتباين العقائد فى جزيرة العرب، تـــلك العقـــائد الـــتى لا تكـــاد تظهر فى آدابهم من شعر وقصص وأمثال ، فإننا نســـتطيع أن نطمـــئن إلى ســـيادة أخلاق معينة بين العرب جميعا على اختلاف عقـــائدهم أيـــا كـــانت ، فقد كانت الحياة قاسية جدا - كما سبق أن ذكرنا- كأى صـــحراء جـــرداء قليـــلة المطر كثيرة الرياح والعواصف ، شديدة الحرارة فى الصـــيف وشـــديدة البرودة فى الشتاء ، وأن هذا كله لم يسمح بالاستقرار ، فهذه الخصـــائص المناخية والإقليمية -كما يقول الدكتور محمد زكى العشماوى " هى التى وجهت حياة العربى وحددت ملامح مجتمعه وما يسوده من قيم ، وهى التى فرضت عليه ألوانا معينة من الحياة "[٩]، أى أن العرب جميعا قد انصهروا -قبل الإســـلام- فى بوتقـــة واحـــدة بحيث يمكن اعتبارهم مجتمعا متجانسا من الناحية

---

(٦) الشحات ١٠٦ (٧) الشحات ١٠٧ - ١٠٨ (٨) الشهرستانى ٣٨٧
(٩) العشماوى [أ] ١٢٧

الأخلاقيـــة ، ونســـتطيع أيضـــا أن نطمـــئن إلى أن العقائد عند العرب لن تكون مصدرا لفضائلهم وقيمهم لغلبة طبيعة الحياة القاسية على الدين.

نـــأتى الآن إلى المظـــن الـــثانى للفضـــائل والقيم ، وهو القَصص ؛ غير أن القصص هو موضع شك حيث يحذرنا الدكتور شوقى ضيف قائلا " ينبغى أن لا لا نعـــلق أهميـــة تاريخية أو أدبية على هذه القصص ، فإن الرواة قد حرفوا فيه كثيرا قبل أن يأخذ شكله النهائى عند أبى عبيدة "(١٠).

نـــأتى الآن إلى المظن الثالث وهو الخطابة ؛ وهذه أيضا لن نركن إليها حيث أن أكـــثر ما يروى من الخطابة فى الجاهلية لا يصح الاطمئنان إليه من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته كما يقول الدكتور شوقى ضيف(١١) .

نأتى إلى المظن الرابع ، وهو الأمثال (والحكم) ، وهذه سوف نعتمد عليها كمصدر للفضائل والقيم ، فالأمثال تحافظ على نصها بطبيعتها ، فالمثل كما يقول الدكـــتور شـــوقى ضـــيف " لا يتغير بل يجرى كما جاء على الألسنة وإن خالف قواعد النحو وقواعد التصريف "(١٢).

وأخيـــرا نـــأتى إلى المظن الأخير، وهو الشعر ؛ ونحن نظن أيضا أن الشعر يحـــافظ مثل الأمثال بل ربما أكثر منها على نصه لما فيه من إيقاع ، ومعانى لا توجـــد إلا فى ألفـــاظ بـــالذات ، ولذلك سوف نعتمد على الشِّعْرَ الجاهلى مصدرا رئيســـيا لفضائل العرب وقيمهم خاصةً أنه واسعُ الأفق والمساحة فى عرض حياة العرب.

---

(١٠) ضيف ١٦ (١١) ضيف ٣٤ (١٢) ضيف ٢١

أولا : الأمثال والحكم

الأمــثال والحكم متقاربان ، غير أن الأمثال تُضرب فى موقف مشابه للمثل ، أمــا الحكمـــة فتطلق فى موقف ما لتحث على سلوك معين أو النهى عن سلوك آخر، وكلاهما بناءٌ لغوى صغير الحجم ، يُحفظ كما هو ، غير أن الأمثال والحكم يشتركان فى شيء واحد وهو الاعتبار والموعظة ، ولذا فإن أيا منهما قد يُستخدم فى موضع الآخر .وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضربها فى شئون حياتهم

يقول الجاحظ " كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع " (ضيف ٢٢).

وفيما يلى عرض لبعض فضائل العرب وقيمهم مستنبطة من أمثالهم وحكمهم :

عناية الأخ بأخيه وإيثاره على نفسه :

من فضائل الجاهليين أن العربى كان يعتنى بأخيه [أى بصاحبه] ويفضله على نفسه . قال أبو عبيد القاسمى ، قال الأصمعى ، من أمثالهم فى هذا قولهم (لك ما أبكى ، ولا عبرة بى) يضرب للرجل يشتد اهتمامه بشأن أخيه[١٣] . ومعنى المثل أن الأخ أو الصديق يمكنه أن يأخذ ما أحرص عليه إلى درجة البكاء ، وليس عليه أن يهتم بى.

ومن الإيثار أيضا قولهم :

(هذا جِناىَ وخياره فيه إذ كل جانٍ يده إلى فيه)

يقول أبو عبيد الخزاعى ، أخبرنى ابن الكلبى ، أن هذا المثل لعمرو بن عدى ابن اخت جذيمة الأبرش ، وكان جذيمة قد نزل منزلا وأمرالناس أن يجنوا له الكَماةَ،

---

(١٣) الخزاعى ٢

وكـــان بعضهم إذا وجد شيئا يعجبه فربما آثر نفسه على جذيمة ، وكان عمرو بن عدى يأتيه بخير مايجد ، فعندها يقول عمرو هذا البيت[١٤]. ومعنى المثل أن هذا هـــو مـــا جنيـــته بيدى وأفضل شيء تجده فيه ، وأنا أعطيه لك رغم أن غيرى يســـارع به إلى فمه. ولا شك أن المناسبة التى قيل فيها المثل ، تؤدى دورا هاما فى فهمه .

التسامح مع الآخر :

فى اشفاق الرجل على أخيه ، ومحاذرته لمكروهه ، قول أكثم ابن صيفى : (من جمّل لنفسه من حُسْنِ الظن بإخوانه نصيبا ، أراح قلبّه) ، يعنى أن الرجل إذا رأى مـــن أخيه إعراضا أ و تغيرا فحمله فيه على جميل ، وطلب له المخارج والعذر ، خفف ذلك عن قلبه ، وقل منه غيظه واغتمامه[١٥] ، فلا ينبغى أن يظن بـــه الظـــنون ، بـــل عليه أن يتسامح ويلتمس له الأعذار ، وهو إلى جانب هذه الفضيلة ، أى التسامح ،سوف يريح نفسه ، ويبعد عن قلبه الشك وسوء الظن فى صاحبه.

نقاء الضمير والقول الجميل :

مـــن حِكم وأمثال العربى الجاهلى قوله (إنما يعيش المرء بأصغريه) يعنى بقلبه ولسانه ، وقائل هذه الحكمة هو غُلمة ابن ضُمرة ، فلما أُعجِب الملك المنذر بكلامـــه سماه ضمرة ابن ضمرة[١٦].فهذه الحكمة تحث الإنسان على نقاء القلب ويكـــاد القدماء جميعا من شعوب شتى ،يقصدون "بالقلب" الضمير . فلكى يطيب العيش للإنسان لابد أن يتوسل لذلك بقلبه أى ضميره ، وبجميل القول من لسانه.

---

(١٤) الخزاعى ٢ (١٥) الخزاعى ١١ (١٦) الضبى ٩

إنجاز الوعد :

(أنجــز حُرٌّ ما وعد) ، يقال هذا المثل لكل من وعد وعدا لتذكيره به وحثه على تنفيذ ما وعد به ، ولقد ربط الحكيم انجاز الوعد بصفات الرجل الحر .وكما يحــكى الضبى ، كان مرباع بن مالك بن حنظلة فى الجاهلية فى زمان صخر بن نهشــل بن دارم لصخرٍ ، فقال له الحارث بن صخر بن آكل المِرار الكندى : هل أدلُّــك يــا صخر على غنيمة ، على أن لى خمسها ،فقال له صخر : نعم ، فدله عــلى نــاس من أهل اليمن ، فأغار عليهم صخر بقومه وغنموا وملأوا يديه من الغنائم و أيدى أصحابِه ، فلما انصرف قال له الحارث (أنجز حر ما وعد)[١٧] .

العفة والكرامة :

ومــن فضــائل العربى الجاهلى العفة والكرامة ؛ فأطلقوا هذا المثل (تجوع الحُــرَّة ولا تأكل بثدييها) . إن المرأة العفيفة الطاهرة ، حتى وإن جاعت، وضاق بهــا الحال ، لا تفرط أبدا فى شرفها ، وتفضل الموت جوعا على ارتكاب الرذيلة [١٨] .

ومن ذلك قولهم (الحرُّ حرٌّ وإن مسه الضرُّ). أى أن الإنسان الحر الكريم ، يظل كذلك ويحافظ على كرامته ، فمهما حدث له من مكاره ، وما تعرض له من أزمات وأضرار ، فإنه لا يفرط أبدا فى كرامته ، ويظل محافظا عليها[١٩] .

ومــن ذلك أيضا قولهم (المَنيَّةُ ولا الدنية) ، فالعربى الجاهلى يفضل الموت على أن يسلك سلوكا دنيئا يشينه فيما بعد حتى ولو كان فى ذلك نجاته من المأزق الــذى يعانيه[٢٠].وكل ذلك يعنى أن العربى الجاهلى كان على وعى تام بفضيلتى العفة والكرامة .

---

(١٧) الضبى ١٧ (١٨) ضيف ٢٢ (١٩) ضيف ٢٢ (٢٠) ضيف ٢٦

العدل :

وكـــان العـــربى الجاهلى على وعى أيضا بفضيلة " العدل "٠ قد يمارسه فى حياتـــه العاديـــة ، ولذلك نصح أكثم بن صيفى أخاه العربى بأن يتريث فى حكمه عـــلى الأمـــور وقال : (ليس من العدل سرعة العدل)(٢١)٠ إذ من المعروف أن الإنســـان المتسرع فى حكمه ، يكون عرضة دائما للوقوع فى الخطأ ، فلا يتحقق العدل المنشود ٠

ولقـــد حـــث أكثم بن صيفى أيضا على تطبيق العدالة على الجميع فقال (لو أنصِـــف المظلوم ، لما بقى فينا ملوم)(٢٢)٠ فلو أخذ كل مظلوم حقه ، فلن يكون هناك من يوجه إليه اللوم٠

---

(٢١) ضيف ٢٤ (٢٢) ضيق ٢٤

ثانيا : الشعر الجاهلى

قلـــنا فى المقدمـــة أن الشعر الجاهلى سوف يكون من المصادر التى يُطمَأن إليهـــا للحصول على الفضائل والقيم عند العرب القدماء ، وذلك لسهولة المحافظة عـــليه لمـــا فيـــه من إيقاع ووزن تجعله سهل الحفظ ، وما يزخر به من عاطفة تجعلـــه كثير الدوران على الألسنة فيصل إلينا سليما إلى حد كبير ٠ والآن لنر ما فى هذا الشعر من فضائل وقيم :

الشجاعة والبطولة :

لعل الشجاعة والبطولة والحماس بوجه عام ، تكون من أبرز الفضائل والقيم لـــدى المجـــتمعات الصـــحراوية بعامة ، فلقد كان العربى القديم يفتخر ببطولته وشـــجاعته فى كـــل مناحى الحياة ٠ فهذا طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى يتحدث عن نفسه وبطولته ويقول أنه رجل ضَرْبٌ [أى نحيف دليلا على خفة الحركة]، الجميع يعرفونه بسرعته وحسمه ، فهو فى خطورته مثل رأس الحية الملتهب بما يحويه من سم ناقع ، وإذا حمل قومه السلاح لغزو أو حرب ، وجدته منيعا قويا لا يترك السيف من يده أبدا:

أنا الرجلُ الضَّرْبُ الذى تعرفونه	خشـــاشٌ كرأسِ الحيـــةِ المتـــوقدِ
فآليت لا ينفكُ كشحى بطانـــةً	لعضـــبٍ رقيـــق الشفرتيـــن مهندِ
حسامٍ إذا ماقمتُ منتصرا بـــه	كفى العـــود منه البدء ليس بمعضد
أخى ثقة لا ينثنى عن ضريبةٍ	إذا قيل مهـــلا قال حاجزه قـــــدى

إذا ابتدر القومُ السلاح وجدتنى   منيعــا إذا بــات بقائمــه يــدى[٢٣]

وهذا النابغة يصف إحدى معارك أصدقائه الغسساسنة ، وهم محاربون شــجعان ، لدرجــة أن الطيــور الجارحة تعرف أصحابه وتنتظر معاركهم حتى تحصــل عــلى فرائسها من لحوم ضحاياهم ٠وهؤلاء الفرسان يأتون على جياد صــابرات ، بهــن الكلوم اليابسة وغير اليابسة ، فإن ضاق الموضع على الدابة نــزل عــنها راكــبها للطعن وأسرع إلى مقصده يحتضن الموت فرحا ، بل إنهم يتســاقون كئوسه فرحين جذلين كما يتساقى الشرب الكئوس فى رغد ودعة من العيــش ، وهم يضربون بمضاربهم الرقيقة [أى بسيوفهم] رؤوس القوم ، فيطير عــنها عظامها الرقيق ويتفرق هنا وهناك ، والعيب الوحيد لهؤلاء الفرسان كثرة مــا تشقق من سيوفهم من كثرة المعارك وكثرة ما أصابوا من قتل وأحرزوا من نصر [٢٤]، ولننظر فى هذه الأبيات :

إذا ما غزوا فى الجيش حلّق فوقهم   عصائبُ طيرٍ تهــتدى بعصــائبِ

يصاحبهم حتى يغرن مغــارهم   من الضاريات بالدمــاءِ الــدواربِ

جوانح قد أيقــنّ أن قبــيله   إذا ما التقى الجمــعان أول غالبِ

لهــن عليه عــادة قد عرفنــها   إذا عُرّضَ الخــطى فوق الكواثبِ

على عارفــات للطعان عوابثٍ   بهــن كــلوم بين دامٍ وغــالــبِ

إذا استُنزِلوا عنهن للطعن أرقلوا   إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعبِ

فهــم يتســاقون المنية بينــهم   بأيديهم بــيضٌ رقــاق المضاربِ

يطير فضاضها بينها كل قونسٍ   ويتبــعها منهم فــراشُ الحــواجبِ

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهــن فلــول من قــراعِ الكتائبِ[٢٥]

---

(٢٣) العشماوى [أ] ١٣٣

(٢٤) العشماوى [ب] ٣٢   (٢٥) العشماوى [ب] ٣٢-٣٣

غير أن العربى الجاهلى لم يكن يتحلى بفضيلة الشجاعة من أجل الحرب ومعاركها فقط ، بل كان يتخذها وسيلة أيضا للفوز بقلب حبيبته • فنحن نجد فى بعض من المعلقات أبياتا تصور هذه الشجاعة• ففى معلقة امرئ القيس المشهورة يقول فيها :

وبيضة خدر لايرام خبــاؤها	تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا	علّىَّ حراصا لو يسرون مقتلى

فانظر إلى التباهى بالقوة وإلى الاعتداد بالنفس ، وإلى اقتحام المخاطر ، فها أنت ترى أن امرأ القيس لا يزور حبيبته أو عشيقته ، وإنما هو يقتحم الحصون والأســوار ، وكأنــه يخــوض معــركة ، فعلى الرغم من هؤلاء الحراس الذين يحيطون ببيت صاحبته ، والذين هم أشد ما يكونون حرصا على قتله والفتك به ، تراه قادرا على أن يشق طريقه من بين صفوفهم ، لأنهم وهم جماعة مسلحون ، أضعف من أن ينالوه[٢٦]•

الكرم والشهامة والإحسان :

والكــرم والشــهامة أيضا من فضائل المجتمعات الصحراوية ، إذ لا تستقيم الحيــاة فى الصحراء بدون هاتين الفضيلتين• وهاتان الفضيلتان متضايفتان ، إذ أن كــلا منهما عطاء، بل إن فيهما – كما يرى الدكتور العشماوى – من البطولة والفروسية، ما لا يقل عن معانى الاستبسال فى القتال والذود عن الحياض• يقول الشاعر الجاهلى متنافرا :

تُعَيِّــرُنا أنَّا قليــلٌ عــدادُنا	فقلت لها إن الكــرامَ قليلُ
وما قَلَّ من كانت بقاياه مثلنا	شباب تسامى للعلا وكهولُ

---

(٢٦) العشماوى [أ] ١٣٠- ١٣١

وما ضــرّنا أنا قليل وجارنا عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ(٢٧)

فهم رغم قلة عددهم ، فإن جارهم عزيز بهم لأنهم يبذلون له العون والحماية، أمــا " الأكــثرين " الذين يعيرونهم بكثرة عددهم ، فإن جار هؤلاء الأكثرين ذليل لبخلهم وعدم إجارتهم له ٠

ومــن صور الكرم والتفاخر ببذل العون ، وهو نوع من الشهامة ، ما يفتخر بــه لــبيد ، فهــا هــم الجيران والأضياف والغرباء وذوو الحاجة من المساكين والضــعفاء ، يــأتون إلى داره حيث يجدون جِفانا كثيرة ممتدة ومملوأة بالمرق والــثريد ، ومكلــلة بقطــع من اللحم تقدم للفقراء إذا ما تقابلت الرياح وتناوحت واشتد البرد والصقيع ٠ ومن شهامة لبيد وكرمه أنه لا ينحر أحط الذبائح ، بل لا يدخــر وسعا فى اختيار أكرمها وأنفسها ، ثم هو يفخر بأن ما ينحره هو من حر ماله وليس من مال غيره ٠ فلنستمع إلى لبيد :

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحتفِها بمــغالق متشــابه أجسامُها
أدعو بهن لعاقــرٍ أو مطفــلٍ بُذلت لجميع الجيران لِحامُها
فالضيفُ والجارُ الجنيبُ كأنما هبطا تبالةَ مخصبا أهضامُها
ويكلّلون إذا الرياحُ تناوحــتْ خُلُجا تُمَدُّ شوارعا أيتامُها(٢٨)

وها هو لبيد مرة أخرى ، يفتخر أمام حبيبته بالليالى التى يقضيها مع أقرانه ، وكيــف أنــه يحقــق لندمائه ما لم يحققه أحد ، فكم من خمرة عزيزة غلا ثمنها وعزت على شاربيها ولكنها طوع يديه ، يقدمها لندمائه فى كرم وسخاء :

أوَلم تكن تدرى نــوارُ بأننى وصالُ عقــد حبائــلٍ جَذَّامها
ترّاك أمكنــةٍ إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامُها

---

(٢٧) العشماوى [أ] ١٣٥ (٢٨) العشماوى [أ] ١٨٥-١٨٦

بل أنت لا تدرين كم من ليلةٍ طلــقٍ لذيذٍ لهــوُها ونِدامــُها

قد بتُّ سامــرّها وغاية تاجرٍ وافيت إذ رُفِعت وعزَّ ختامُها

أُغلى السباءَ بكل أدكنَ عاتقٍ أو جونةٍ قدحت وفُضَّ ختامُها

بصبوحِ صافيةٍ وجذب كرينةٍ بمُــوترٍ تأتالــُه إبهــامُــها

بادرتُ حاجتها الدجاجَ بسُحرةٍ لأعلَّ منها حين هبت نيامُــها

وغداةَ ريحٍ قد وزعتُ وقِــرَّةٍ قد أصبحتْ بيدِ الشمالِ زمامُها

ففى الأبيات السابقة – بالإضافة إلى وصف الخمر – تصوير للكرم والجود ، ولكــنه تصوير لا يقف عند مجرد ما يبذله الشاعر لأصدقائه من كرم الضيافة ، وإنمــا هــو الكرم الذى يمتزج بالشهامة والبطولة والتضحية بكل غالٍ ورخيص حــتى أن القارئَ ليحس من خلال كلمات الشاعر أنه لو كان هناك شيء آخر يمكن أن يقدمه الشاعر لضيفانه غير الخمر ونحر الإبل ومد الموائد للفقراء غداة هبوب ريــاح الشــمال واشــتداد الصقيع ، لقدمه عن طيب خاطر ، وبكثير من الزهو والفخار[٢٩].

الأمانة والعفة والشجاعة :

كــان العربى الجاهلى حساسا جدا بالنسبة للأمانة ، ويجزع حين يوصف بقلة الأمانــة ، لذلك فقد جزع النابغة الذبيانى لما ظن النعمان بن المنذر أن النابغة قد خــان صــداقته ، فيعاتبه النابغة لتصديقه شخصا شريرا يكره النابغة ، وتركه له يرتع بجريمته ويعاقبه هو رغم أمانته :

لكلفتنى ذنب امرئٍ وتركته كذى العرِّ يُكوى غيرُه وهو راتعُ

ثم يقول بعد ذلك تأكيدا لأمانته :

---

(٢٩) العشماوى [أ] ١٣٤-١٣٥

أتوعد عبدا لم يخنك أمانةً وتترك عبدا ظالما وهو ظالعُ(٣٠)

وهـا هى العفـة تمتزج بالشجاعة عند عنترة ، فإن من شهد الحرب سوف يخبرك بأن عنترة لا يهاب الموت ويحارب بشجاعة ، فهو مدجج بالسلاح ، يكره الفرسـان الشـجعان منازلـته ، فهو لا يهرب أبدا ، ولا يستسلم لعدوه ، بل إنه يعـاجل واحدا بطعنة من سيفٍ مُثَقَّفٍ ، ويشق برمحه ثياب الآخر مهما كان من شجعان الفرسان ، وهو بعد ذلك يترك عدوه للسباع تنهش جسده ، وهو رغم كل ذلـك فإنـه بعـد أن ينتصر فى المعركة ، يَعِفُّ عن نصيبه من الغنيمة ويتركه لغيره:

يخبرْك من شَهِدَ الوقيعةَ أننى أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ

ومدجـجٍ كـره الكماةُ نزالَه لا ممـعنٍ هربا ولا مستسـلمِ

جادت له كفى بعاجلِ طعنةٍ بمثقـفٍ صـدقِ الكعوبِ مقومِ

فشككتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَه ليس الكـريمُ على القنا بمحرَّمِ

فتركتُه جـزرَ السباعِ ينشنه يقضمن حسن البنـانِ والمعصمِ

لمـا رآنى نـزلت أريـدُه أبـدى نواجـزه لغيـر تبـسمِ

عهدى به مدَّ النهارِ وكأنـما خُضِبَ البنانُ ورأسُـه بالعظلمِ

فطعنتُـه بالرمحِ ثم علوتُه بمهنَّدٍ صافى الحديدةِ مخذَمِ(٣١)

العدل والوفاء والخلق الفاضل :

ولقـد أدرك العـربى الجاهـلى فضـيلتى العدل والوفاء ؛ فمن قصة النابغة والـنعمان والوقيعـة بينهما ، يتبين أن النابغة كان يؤمن بالمُثُل الأخلاقية ، وأن فضائل الناس لا تضيع ، وهنا يعود النابغة للخالق فيؤمن به وبعدله :

---

(٣٠) العشماوى [ب] ٩٦ (٣١) العشماوى [أ] ١٣٣

أبى الله إلا عـــدله ووفـــاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

فالنابغة هنا على إدراك لفضيلتى العدل والوفاء[٣٢].

ولقـــد حـــث زهيـــر بن أبى سلمى على الخُلق الفاضل ، فالخلق الردئ سوف يظهر للجميع وإن حاولت إخفاءه ، فأنت تعجب بالإنسان صامتا ، ولكنه إذا تكلم، بـــانت لـــك فطنـــته أو حمقه ، فلابد من التخلق بالخلق الطيب ، ولتعلم أن خلقك قسمةٌ بين لسانك وقلبك ، وكان القدماء – كما رأينا مرارا فى ثقافات عديدة–حين يقولون "القلب" أو "الفؤاد" فإنهم يعنون الضمير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على النُاس تُعلمِ
وكائن ترى من صامتٍ لك معجب زيادتـــه أو نقصـــه فى التـــكلمِ
لسان الفتىَ نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبق إلا صورة اللحم والدمِ[٣٣]

العفو والحلم :

مـــن الطـــبيعى أن تتضـــايف هاتـــان الفضيلتان ؛ ولقد كان الشاعر العربى الجاهـــلى على إدراك لهما ، فها هو النابغة الذبيانى يطلب من صديقه النعمان بن المـــنذر أن يكون حليما معه ويعفوّ عنه ، فالإنسان ينبغى ألا يحاسب صديقه على كـــل هفـــوة يرتكبها ، بل ينبغى أن يتوقعّ الإنسانُ من أخيه الأخطاء ولكنه يعفو عنها وينساها لكى يستبقىّ الود ويُبقى على الأصدقاء ، فقد يكون مع كل ما نسب إليه مظلوما ، ولكنه لا يشتكى الظلم ولا يتبرم به وإنما ينتظر الرضا ويتوقعه :

ولست بمستبقٍ أخا لا تلمُه على شعثٍ أى الرجال المهذبُ
فإن أكُ مظلوما فعبدٌ ظلمته وإن تكُ ذا عُتبى فمثلك يعتبُ[٣٤]

(٣٢) العشماوى [ب] ٩٦ (٣٣) الزوزنى ١٥٩ (٣٤) العشماوى [ب] ٨٥

ومن فضيلة الحلم أيضا عند العربى الجاهلى أن النابغة لما علم- وكان غائبا- أن قومَه قد هجوا عدوهم عامرا بن الطفيل بعد هزيمته أمامهم ، ولإصراره رغم الهزيمة على إشعال حرب أخرى مع قوم النابغة ،فهجوه وأفحشوا فى هجائهم ٠لما علم النابغة ذلك لام قومه ، ثم قال شعرا يخطئ فيه عامر بن الطفيل هذا لتهوره ومهاجمته قوم النابغة ، ولكنه شعر رجل رزين ناضج لا يفحش فى القول ، ولكنه يقوله بنفس الروح التى عرفناها للنابغة – كما يقول الدكتور العشماوى-روح السلام المحافظة على شرف قبيلته فى حدود سياسته الهادئة التى تسعى إلى اجتذاب الناس فى غير عنف أو خصومة فيقول :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلا   فإن مطيةَ الجهلِ الشبابُ
فإنك سوف تحلم أو تباهى   إذا ماشبت أو شاب الغرابُ
فكن كأبيك أو كأبى براءٍ   توافقك الحكومة والصوابُ
فلا تذهب بحلمك طامنات   من الخيلاء ليس لهن بابُ

فانظر إلى النابغة يحدث عامرا بن الطفيل حديث الأب الشيخ ، أو قل حديث المجرب الحليم الذى يسفه خصمه ويخطئه فى ترفع ووقار هما أبلغ من الهجو والفحش[٣٥]، ونقول من كل ذلك إن العربى الجاهلى لم يكن على إدراك فقط للفضائل والقيم ، بل كان يمارسها فعلا٠

والعفو قد يكون أيضا أحد الوسائل لتماسك الجماعة ، فقد يحدث أن يقتل رجلٌ رجلا آخر من نفس قبيلته ، وهنا يتحتم القصاص ، وقد يخشى القوم أن يؤدىَ ذلك إلى انشقاق فى القبيلة وتصدع فى بنيانها المتحد المتماسك ، فتضعف القبيلة بعد قوة ، ولقد هداهم النضوج العقلى والتطور الاجتماعى-كما يقول

---

(٣٥) العشماوى [ب] ١٤٩

الدكـــتور العشـــماوى-إلى طريقة للعفو عن القاتل ، فلولىّ المقتول أن يعفوَ عن القاتل ويرون أن ذلك أسلم حقنا للدماء ، وحفظا للقبيلة من الفناء ،يقول الشاعر :

قومى همو قتلوا أميمَ أخى فإذا رميتُ يصـــيبنى سهمى
فلئن عفوتُ لأعفونَّ جللا ولئن سطوتُ لأوهنن عظمى(٣٦)

فلقد كان العربى الجاهلى يمارس فضيلتى العفو والحلم فى حياته الواقعية.

الوفاء :

وهو أيضا من الفضائل الأصيلة لدى العربى الجاهلى ، ويظهر هذا الوفاء فى صـــور مـــتعددة ، ومـــن أبرز هذه الصور زيارة الأطلال والوقوف عليها ،فهى مـــراتع الصبا وفيها ذكريات عزيزة على العربى ، فلا أقل من زيارتها والتحسر عـــليها إذا غاب الإنسان عنها ، حتى أصبح الوقوف علىالأطلال سمةً بارزةً فى الشـــعر الجاهـــلى ، فهذه معلقة لبيد تبدأ كالعادة بالوقوف على الديار ووصف ما تبقى من آثارها بعد أن نزح عنها أصحابُها :

عفت الديارُ محلّها فمقامُها بمنى تأبـــّد غولُها فرجـــامُها
فمدافعُ الريَّانِ عُرِّى رسمُها خَلَقا كما ضَمِنَ الوُحِىُ سلامُها
دِمَنٌ تجرَّمَ بَعْدَ عهد أنيسِها حِجَجٌ خَلَوْنَ حلالُها وحرامُها(٣٧)

ومن الوقوف أيضا على الديار ، قول امرئ القيس فى مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقْط اللِّوى بين الدخولِ فحوملِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمُها لما نســجتها من جنوبٍ وشمألِ
كأنِّى غداةَ البينِ يوم تحمــلوا لدى سمُراتِ الحىِّ ناقفُ حنظلِ

(٣٦) العشماوى [ب] ١٢٩ (٣٧) العشماوى [أ] ١٤٦-١٤٧

وقوفا بها صحبى علىَّ مطيَّهم يقولون لا تهلك أسى وتجملِ(٣٨)

ومــن الوفــاء الاعــتراف بــالجميل ؛ ومن هذا الوفاء شعر للنابغة يمدح به الــنعمان وائل بن الجلاح الكلبى ، وكان قائدا للحارث بن أبى شمر الغسانى الذى أخــرجه عــلى رأس حمــلة لمحاربــة قوم النابغة رغم أن النابغة كان صديقا للغساسنة ، وانتصر هذا القائد على قوم النابغة ، وأخذ منهم الأسرى والسبايا من النســاء ، ولكن الجلاح عملا بصداقته مع النابغة ، خلَّص قوم النابغة من الأسر وأطلق سراحهم ، فما كان من النابغة إلا أن سار إليه شاكرا له فضله :

لعمرى لنعم الحىُّ صبَّح سرْبنا وأبيــاتنا يومــا بذات المراودِ
يقودهم النعمان منه بمصحف وكيــدٍ يعــم الخارجىَّ مناجدِ
فــآب بأبكارٍ وعــونٍ عقائلٍ أوانس يحميها امرؤٌ غير زاهدِ
غرائرَ لم يلقين بأساء قبــلها لدى بن الجلاح ما يثقن بوافدِ(٣٩)

وممــايدل عــلى أن الوفاء كان سلوكا عربيا أصيلا فىالعصر الجاهلى ، تلك الاعــتذاريات الــتى للــنابغة الذبيانى والموجهة لصديقه النعمان بن المنذر ملك الحيــرة بعد الوقيعة التى حدثت بينهما ، إلا أن النعمان قد مرض بعد ذلك مرضا لا يرجى منه ،غير أن النابغة لم يزد إلا تمسكا بصداقته ، فترى عواطف الشاعر تــتحرك فى صــدق نحو صاحبه ، وتحس فى مطلع القصيدة التى سوف نعرض بعضــها بالأحزان التى تأخذ بالنفس فيضيق لها الصدر ، ويود الشاعر لو يفيض بها إلى أحد من الناس أو يرفه عن نفسه بالشكوى فلا يجد إلى ذلك سبيلا :

كتمتُك ليلا بالحمومينِ ساهرا وهَمَّــيْنِ همــا مستكــنا وظاهــرا
أحاديث نفسٍ تشتكى ما يُرِيبُها ووِردَ همــومٍ لم يجــدن مصــادرا

---

(٣٨) الزوزنى ١-١٣ (٣٩) العشماوى [ب] ٤١

تكلفنى أن يغفل الدهر همـــها ... وهل وجدت قبلى على الدهر قادرا

ولم يكن هذا الاعتذار تملقا من النابغة ، فهو لم يعد يخشى النعمان الذى كان فى أيامه الأخيرة ، ولكن الوفاء هو الذى حرك عاطفته(٤٠).

المطالبة بالثأر والواجب نحو العشيرة :

المطالـــبة بالثأر والإلحاح عليه من الفضائل التى تتحلى بها المجتمعات القبلية الصـــحراوية ، والـــثأر هـــنا لا يعتبر حقا شخصيا ، بل حق قبلى ، التهاون فيه تهـــاون فى حـــق القبيـــلة وكرامـــتها ، والإلحاح على طلبه فضيلة يثاب العربى الجاهـــلى عليها ؛ فالثأر عندهم أصبح شيئا مقدسا أشبه شيء بالعقائد الراسخة ، فالرجل من هؤلاء إذا كان له ثأر فإنه يُحَرِّمُ على نفسه شرب الخمر ، وغير ذلك من لذائذ الحياة ، ويصوم عن متاع الدنيا ، ولن تهدأ له نفس أو تقر له عين حتى يـــأخذ بـــثأره ، عندئذ تهدأ نفسه ويمارس حياته العادية ، فمن ذلك قول قيس بن الحطيم عندما أدرك ثأره من قاتلى أبيه :

متى يأت هذا الموتُ لا تلف حاجة ... لنفسى إلا قضيت قضاءَها
ثأرت عديا والحطيم فلم أضع ... ولاية أشياخ جعلت فداءها(٤١)

ومن فضائل العربى القديم ، إدراكه لواجبه نحو قومه وعشيرته ، فهذا طرفة بـــن العـــبد يســـتجيب لقومه حتى إذا لم يدعوه هو شخصيا ، فمتى ماطلبوا فتى شـــجاعا ، ظـــن فـــورا أنه هو المطلوب فلبى دعوتهم فورا بدون إبطاء. يقول طرفة:

إذا القوم قالوا مَن فتى خلت أننى ... عُنيت فـــلم أكســـل ولم أتبلد

(٤٠) العشماوى [ب] ٩٧-٩٨ (٤١) العشماوى [أ] ١٤٣

ولست بحـــلال التلال مخـــافةً	ولكن متى يسترفد القوم أرفد[٤٢]

المسالمة :

هــذا ورغــم حيــاة الأخطار والمخاوف التى يتعرض لها العربى الجاهلى ، والتى تفرض عليه سلوكا عدوانيا شرسا حبا فى البقاء ،ورغم الحروب والثارات التى تقوم بينهم وقد تستمر عشرات السنين كما حدث فى حرب داحس والغبراء ، فــإن العــربى الجاهــلى كان مع ذلك له وجه آخر هو حبه للمسالمة والعيش فى هــدوء وطمأنينة ، مما يدل على أنه لم يكن بعيدا عن هذه الفضيلة ، فهذا النابغة الذبيــانى يكــره أن تكون بينه وبين الناس خصومة ، ويستنكر من بنى عامر أن يفرضــوا عليه خصومة قبيلة أخرى هى قبيلة بنى أسد ، فإذا تشابكت القبائل فى حروبها وعداواتها ، فالأفضل أن يسود السلام الجميع ؛ يقول النابغة :

فصالحونا جميــعا إن بدا لكــم	ولا تقــولوا لنا أمثالها عــامِ
إنى لأخشى عليكم أن يكون لكم	من أجلِ بغضائهم يوما كأيامِ
أو تزجــروا مكفهرًا لا كفاءَ له	كالليلِ يخلطُ أحراما بأحرامِ[٤٣]

وهــذا زهيــر بــن أبى سلمى ، يُنفِّرُ من الحرب وأهوالها بأبيات من الشعر تفيــض ســلاما ، وتعــبر عن شخص عانى أهوالها وآلا مها ، فأنتم متى بعثتم الحــرب فسوف تأتى ذميمةً منكرة ، ويزداد أُوارها متى شئتم ذلك فتطحنكم كما تطحن الرحى الثقيلة الحبوب ، ولن يحدث ذلك مرة واحدة ، بل مرتين فى العام، وسوف يولد لكم فى هذه الحرب أبناء شؤم مثل أبناء عاد الذين عقروا الناقة :

وما الحرب إلا ما علِمتم وذقتموا	وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً	وتضرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرَمِ

---

(٤٢) العشماوى [أ] ١٩٤ (٤٣) الهشماوى [ب] ١٥١

فتعرككُم عَرْكَ الرحى بثِفالها   وتلقـح كِشـافا ثم تُنتَج فَتتأم
فتنتج لكم غلمانَ أشأم كلهم   كأحمر عادٍ ثم تُرضعْ فتفطمِ(٤٤)

وهـذا زهيـر بن أبى سلمى مرة أخرى ، يُقَرّظ ويُعلى من شأن قبيلتى ذبيان وعـبس المتحاربتين ،ويمدح لهما أنهما بعد العداوة الطويلة قد تداركتا الأمر ،ولم تدخـرا وسـعا فى حقن الدماء بالتضحية بالمال واستعمال المعروف ، فأصبحتا بذلـك فى أفضل مكانة ،بعيدتين عن قطع الرحم ، وقد تبوأتا بصلحهما هذا مكانة عظيمة :

تداركتما عبسـا وذبيـانَ بعدما   تفانوا ودقّـوا بينهم عطر مَنْشِمِ
وقد قلتما إن ندرك السلمَ واسعا   بمالٍ ومعـروفٍ من القولِ نسلم
فأصبحتما منها على خيرِ موطنٍ   بعيـدينِ فيهـا من عقوقٍ ومأثمِ
عظيمين فى عُليا مَعـدٍّ هُديتـما   ومن يَستَبِحْ كنزا من المجد يَعظُمِ(٤٥)

هـا قد انتهينا من عرض الفضائل والقيم عند العرب فى العصر الجاهلى ، ورأينا أن الدين لم يكن ذا تأثير قوى على الأخلاق ، ومع ذلك كانت لهم فضائلهم وقيمهـم ، فرأيـنا فى النـثر العربى كيف يُؤثِر العربى أخاه-أى صديقَه- على نفسه، وكيف أن العربى كان يحسن الظن بأخيه-أى صديقه- فيلتمس له الأعذار، ورأينا أن العربى قد أدرك فكرة "الضمير" وإن اعتقد مثل معظم الشعوب القديمة أنه يسكن فى الفؤاد- أى القلب – ورأينا أن العربى يطالب بإنجاز الوعد والوفاء به ، أما عن العفة والكرامة فكانت سمة للمرأة الجاهلية "الحرة "، حتى أنها تجوع ولا تـأكل بثدييها، و"الإنسان الحر" لا يفرط فى كرامته حتى لو تعرض للموت ، ورأينا أيضا أنهم أدركوا قيمة العدالة ، وقالوا "إن ليس من العدل سرعة العدلْ".

---

(٤٤) الزوزنى ١٤٧-١٤٩   (٤٥) الوزنى ١٤٣-١٤

أمـــا عـــن فضائل العرب قبل الإسلام التى عثرنا عليها فى الشعر الجاهلى ، فكـــثيرة متـــنوعة ، ولعل الشجاعة والبطولة والحماس تكون أبرز هذه الفضائل حـــتى أنهـــم يحتضنون الموت احتضانا ، غير أن العربى الجاهلى لم يكن يتحلى بالشـــجاعة من أجل الحرب فقط ، بل يتحلى بها أيضا من أجل سبب آخر طريف وهـــو أن يـــتحدى الصـــعاب ويغلب الحراس كى يصل إلى محبوبته ، أما الكرم والشـــهامة والإحســـان فهى من الفضائل التى يفخر بها العربى ، وهو لا يمارس هـــذه الفضائل مع المحتاجين ، أو لنجدة الملهوف فحسب ، بل يمارسها أيضا مع ندمائه وأقرانه عند الشراب ، فيبذل لهم أغلى الخمور وينحر لهم أفضل الذبائح . كمـــا كان العربى القديم يتغنى بالأمانة وصيانة العهد ويجزع من الخيانة ، ورأينا أشـــعار الـــنابغة الذبيانى وقد فاضت بكل ذلك ، كما فاضت بفضائل العفو والحلم والحكمـــة ، وقد رأينا كيف أن العربى كان يتلهف على تلبية نداء العشيرة فيقوم بالواجب نحوها ، وأنه كان لا يهدأ له بال حتى ينال الثأر ، وكان الثأر فضيلة . وأخيـــرا شـــاهدنا حـــب العربى القديم للسلام ، فرغم أن حياة هذا الإنسان كانت مفعمة بالقسوة والعنف ، إلا أنه كان مع ذلك يرنو إلى السلام ، ولقد اطلعنا على أشـــعار زهيـــر بن أبى سلمى التى يتغنى فيها بالسلام ، ولا بأس أن نعيدها مرة أخرى :

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتموا	وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ
متى تبعثـــوها تبعثوها ذميمـــةً	وتضرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرَمِ
فتعرككُم عَرْكَ الرحى بثفالـــها	وتلقح كِشـــافا ثم تُنتَج فَتتـــأمِ
فتنتـــج لكـــم غلمانَ أشأم كلهم	كأحمـــر عادٍ ثم تُرضعْ فتفطِمِ

كـــل هـــذه الفضـــائل والقيم ، مارسها العربى قبل الإسلام ، وهى جميعا أو معظمهـــا فضـــائل بدويـــة صحراوية ، يمكن أن نشهدها فى أى بيئة صحراوية

أخـــرى تخضـــع لقسوة الطبيعة وشظف العيش ، بحيث يمكننا أن نطمئن إلى حد كبير إلى أنها لم تتأثر بالدينين اليهودى والمسيحى اللذين كانا موجودين فى بعض مـــناطق الجزيرة العربية ، وهذا معناه - إن صَحَّ - أن العربى الجاهلى قد أنشأ فضائله وقيمه على عاتقه، وأن هذه الفضائل والقيم كانت نابعةً من صميم حياته ، وهى لم تختلف عن تلك التى جاءت فى الكتب **الإلهيـــة .**

الخاتمة

لعلنا نكون قد أثبتنا فى هذا الكتاب أن أصحاب الديانات الإنسانية ، كانت لهم فضـــائلهم وقيمهم ، وأن هذه الفضائل والقيم قد وصلت عند بعض ذوى الديانات الإنسانية إلى مستوى قريب جدا أو حتى متطابق مع الفضائل والقيم عند أصحاب الديانات الإلهيـــة ، فلقد رأينا أن المصريين القدماء هم وفراعنتهم قد توصلوا إلى مفهوم"الضمير"، المحرك الأساسى للأخلاق ، وأنهم اهتموا اهتماما شديدا بالعدالة الاجـــتماعية والمساواة أمام الله والقانون بين جميع الناس ، فلا نتحيز ضد الفقير الـــذى يلـــبس الملابس القذرة لصالح الشريف الذى يلبس الكتان لأن التحيز يعد طغيانا على الإله ، كما حثوا على الطهر والعفة والابتعاد عن الزنا الذى هو أكبر الكـــبائر ، وحـــثوا على التعاطف مع الفقير (فلا تمنعن أناسا من عبور النهر ، وخـــذ الأجر من الرجل صاحب الثروة ورحب بمن لا يملك شيئا) ، كما عطفوا عـــلى كـــبار السن و الآباء (ضاعف مقدار الخبز الذى تعطيه لوالدتك) ،وعلى ذوى العاهـــات (فلا تهزأن من قزم ولا تفسدن قصد رجل أعرج) ، كما اهتموا اهـــتماما خاصـــا بالـــنزاهة والأمانـــة وعدم الغش فى الموازين والمكاييل (فإن المكيال الذى يعطيك الله خير لك من خمسة آلاف تكسبها بالبغى)٠

ننتقل بعد ذلك إلى البابليين لنرى أنهم قد أدركوا الرحمة والشفقة والصدق ، كمـــا كـــان الإله شماس – وهو إله العدالة – يبغض الشرير ، أما من يحنث فى يميـــنه فـــإن شماس يعجل له نهايته هو ومن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه ٠ولن ننسى قانون حامورابى الذى اهتم بالعدالة والخير٠ ثم رأينا كيف أن أورو كاجينا المصلح الاجتماعى السومرى قد حارب الرشوة التى انتشرت فى المعابد٠

أمـــا الفـــرس فقد عرفوا كثيرا من الفضائل والقيم حيث دعا زرادشت إلى الاســتقامة واخماد روح الشر ، بل لقد جعل من الحق والخير والحكمة أقانيم لله تعـــالى وطـــالب بقول الحق وترك الكذب والسرقة ، والبعد عن الزنا ،وبعد ذلك طـــالب مـــانى ابن فاتك أن لا يأتى الإنسان على ذى روح بما يكره أن يؤتى إليه بمثله ٠

أما الهندوس فقد اهتموا بالفكر الصالح والوفاء والتسامح مع أصحاب العقائد الأخـــرى ، وأن لا نفكـــر بشر نحو البشر ، ولقد اهتم الهندوس بالنظافة والطهر (والعمـــل عـــلى طهـــارة النفس و حفظ العِرض والنسل والتمسك بنصائح هؤلاء المـــلهمين مـــع الإخلاص والتضرع والخشوع)٠ أما بالنسبة للنساء فلهم منزلة رفيعة عند الهندوس؛ فقد قرر المشرع مانو أنه (لا يجوز ضربهن حتى بزهرة) وهو تشريع بلغ درجة عالية فى رقته ونبله ٠

ثـــم رأينا كيف حفلت البوذية بالفضائل والقيم ، ومن أهمها كبح الجماح ووأد الشـــهوات والطهـــارة الـــتى هى عند بوذا أن لا نؤذى مخلوقا قط ، ولا نمارس الحـــرام بأيديـــنا أو حواسنا (فالعين التى تصان عن الحرام فاضلة وهكذ الأذن الـــتى تصان والأنف الذى يصان كلها فاضلة) ٠ والأهم من كل ذلك الطهر من الـــباطن ، إنـــه طهـــر الضـــمير ، ورأينا كيف طالب بوذا بالصدق وعدم النفاق والـــرحمة (فـــالذى يسميه برهمانيا لا يعذب مخلوقا ضعيفا) ، كما طالب بحب الآخـــرين والوفاء لهم ، والقاضى لابد أن يكون عادلا وإلا ستحيق به سلسلة من المصـــائب ، كمـــا اهـــتم بوذا بالمساواة بين البشر٠ ثم رأينا كيف أن البوذية فى اليابـــان قـــد حفلت – إلى جانب ذلك – بالحب المتبادل بين الطغاة والشعب ، مع احترام كبار السن والأمراء بدرجة كبيرة ٠

ثم رأينا بعد ذلك كيف أن كونفشيوس كان يطلب أن تحب لأخيك ما تحب

لنفسك ،وهى القاعدة الذهبية للأخلاق ، كما طالب بالقناعة للدولة جميعها حتى لا تضطر لمحاربة جيرانها ، كما طالب بالرحمة بالمسنين والأرامل ·ولم يكن كل ذلك طمعا فى الجنة أو خوفا من النار ، فقد نحاهما جانبا ، وإنما إرضاءا للضمير · ولقد أصبحت الثقافة فضيلة على يديه ، ربما لأول مرة فى التاريخ ، ولا ننسى دوق جَدْ الذى طالب بحرية الرأى فضيلة فى وقت مبكر من التاريخ ·

ثم رأينا بعد ذلك كيف أن اليونانيين اهتموا بالعفة والطهارة والفضيلة من أجل الخلاص ، وكيف أحبوا العدالة وكرهوا الرّشوة والفساد ، كما كانوا أول من اهتم بتطبيق الديموقراطية ، ومعناها المساواة بين المواطنين ، وهم بعد كل ذلك أول من نظّر للأخلاق فى التاريخ ، أما فضائل القسوة والكذب والغدر التى كانت عندهم فى عصر الآخيين ، فلقد تخلوا عنها فى العصور التالية· ولن ننسى قَسَم أبوقراط الذى حفل بباقة من الفضائل التى مازال معظمها صالحا حتى اليوم· ثم رأينا كيف أن الرواقيين طالبوا بالسيطرة على النفس والزهد ووأد الشهوات ·

أما الرومان فقد رأينا كيف أن دينّهم كان يدعو إلى فضائل الأخلاق وكيف أن الأسرة قد قامت على أساس من الاحترام المتبادل والتقوى ، وكيف أن الفتياتِ كُنّ يحافظن على عفتهن ، ورأينا أن الرومانى كان أمينا على أموال الدولة ، وكيف ضرب الرومان أروع مثل فى التمسك بالواجب والوفاء بالوعد حين أعادوا الأسير الرومانى الهارب مصفدا بالأغلال إلى القائد هانيبال ·

أما عندالعرب فقد رأينا كيف يُؤْثِرُ العربى أخاه (أي صديقه) على نفسه، وكيف تحافظ المرأة على شرفها (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها) كما يحافظ الرجل على كرامته مهما اشتدت عليه وطأة الحياة (المنية ولا الدنية) ، كما يأمرون بالعدل (ليس من العدل سرعة العدل) ، أما الشجاعة والبطولة والكرم وإجارة المستجير والواجب نحو العشيرة ، فهى من أسمى الفضائل عند العربى الجاهلى ، هذا إلى أنه كان – رغم قسوته- يميل إلى الحلم والعفو · وأخيرا رأينا

أن العـــربى - إلى جـــانب حبه للقتال والإغارة على جيرانه - كان محبا للسلام ويرنو إليه ٠ونكتفى بهذا القدر ٠

لاشـــك أن القارئ لابد أن يكون قد لاحظ أن كافة هذه الفضائل والقيم تكاد تكـــون متطابقة مع ما جاء به الوحى إلا قليلا جدا مثل القسوة عند الآشوريين ، والكذب والخداع عند اليونان فى عصر الآخيين ، وبعض القيم عند اليابانيين، فـــإن مثل هذه الفضائل والقيم ما تلبث أن تتغير فى العصور التالية بعد أن تؤدى وظيفـــتها كما رأينا عند اليونان وتصبح بعد ذلك من الرذائل ، بل إن هناك بعض القيـــم عـــند ذوى الأديـــان الإنســـانية التى تسترعى الاهتمام ، فمن ضمن آيات الـــبرهمانى مثلا أن تكون معانيه واضحة ، أى أن البوذى لابد أن يتمتع بوضوح المعانى ، ومن ضمن القيم التى تسترعى الاهتمام أيضا عند البوذية هو ضرورة أن تكون لك وجة نظر واضحة جلية " ومن بين كل الناس الذين يملكون وجهات نظـــر ، فالأفضـــل فيهم من تكون وجهة نظره واضحة نيرة " ٠كل ذلك يؤكد أن ذوى الأديـــان الإنسانية كانت لهم فضائلهم وقيمهم الجديرة بالاحترام ٠ فلو تبين ذلك لبعض أصحاب الديانات الإلهيـــة الذين يعتقدون أنهم فقط أصحاب الفضائل والقيـــم التى لا توجد إلا فى أديانهم باعتبارها إملاءا من الوحى الإلهى ، وأنها لا يمكـــن أن توجد خارج الوحى ، لو تبين لهم ذلك لَقَلَّ رفضهم لأصحاب الديانات الإنســـانية وأصبحوا أكثر قبولا لهم باعتبارهم يشتركون معهم فى حبهم للفضيلة والخير، وكراهيتهم للرذيلة والشر وليس لتحليهم بفضائل معينة ، المهم هو وجود الإرادة الخيـــرة ٠وحـــتى أولئك الذين يختلفون معنا فى فضائلهم وقيمهم كوفاء الســـاموراى تجـــاه أمرائهم عند وفاتهم مثلا ، فليس لنا أن نرفضهم، بل علينا أن نـــتفهم فضائلهم داخل ثقافاتهم ، دون أن نكون ملزمين بقبولها ضرورة فالفضائل والقيـــم بـــنيوية ، أى تكون أنساقا متكاملة بعناصرها ، وترتبط ارتباطا وثيقـــا

بظروف حياة أصحابها التى تؤثر حتما على هذه الفضائل والقيم· فلا نحكم على قيمة من القيم منفصلة عن بيئتها الاجتماعية والجغرافية ·

وما دام الإنسان ذو الدين الإنسانى قد عرف الفضائل والقيم دون أن يتاح له الالتقاء بدين إلهـى، فالفضائل والقيم إذن إنسانية واجتماعية، ونستطيع أن نضيف إليها بعدا ثالثا : وأنها أيضا جغرافية كما رأينا عند العرب الذين سادت لديهم فضائل الشجاعة والبطولة والكرم ، وهى جميعا من فضائل الصحراء فى أى مكان ·وهذا يعنى – بالنسبة لهذه الخصيصة – أن المناطق الدفيئة مثلا ، تختلف فى فضائلها وقيمها بعض الاختلاف عن المناطق المتجمدة ، والمناطق الممطرة تختلف عن المناطق الصحراوية الجافة · وهو يعنى بمعنى آخر أنه من الخطأ منهجيا أن نقارن بين الفضائل والقيم فى منطقتين مختلفتين اختلافا جغرافيا حادا ، فالكرم عند الإسكيمو مثلا يصل إلى درجة لاتتقبلها الشعوب الأخرى·

ونضيف أيضا خصيصة جديدة للفضائل والقيم ، وهى أنها تكون أحيانا تطورية – وإن كنا لا نستطيع أن نعمم هذا الاتجاه التطورى على كل تغير يحدث فى الأخلاق – فرغم أننا التزمنا بالمنهج الوصفى فى هذا الكتاب ، غير أن ذلك لا يمنع أن نلحظ اتجاها تطوريا فى الأخلاق ، مرة فى المجتمع الواحد ، ومرة أخرى فى المجتمع الإنسانى ككل ؛ فبالنسبة لتطور حدث فى مجتمع واحد ما حدث فى اليونان، فلقد كان الكذب والغدر والخداع والقسوة من ضمن الفضائل فى عصر الآخيين– كما رأينا– ولكن هذه الفضائل لم تستمر فى العصور التالية وهجرها أهلها بعد أن أدت وظيفتها فأصبحت من الرذائل ، وحلت محلها فضائل الكرم وتقديس النفس البشرية والعطف على العاجزين···إلخ ·ومن مظاهر التطور الذى حدث فى المجتمع الإنسانى ككل ، أن تقاليد التدين عند بعض الشعوب كانت تتطلب التضحية بالآدميين – كما رأينا فى اليونان وبابل – ولكن ازدياد التراحم منع هذه العادة ، وقد حدث نفس الشيء

بالنسبة لشعوب أخرى فحرَّمت حتى ذبح الحيوان قربانا للإله ، كما حـدث فـى الصين ؛ فهذه شعوب متباعدة مكانا وزمانا ولكن يجمعها اتجاه تطورى واحـد. ونستطيع أن ندعم هذه النظرية أيضا بما نلاحظه من اتجاه أخلاقى معاصر بـدأ ينمو فى كافة المجتمعات بالعالم ، سواء كانت ذوات أديان إنسـانية أو سـماوية، وهو اتجاه قائم أساسا على احترام الشخص البشرى ، واعتباره غاية فى ذاتـه ، بل احترام الكائن الحى عموما ، مما يؤيد الاتجاه التطورى من ناحية ، ويـوحى بأن الفضائل والقيم تقدمية أيضا من ناحية أخرى ، أى تسير فى اتجـاه واحـد ، غير أننا لا نضمن ذلك دائما ؛ ففى الأوقات التى تسود فيها الأحقـاد والحـروب لأسباب دينية أو عرقية أو طبقية أو غير ذلك ، تصبح لفضـائل القسوة وقيمها وللغدر والكذب جاذبية خاصة قد لا يمكن مقاومتها لدى الكثيرين ، فيعودون إليها بعد أن كانوا قد هجروها إلى أن تزول أسباب الصراع.

وكما رأينا فى الفقرة السابقة أن الفضائل والقيم قد تكون تطورية أحيانا ، فإنها قد تكون " انبثاقية " أحيانا أخرى ، فتنبثق بعض الفضائل والقيم عند شعب من الشعوب ، بحيث لا يكون لها نظير عند الشعوب الأخرى ؛ فلقـد رأينـا أن "الثقافة" و " وضوح المعانى " كانتا فضيلتين عند الكنفوشيوسـيين والبـوذيين ، وهما فضيلتان لم نلحظهما عند شعب آخر من الشـعوب التـى قـدمناها طبقـا لمراجعنا.

وكل ما سبق يؤكد للقارئ – بما لا يدع مجالا للشك – أن الفضائل والقـيم نسبية تختلف من مجتمع لآخر، بل قد تختلف فى المجتمع الواحد من عصر إلـى عصر .

إن قول بعض فلاسفة الأخلاق بعدم نسبية الفضائل والقيم وأنها مطلقة ، كما نرى عند اللاهوتيين والعقليين ، فضلا عن أنه يجافى الواقع – على النحو الـذى رأيناه– سوف يؤدى بالضرورة إلى رفضهم للآخر وعدم قبوله ، لأنـه ربمـا لا

يشاركهم فى فضائلهم وقيمهم التى اعتبروها مطلقة ، وأنها – أى فضائلهم- أرقى الفضائل والقيم جميعا • و على ذلك فإن أصحاب هذه الفضائل والقيم المطلقة يعتبرون أنفسهم أفضل البشر، وأنهم مختارون ومميزون على الناس جميعا • وهنا يكون سبب من أسباب الاستعلاء الذى يؤدى بالضرورة إلى الصراع بين المجتمعات • أما القول بأن الفضائل والقيم نسبية – وهو ما أثبتته هذه الدراسة بالفعل – فإنه سوف يؤدى إلى عدم الاستعلاء ، مما يمهد لقبول الآخر وعدم رفضه ، وزوال سبب رئيسى من أسباب الصراع بين الشعوب •

وأخيرا نرفض مع جيمس هنرى برستيد أن يكون هناك شعب بالذات ينفرد بالتمتع بالوحى الإلهى كما سبق أن ذكرنا بالمقدمة ، وإذا كان هناك شعب بالذات مختارٌ من الله لما له من فضائل وقيم ، فإن كل الشعوب فى كل العصور عملت جاهدةً للحصول على الفضائل والقيم ، وحققت نتائج طيبة على النحو الذى رأيناه دون أن يتاحَ لبعضها الاتصال بدين إلــهى حيث حمل الإنسان المسئولية الخلقية على عاتقه ، ولم يقف مكتوف اليدين ،وبذلك نستطيع أن نقول – بهذا الاعتبار – أى باعتبار أن كل الناس يرنون إلى الفضائل والقيم :

إن كل الناس جميعا هم شعب الله المختار •

All People Are The God Selected People

إن الذى يسلك سلوكا خلقيا طيبا طبقا لتعاليم الوحى ، لاشك أنه إنسانٌ فاضل، لكننا لابد أن ننظرَ نظرةً مليئةً بالتقدير والاحترام أيضا لذلك الإنسان الذى صنع فضائله وقيمه بنفسه لأنه لم يتح له الالتقاء بدين إلــهى ، ونستطيع أن نقول الآن– فى هذا العصر – أن كافة الشعوب يمكنها أن تطّلع على ما عند الشعوب الأخرى من فضائل وقيم لتثرى بها حياتها الخلقية ، فتتقارب الثقافات

ويقل الصراع كما سبق أن ألمحنا ٠

هذا ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أقدم أسفى و اعتذارى للشعوب التى لم أذكر فضائلها وقيمها ، أو التى ذكرت فضائلها وقيمها ولكنى قصَّرت فى هذا الذكر ، فإن ذلك يرجع إلى توفر المراجع التى أتيحت لى لبعض الشعوب دون غيرها ، ولعل باحثا آخر يأتى فيجمع مزيدا من الفضائل والقيم التى لم تعرض لى ، فالبحث الخلقى ينبغى أن يستمر ، فنحن مازلنا قريبين من فجر الضمير كما قال بحق مؤرخ الأخلاق جيمس هنرى برستيد ، والمستقبل ما زال مفتوحا أمام الإنسان لنمو الفضائل والقيم ، مما يؤذن بظهور فضائل وقيم جديدة لم نرها من قبل ٠

المراجع

أولا : المراجع العربية :

أميرة : الفلسفة عند اليونان ، دكتورة أميرة حلمى مطر ، الناشر، دا رالنهضة العربية، شارع عبد الخالق ثروت ط ٣ – ١٩٦٨ .

أمين : فجر الإسلام، الأستاذ أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، ٩ شارع صدقى باشا بالقاهرة ط ١٢ – ١٩٧٨ .

برستيد : فجر الضمير ، جيمس هنرى برستيد ، ترجمة الدكتور سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ .

التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، دكتور أبو الوفا التفتازانى . مكتبة القاهرة الحديثة.

الجارم : أديان العرب فى الجاهلية.محمد نعمان الجارم.القاضى بالمحاكم الشرعية.مطبعة السعادة.بجوار محافظة مصر١٩٢٣.

الخزاعى : أمثال العرب .أبو عبيد القاسم بن الإسلام الخزاعى. [مقدمة هذا الكتاب مكتوبة باللغة الألمانية.ويبدو أنه طبع بلبزج بألمانياعام ١٩٢٨ . وهو موجود بمكتبة محافظة الإسكندرية تحت رقم٣٦١٧ د].

ديورات :قصة الحضارة لول ديورانت.ترجمة د. زكى نجيب محمود وآخرين. نشر وزارة الثقافة. مكتبة الأسرة. شركة نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة ٢٠٠١ .

زرادشت:ترانيم زرادشت .ترجمة وتقديم دكتور فليب عطية.الهيئة المصرية العامة للكتاب.سلسلة الألف كتاب رقم ١٣٣ القاهرة ١٩٩٣ .

زكريا [أ] : المشكلة الخلقية.دكتور زكريا ابراهيم. مكتبة مسر- ٣ شارع كامل صدقى بالفجالة القاهرة١٩٦٩ .

زكريا [ب] : مشكلة الحب. دكنور زكريا ابراهيم.مكتبة مصر. ٣ شارع كامل صدقى بالفجالة.ط ٢ القاهرة ١٩٧٠ .

الزوزنى : شرح المعلقات السبع للقاضى الإمام أبو عبد الله الحسين الزوزنى. مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٢ .

سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام.الدكتور السيد عبد العزيز سالم مؤسسة الثقافة الجامعية. الإسكندرية. ١٩٧٣ .

سـليم : مصـر القديمة·الأدب المصرى القديم·الجزء ١٧ ·دكتور سليم حسن· هيئة الكتاب ٢٠٠٠ ·

الشـحات : السـريان والحضارة الإسلامية·دكتور الشحات السيد زغلول· الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية ١٩٧٥ ·

شلبى :الأديان القديمة فى الشرق ·مع ترجمة لكتاب البوذية·ط ٢ ·دكتور رؤوف شلبى·دار الشروق – ١٩٨٣ ·

الشهرسـتانى : المـلل والنحل للشهرستانى ·تعديل وتقديم صدقى جميل العطار· دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع·حارة حريك شارع عبد النور ·بيروت·لبنان ١٩٩٩ ·

الضـبى : أمـثال العـرب للمفضـل الضبى·طبعت برخصة نظارة المعارف الجليلة· تاريخ الرخصـة فى ربيـع الأول وعددها٨٨٨ [أى رقم الرخصة]، فى مطبعة الجوانب القسطنطينية ١٣٠٠هـ ·

ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى·دكتور شوقى ضيف· دار المعارف ·ط ٩-١٩٨٠ ·

الطويل: الفلسفة الخلقية · نشأتها وتطورها·دكتور توفيق الطويل·ط٢ ·دار النهضة العربية· القاهرة – ١٩٦٧ ·

العشـماوى [أ] :قضـايا الـنقد والبلاغة ·دكتور محمد زكى العشماوى·دار الكاتب العربى للطباعة والنشر· الإسكندرية ١٩٦٧ ·

العشـماوى [ب] : النابغة الذبيانى ·دكتور محمد زكى العشماوى · دار المعارف بمصر· غير محدد سنة الطبع·

كـانط : أسـس ميـتافيزيقا الأخلاق·ايمانويل كانط· ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى · ملتزم الطبع والنشر مكتبة القاهرة الحديثة· ط٢ – ١٩٦٥ ·

الموسـوعة : الموسـوعة الفلسفية المختصرة·ترجمة الأساتذة : فؤاد كامل وجلال العشرى وعبد الرشيد صادق· ومراجعة الدكتور زكى نجيب محمود·سلسلة الألف كتاب ٤٨١ ·مكتبة الأنجلو المصرية·غير موضح سنة الطبع ·

ويدجرى : التاريخ وكيف يفسرونه من كونفشيوس إلى توينبى· آلبان ج· ويدجرى· ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد·الهيئة المصرية للكتاب· القاهرة ١٩٧٢ ·

ثانيا : المراجع الأجنبية :

كامبردج :
Cambridge : International Dictionary Of English , Cambridge University **Press** , 1995 .

كشاف الفضائل والقيم

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

بطاقة الفهرسة

شمس الدين، جلال

الفضائل والقيم لدى الشعوب القديمة ذوات الاديان الانسانية/ جلال شمس الدين

ط١ - الاسكندرية

مؤسسة الثقافة الجامعية، ٢٠٠٦

٢٢٠ صفحة ،١٧ × ٢٤سم

١- القيم الاخلاقية

أ- العنوان ٢٠٢ / ١٧٠

رقم الايداع

٢٢٣٦٠ / ٢٠٠٦